

جامع السعادات

للشيخ الجليل أمير أعلام المجتهد بن المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ

الجزء الأول

تصدي لنشره والتعليق عليه وتصحيحه

الفاضل السيد محمد الكلا نري

تم تحقيقه والتعليق عليه وتصحيحه بإشراف

الشيخ محمد رضا المنظمر معتمد منتدى النشر

مطبعة الزمراء في نجف

١٣٦٨ — ١٩٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

هياة المؤلف (١)

١٢٠٩ — ١١٢٨

هو الشيخ الجليل المولى محمد مهدي بن ابي ذر الزراقي أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة ، ومن اصحاب التأليفات القيمة . ويكاد أن يعد في الدرجة الثانية أو الثالثة من مشاهير علماء القرنين . وهو عصامي لا يعرف عن والده (ابي ذر) إلا أنه كان موظفاً في الدولة الابرانية بوظيفة صغيرة في قرية نراق . ولولا ابنه هذا لذهب ذكره في طيات التاريخ كلابين البشر من أمثاله ولا يعلم ما إذا كان لشيخنا الزراقي اخوة ، ولكن له ولد نابه الذكر هو المولى احمد الزراقي المتوفى ١٢٤٤ صاحب (مستند الشيعة) المشهور في الفقه وصاحب التأليفات القيمة أحد أقطاب العلماء في القرن الثالث عشر وكفى فيه فخراً أنه أحد أساتذة الشيخ العظيم المولى مرتضى الأنصاري المتوفى ١٢٨١ .

ولعل الزاقي الصغير هذا هو من أهم أسباب شهرة والده وذووع صيته لما وطى عقبه وناف عليه بدقة النظر وجودة التأليف . كما حدا حذوه

-
- (١) مصادر البحث - ١ - روضات الجنات لاسيد محمد باقر الخراساني المطبوع بایران - ٢ - الروضة البهية لاسيد محمد شفيع الحسيني المطبوع بایران ايضاً - ٣ - اء - ان الشيعة للحجة السيد محسن الامين في ترجمة الشيخين احمد الزاقي واسماعيل الخا جوي - ٤ - مستدرك الوسائل الجزء الثالث - ٥ - الذريعة لشيخ الحق محمد محسن اغا بزرك - ٦ - الاستاد المصفي له ايضاً المطبوع بالنجف سنة ١٣٥٦ .

في تأليفاته فان الأب المكرم ألف في الفقه معتمد الشيعة والابن الجليل ألف مستندها . وذلك ألف في الأخلاق [جامع السعادات] وهذا الكتاب الذي مقدمة وهذا ألف [معراج السعادة] في الفارسية . وذلك ألف [مشكلات العلوم] وهذا ألف [الخزان] . وهكذا نسج على منواله وأحكم النسج .

مرامه ووفاته

ولد الشيخ المترجم له رحمه الله تعالى في « عراق » كعراق (١) وهي قرية من قرى كاشان بيران تبعد عنها عشرة فراسخ . وكذا كانت مسقط رأس ولده المتقدم الذكر . ولم يذكر التاريخ سنة ولادته . وعلى التقريب يمكن استخراجه من بعض المقارنات التاريخية ، فانه تلمذ « في أول نشأته على ما يظهر » على الشيخ المحقق الحكيم المولى اسماعيل الخاجوي ثلاثين سنة مع العلم أن استاذة هذا توفي عام ١١٧٣ فتكون أول تلمذته عليه عام ١١٤٣ على أقل تقدير إذا فرضنا أنه لازمه الى حين وفاته . ولنفرض على أقرب تقدير أنه قد حضر عليه وهو في سن ١٥ عاماً . وعليه فتكون ولادته عام ١١٢٨ .

أما وفاته فقد كانت عام ١٢٠٩ في النجف الأشرف ودفن فيها ، فيكون قد بقي بعد وفاة استاذة الوحيد البهبهاني سنة واحدة .

نشأته العلمية وأساتذته

عاش شيخنا كما يعيش عشرات الآلاف من أمثاله من طلاب العلم خامل الذكر فقير الحال منزوباً في مدرسته ، لا يعرف من حاله إلا أنه طالب مهاجر ولا يتصل به إلا أقرانه في دروسه الذين لا يهمهم من شأنه إلا أنه طالب كسائر الطلاب يتردد في حياة رتيبة بين غرفته ومجالس دروسه ، ثم بعد ذلك لا ينكشف لهم من حاله إلا بزمته الرثة التي ألفوا منظرها في آلاف طلاب العلم فلا تثير اهتمامهم ولا اهتمام الناس .

وبطبيعة الحال لا يسجل له التاريخ شيئاً في هذه النشأة ، وكذلك

(١) وفي أعيان الشيعة ج ١٠ ص ٢٥٠ انها بفتح النون .

كل طالب علم لا يسجل حتى اسمه ما لم يبلغ درجة المجتهدين الذين يرجع اليهم في تدريس أو تقاليد . ومن هنا تبتدى معرفة حياة الرجل العالم وتظهر آثاره العلمية .

ومع ذلك فانا نعرف عن شيخنا أن أساتذته واكثرهم حضوراً عنده هو المولى اسماعيل الخاجوي المتقدم الذكر . وهذا الاستاذ كان مقره في اصفهان وفيها توفي ودفن ، والظاهر أنه لم ينتقل عنها حتى في السكارة التاريخية المفجعة التي أصابها من الأفغانين الذين انتهكوها بما لم يحدث التاريخ عن مثلها وذلك سنة ١١٣٤ ، فتكون نشأة شيخنا المترجم العالمية في مبدأ تحصيله في اصفهان على هذا الشيخ الجليل . والظاهر أنه عاينه قرأ الفلسفة لأن هذا الشيخ من أساتذة الفلسفة المعروفين الذين تنتهي تلمذتهم في ذلك العصر الى المولى صدر الدين الشيرازي صاحب الأسفار . وكفى أن من تلاميذه المولى محراب الالهى المعروف الذي طورد لقوله بوحدة الوجود ، ولما جاء الى إحدى العتبات المقدسة متخفياً وجد في الحرم شيخاً ناسكاً يسبح بلعن ملاحداً وملاح محراب ولما سأله عن السبب في لعنها قال لانها يقولان بوحدة واجب الوجود فقال له : إنها حقاً يستحقان منك اللعن .

ودرس ايضاً شيخنا المترجم له « والظاهر أن ذلك في اصفهان ايضاً » على العالمين الكبيرين الشيخ محمد بن الحكيم العالم الحاج محمد زمان والشيخ محمد مهدي الهرندي . وهما من أساتذة الفلسفة على ما يظهر .

ولا شك أنه انتقل الى كربلا والنجف فدرس على الأعلام الثلاثة : الوحيد البهبهاني الآتي ذكره ، وهو آخر أساتذته وأعظمهم وتخرجه كان على يديه ، والفقيه العالم صاحب الحقائق الشيخ يوسف البحراني المتوفى ١١٨٦ والمحقق الجليل الشيخ مهدي الفتوني المتوفى ١١٨٣ .

فجملة اساتذته سبعة سماهم ولده في بعض اجازاته على ما نقل عنه بدر الكواكب السبعة . وهم خيرة علماء ذلك العصر وعلى رأسهم الآغا الوحيد استاذ الاساتذة . ولما فرغ هذا الشيخ من التحصيل في كربلا رجع الى بلاده واستقام في كاشان . وهناك أسس له مركزاً علمياً تشد اليه الرحال بعد أن كانت كاشان مقفورة من العلم والعلماء واستمرت بعده على ذلك مركزاً من مراكز

العلم في إيران. وليس لدينا ما يشير إلى تأريخ انتقاله إلى كاشان .
ورجع إلى العراق وتوفي في النجف الأعظم ودفن فيها ، والظاهر
أن مجيئه هذا وكان معه ولده بعد استاذة الوحيد ، جاء لزيارة المشاهد المقدسة
فتوفي . أما ولده فقد بقي بعده ليدرس العلم على أعلامه يومئذ كغيره من العلوم
وكاشف الغطاء .

مختصره

يمضي القرن الثاني عشر للهجرة على العتبات المقدسة في العراق ، بل على
أكثر المدن الشيعية في إيران التي فيها مركز الدراسة الدينية العالية كاصفهان
وشيراز وخراسان — وتطغى فيه ظاهرتان غريبتان على السلوك الديني :
الأولى النزعة الصوفية التي جرت إلى مغالاة فرقة الكشفية . والثانية النزعة الاخبارية
وهذه الأخيرة خاصة ظهرت في ذلك القرن قوية مسيطرة على التفكير
الدراسي وتدعو إلى نفسها بصراحة لا هوادة فيها ، حتى أن الطالب الديني
في مدينة كربلاء خاصة أصبح يجاهر بتطرفه ويغالي فلا يحمل مؤلفات العلماء
الاصوليين إلا بمنديل خشية أن تنجس يده من اللمسة حتى جلدتها . وكرهه
يومئذ أكبر من كره علمي للبلاد الشيعية .

وفي الحقيقة أن هذا القرن يمرُّ والروح العلمية فيه فائرة إلى حد بعيد حتى
أنه بعد الشيخ المجلعي صاحب البحار المتوفى في أول هذا القرن عام ١١١٠
لم تجد واحد من الفقهاء الاصوليين من يلمع اسمه ويستحق أن يجعل في الطبقة
الأولى أو تكون له الرئاسة العامة ، إلا من ظهر في أواخر القرن كالشيخ
الفتواني الجليل في النجف المتوفى ١١٨٣ ثم الشيخ آغا الوحيد البهبهاني في كربلاء
المتوفى ١٢٠٨ الذي تم على يديه تحول العلم إلى ناحية جديدة من التحقيق .
وهذا الفتور العلمي وطغيان نزعة التصوف من جهة ونزعة الاخبارية
من جهة أخرى في هذا القرن بالخصوص مما يدعو إلى التفكير والعجب .
وليس بأيدينا من المصادر ما يكفي للجزم بأسباب ذلك . واغلب الظن أن أهم
الأسباب التي نستطيع الجزم بها هو الوضع السياسي والاجتماعي اللذان آلت

اليها البلاد الإسلامية في ذلك القرن ، من نحو التفكك واختلال الأمن في جميع اطراف البلاد والحروب الطاحنة بين الامراء والدول لاسيما بين الحكومتين الايرانية والعثمانية وبين الايرانية والأفغانية تلك الحروب التي اصطبغت على الاكثر بصبغة مذهبية وهذا كله مما يسبب التبلبل في الافكار والاتجاهات وضعف الروح العامة المعنوية .

فأوجب ذلك من جهة ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعية والسلطات الزمنية . ويدعو ذلك عادة الى الزهد المغالي في جميع شئون الحياة والياس من الاصلاح ، فينشأ هنا نزعة التصوف ، وتتخذ يومئذ صرحاً علمياً على انقاض الفلسفة الاشراقية الاسلامية المطاردة المكبوتة التي سبق أن دعا لها انصار أغوياء كالمولى صدرالدين الشيرازي المتوفى عام ١٠٥٠ واضرابه واتباعه ، مع المغالاة في افكارها . وساند طريقة التصوف مبدئياً أن السلطة الزمنية في ايران وهي سلطة الصفويين قامت على أساس الدعوة الى التصوف وظلت تؤيدها وتمدها سرّاً .

ومن جهة اخرى يحدث رد فعل لهذا الغلو ، فينكر على الناس أن يركنوا الى العقل وتفكيره ، ويُلجأ الى تفسير التعبد بما جاء به الشارع المقدس بمعنى الاقتصار على الاخبار الواردة في الكتب الموثوق بها في كل شيء والجمود على ظواهرها . ثم يدعو الغلو هؤلاء الى ادعاء أن كل تلك الاخبار مقطوعة الصدور على ما فيها من اختلاف . ثم يشتد بهم الغلو فيقولون بعدم جواز الأخذ بظواهر القرآن وحده من دون الرجوع الى الاخبار الواردة . ثم ضربوا بعد ذلك بعلم الاصول عرض الجدار بادعاء أن مبانيه كلها عقلية لا تستند الى الاخبار ، والعقل ابداً لا يجوز الركون اليه في كل شيء ثم ينكرون الاجتهاد وجواز التقليد وهكذا تنشأ فكرة الاخبارية الحديثة التي اول من دعا اليها أو غالى في الدعوة اليها المولى امين الدين الاستربادي المتوفى ١٠٣٣ . ثم يظهر آخر شخص لهذه النزعة له مكانته العلمية المحترمة في الفقه هو صاحب الحقائق المتقدم ذكره . وهذا الثاني — وإن كان أكثر اعتدالاً من الأول واضرابه — كاد أن يتم يديه تحول الاتجاه الفكري بين طلاب العلم في كربلا الى اعتناق فكرة الاخبارية هذه .

وعندما وصلت هذه الفكرة الاخبارية الى اوجها ظهر في كربلاء علم الاعلام الشيخ الوحيد الاغا البهبهاني الذي قيل عنه بحق مجدد المذهب على رأس المائة الثالثة عشرة ، فان هذا العالم الجليل كان لبقاً منقوفاً ومجاهداً خبيراً ، فقد شن على الاخبارية هجوماً عنيفاً بمؤلفاته وبمجاجيجاته الشفوية الحادة مع علمائها ، وقد نقل في بعض فوائده الحائرة ورسائله نماذج منها ، وبدرسه القيمة التي كان يلقيها على تلامذته الكثيرين الذين التفوا حوله ، وعلى يديه كان ابتداء تطور علم الاصول الحديث وخروجه عن جموده الذي افقه عدة قرون ، واتجه التفكير العلمي الى ناحية جديدة غير مألوقة .

فانكشئت في عصره النزعة الاخبارية على نفسها ولم تستطع ان تثبت امام قوة حجته . وتخرج على يديه جماعة كبيرة من اعلام الامة كبحر العلوم وكاشف الغطاء والمحقق القمي والشيخ التراقي المترجم له واشباههم .

فبرز شيخنا المترجم في عنفوان معركة الاخبارية والاصولية ، وساحتها كربلاء ، وفي عنفوان معركة الدعوة الى التصوف وساحتها اصفهان على الاكثر ، فيكون احداً ابطل هاتين المعركتين ، بل احسد القواد الذين رفعوا راية الجهاد بمؤلفاته وتدريسه ، وسأئده على ذلك انه رحمه الله كان متفناً في دراسة العلوم ولم يقتصر على الفقه والاصول ومقدماتها ، فقد درس العلوم الرياضية كالمهندسة والحساب والهيئة ، كما درس الفلسفة ، ويظهر اثر تضاعفه في الفلسفة في كتابه هذا « جامع السعادات » ، لا سيما في الباب الأول ، وفي تقسيمه لآبواب الكتاب وفصوله على اساس علمي متقن برز فيه على كتب الاخلاق السابقة عليه من هذه الناحية . وسيأتي بيان ذلك .

كما أن تأليفه لهذا الكتاب يشعرنا بامرئين : « الأول » طغيان التصوف من جهة وطغيان التفكك الأخلاقي عند العامة من جهة اخرى ، وانهاهما اللذان الجأه الى ان يرشد الناس الى الاعتدال في السلوك الأخلاقي المستقي من منابعه الشرعية ، فانه في الوقت الذي يبني كتابه على مبادئ الفلسفة الإشراقية حارب فيه من طرف خفي نزعة التصوف وجعل آراءه

ودعوته الى الأخلاق على اساس الذوق الاسلامي الذي يتمثل في الأحاديث النبوية وما جاء عن آل البيت عليهم السلام ، فهو في وقت واحد هادم وبان ، وبهذا يختلف كتابه عن مثل « احياء العلوم » الذي يعتمد بالدرجة الاولى على الروح الصوفية وهي غايته المثلى .

و « الثاني » من الامرين حسن اختيار صاحب الترجمة فانه لم يسبقه احد من علماء الامامية بعد خربت هذه الصنعة ابن مسكويه المتوفى ٤٢١ والشيخ المولى محسن الفيض المتوفى ١٠٩١ الى تأليف كتاب كامل في الأخلاق مبني على أساس علمي فلسفي موجود بين ايدينا .

شخصية المترجم واخلاقه

ان اعظم الناس ونوابغهم لا تأتهم العظمة والنبوغ عفواً ومصادفة من دون قوة كامنة في شخصيتهم أو ملكة راسخة في نفوسهم هي سر عظمتهم وتفوقهم على سائر الناس . وما كلمة الحظ في هذا الباب إلا تعبير مبهم عن تلك القوة التي أودعها الله تعالى في شخص النابغة ، وقد تكون تلك القوة مجهولة حتى لشخص صاحبها الذي يتحلى بها ، بل على الاكثر هي كذلك ، فيندفع العبقري الى تلك القمة التي خلقت له أو خلق لها بدافع تلك القوة الكامنة اندفاعاً لا شعورياً ، وان كانت اعماله الجزئية التي يقوم بها هي شعورية بمحض اختياره .

وتلاحظ قوة شخصية شيخنا المترجم له في صبره وقوة ارادته وتفانيه في حب العلم ، ثم عزة نفسه ، وان كانت هذه الغايات عامة قد يعبر بها عن كثير من الناس ويصح التعبير بها بلا كذب وخداع ، إلا أن الدرجة الخاصة من الصبر والارادة والحب والعزة ونحوها التي بها يمتاز الشخص النابغ تضيئ اللغة عن التعبير عنها بخصوصها إلا بهذه اللفاظ العامة الدارجة وتظهر الدرجة الخاصة التي يختص بها صاحبنا من هذه الأمور في حادتين : [الاولى] فيما ينقل انه كان في ايام التحصيل في غاية الفقر والفاقة .

(والنقر دائماً شيمة العلماء ، بل هو من أول شروط النبوغ في العلم ، وهو الذي يصقل النفس فيظهر جوهرها الحقيقي) فكان صاحبنا قد نشأ به الفاقة فيعجز عن تدبير ثمن السراج الذي لا يتجاوز في عصره عن ان يكون من زيت أو شمع ، فيدعوه حرصه على العلم الى الدخول في بيوت سراجيين المدرسة ، ليطلع على سراجها ، ولكنه تأبى عزته ان يدع غيره بشعر بما هو فيه ، فيوهم الداخلين - بالتمنح - انه جالس للحاجة الخاصة . وتتجلى في هذه الحادثة الصغيرة عزة نفسه وقوة ارادته وصبره على طلب العلم بدرجة غير اعتيادية إلا للنوابغ الافذاذ .

و [الحادثة الثانية] فيما ينقل عنه أيضاً، وهي أهم من الاولى انه كان لا يفض الكتب الواردة اليه ، بل يطرحها تحت فراشه مختومة، لئلا يقرأ فيها ما يشغل باله عن طلب العلم . والصبر على هذا الأمر يتطلب قوة ارادة عظيمة ليست اعتيادية لسائر البشر . والاهم من ذلك ان يتفق ان يقتل والده (ابو ذر) المقيم في نراق وطنه الاصلي ، وهو يومئذ في اصفهان يحضر على استاذة الجليل المولى اسماعيل الخاجوتي ، فكتبوا اليه من هناك بالنبأ ليحضر الى نراق لتصفية التركة وقسمة الموارث وشؤون اخرى ، ولكنه على عادته لم يفض هذا الكتاب ولم يعلم بكل ماجرى ، ولما طالت المدة على من في نراق وايسوا منه كتبوا بالواقعة الى استاذة المذكور ليخبره بالنبأ ويحمله على المجيء . والاستاذ في دوره ، على عادة الناس ، خشى ان يفاجئه بالنبأ ، وعندما حضر مجلس درسه اظهر له تمهيداً لإخباره الحزن والكآبة ، ثم ذكر له ان والده مجروح ، ورجح له الذهاب الى بلاده ، ولكن هذا الولد الصلب القوي الشكيمة لم تلب قناته ، ولم يزد ان دعا لوالده بالعافية طالباً من استاذة ان يعفيه من الذهاب . وعندئذ اضطر الاستاذ الى ان يصرح بالواقع ، ولكن الولد ايضاً لم يعبأ بالامر واصر على البقاء لتحصيل العلم ، إلا ان الاستاذ هذه المرة لم يجد بداً من أن يفرض عليه السفر ، فسافر امتثالاً لامره المطاع ، ولم يمكث في نراق اكثر من ثلاثة ايام على بعد الشقة وزيادة المشقة ثم رجع الى دار هجرته .

وهذه الحادثة لها مغزاها في نفسية هذا العالم الإلهي وتدل على استهانته بالمال وجميع شئون الحياة في سبيل طلب العلم .

مؤلفاته

- لشيخنا المترجم له عدة مؤلفات نافعة تدل على قابلية في التأليف وصبر على البحث والتتبع وعلى علم غزير ، نعد ما وصل اليه علمنا منها :
- ١ - (جامع السعادات) هذ المطبوع بثلاثة اجزاء حسب تقسيمنا له وطبع في ايران سنة ١٣١٢ بجزءين وسيأتي وصفه وتقدم شيء من وصفه .
 - ٢ - (معتمد الشيعة) في احكام الشريعة .
 - ٣ - (لوامع الاحكام) في فقه شريعة الاسلام ينقل عنه ولده المحقق في المستند والعوائد كثيراً .
 - ٤ - (التحفة الرضوية) في المسائل الدينية .
 - ٥ - (تجريد الاصول) وهو في اصول الفقه قال في روضات الجنات : « شرحه ولده في مجلدات غفيرة جمة »
 - ٦ - (انيس التجار) في مسائل التجارة .
 - ٧ - (مشكلات العلوم) يشبه بعض الشيء كشكول البهائي وقد نسج على منواله ولده المحقق في كتابه (الخزان)
 - ٨ - كتاب في اصول الدين باللغة الفارسية
 - ٩ - رسالة فقهية في العبادات
 - ١٠ - رسالة اخرى في مناسك الحج
 - ١١ - رسالة في علم الحساب
 - ١٢ - (محرق القلوب) في مصائب آل البيت قال عنه في روضات الجنات : « طريف الاسلوب »
 - ١٣ - (انيس المجتهدين) في اصول الفقه
 - ١٤ - (رسالة في الفقه) فارسية

جامع السعادات وعلم الاخلاق

لا شك ان القدرة على التأليف موهبة من الله تعالى فوق موهبة العلم والفهم .
وليس كل من كان عالماً استطاع التأليف .

والتأليف في حد ذاته من أبرز الخدمات التي يؤديها العلم للناس في حياته ،
ومن اعظم الحظوظ للانسانية ، وبسببه استطاعت ان تتقدم على مرور
الاجيال . ومع ذلك ليس كل تأليف يعد خدمة للناس وحظاً للانسانية .

واذا اردنا ان نضع المؤلفات في رفوف حسب قيمتها ، فانما في
فترات متقطعة تظهر مؤلفات من النوابع يصح ان نضعها في الرف الاعلى
ويصدق عليها بحق انها مما ينفع الناس فتمكث في الأرض وتقرض نفسها
للخلود والبقاء اذا سلمت من عوادي الدهر الفاشمة . ومن سوء الحظ ان
الفراغ لا يزال كثيراً في هذا الرف الاعلى .

ومن بين الفترات لا بد ان تبرز في كل علم من المؤلفات هي من حقها
ان توضع في الرف الثاني أو ما دونه . وحظها ان تنسج على منوال غيرها
لتحجيمها ونهي " انتهاء الفترة لظهور الأثر الخالد مما يوضع في الرف الاعلى .
وهذه غير الغناء الذي يذهب جفاء ومن حقه ان يلقي في سلة المهملات . وما
اكثر هذا النوع الرخيص لا سيما في عصرنا الحاضر .

ويجب ألا نغالي في مؤلفات شيخنا الزاقي فنضعها في الرف الاعلى ،
واكن [جامع السعادات] الذي تقدمه هو بالخصوص من الآثار الخالدة ،
وان لم يكن موضعه هذا الرف . ولا ندري السر في ذلك لأن الفترة بعد لم تنته
لعلم الاخلاق بخصوصه كما يظهر الاثر الخالد المنتظر الذي سيكون في
الرف الاعلى ، أم لأن هذا العلم ليس له تلك الفترات ، بل كله في فترة
مستدعة ليأس العلماء الاخلاقيين من التأثير على الناس بمجرد التأليف ؟

وهذا الثاني هو الاقرب الى الواقع . والحق مع الاخلاقيين في بأسهم
فان الاخلاق لا تكتسب بالتعلم وقراءة الكتب ، وانما هي صفات وملكات

لا تحصل للإنسان إلا بالتمرينات القاسية والتربية الطويلة لاسيما في أيام الطفولة وفي السن المبكرة قبل ان يمرض في الإنسان ان يكون أهلاً للقراءة . ولو كانت قراءة الكتب وحدها كافية لخلق الفضيحة في النفس أو تنميتها لكانت كتب الأخلاق من اثنى ما خلق الله ، ولأغنى البشرية كتاب واحد يفي بذكر الاخلاق الفاضلة . بل لاكتفينا بالقرآن الكريم وحده ، أو بنهج البلاغة بعده الذي تريد خطبه ومواعظه ان تنصهر الناس في بوتقتها الملهبة لتخرجهم ابرياء صافياً كصاحبها، ولكن البشرية الظالمة لنفسها بدل ان تنصهر بهذا اللهب تنجو جذوتها وتزيد جهوداً على مساوئها وليس هذا الرأي عن الكتب الاخلاقية فيه شيء من المغالاة على ما اعتقد ، إلا اني مع ذلك لا اظلم بعض زمرة صالحية من أهل الفتوة وارباب القلوب الحية ، إذ نجدهم يتأثرون بالكلمة الاخلاقية الموجهة اليهم ممن يعول على قوله . ويتنبعون باخلاص بمجهودات المؤلفين في الاخلاق ليتسموا خطاهم فيهدبوا انفسهم .

ومن هنا نجد السبيل الى انصاف الاخلاقيين واعطاء مؤلفاتهم حقها من التقدير ، لنعقد انهم لم يعملوا عملاً باطلاً لا نفع فيه ، بل الحق ان له قيمته العظيمة وكفى ان يتأثر بدعوتهم بعض فتيان كرام بررة . وهذا التأثر على قلته له قيمة معنوية لا توازن بشيء في الدنيا ، بل سير الحياة وتقدمها يتوقف مبدئياً على هذا التأثر وان كان محدوداً . وما التقدم الاجتماعي الذي يحصل في امة في بعض الفترات من الزمن إلا نتيجة من نتائج هذا التأثير المحدود .

ومع ذلك فان تأثير الدعوة الاخلاقية هذا التأثير المحدود لا يأتي من مجرد شحن الكتاب بالنظريات الاخلاقية المجردة ، بل لروحية المؤلف أعظم الاثر في اجتذاب قلوب الفتيان الكرام الى الخير . ومن هنا اشتروا في الواعظ ان يكون متعظاً

* * *

وعلى هذا الاساس ينبغي ان توضع كتب الاخلاق في رفوفها ،

فليس للنظريات الفلسفية ورصانة التأليف وتركيزه على المبادئ العلمية - في نظر أرباب القلوب - تلك الأهمية الأخلاقية التي تعلق عليها ، ولا تقاس بالأثر الأخلاقي الذي يحصل من روحية المؤلف ومقدار تأثيره هو بأقواله ، وما كانت شهرة « مجموعة ورام » وما كانت أهميتها إلا لأنها ناشئة من قلب صادق ذلك قلب الأمير الزاهد الإلهي الشيخ ورام ابن أبي فراس المالكي الاشتري وايس فيها صفة علمية أو فنية تقضي بهذا الاهتمام : ومن العجيب ان قلب الرجل الأخلاقي يبرز ظاهراً على قلبه في مؤلفاته فتلمسه في ثنايا كلماته . وبالعكس ذلك الذي لا قلب له فانك لا تقرأ منه إلا كلاماً جافاً لا روح فيه مهما بلغت قيمته في حساب النظريات الفلسفية .

وفي نظري ان قيمة « جامع السعادات » في الروح المؤمنة التي تقرأها في ثناياه اكثر بكثير من قيمته العلمية . واني لأتحدى قارئ هذا الكتاب اذا كان مستعداً للخير ان يخرج منه غير متأثر بدعوته . وهذا هو السر في اقبال الناس عليه وفي شهرته ، على انه لا يزيد من ناحية علمية على بعض الكتب المتداولة التي لا تجمد فيها هذا الذوق والروحانية . والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسية المؤلف وما كان عليه من خلق عال وإيمان صادق .

واني لأومن ايماناً لا يقبل الشك ان انتشار هذا الكتاب بين الناس في هذا العصر سيكون له اثره المحسوس في توجيه امتنا نحو الخير بعد ان نفذت طبعته الاولى وعزت نسخته ، ولا سيما ان خطباء المنابر - فيما اعتقد - ستكون لهم الحصصة الوافرة في التأثير به ونقل تأثرهم الى سواد الامة الذين هم المعول عليهم في نهضتنا الأخلاقية المقبلة .

وهذا مادفعني - والله هو الشاهد علي* - الى السهر على تصحيح الكتاب وتدقيقه ليخرج بهذه الحلة وان كانت ظروفي الخاصة كادت ان تحول دون التفرغ له لولا اني توكلت على الله تعالى ووطنت نفسي على تجاهلها واهمال كثير مما يحجب العناية به ، والحمد لله على توفيقه .

النواهي الفنية في الكتاب

من أهم ما يؤخذ به كتابنا هذا اعتماده على المراسيل في الأحاديث وتسجيل كل ما يرى امامه من المنقولات غمها وسميها ، من دون اشارة الى التمييز ولا الى المصادر ، حتى نقل كثيراً عن احياء العلوم وتعتمد النقل عن مثل جامع الأخبار ومصباح الشريعة اللذين يشهد اسلوبهما على وضع اكثر ما فيها . وقد وجدنا صعوبة كبيرة في العثور على جملة من مصادر هذه المنقولات لتصحيحها . وقد يستغرق البحث للعثور على مصدر خبر واحد اياماً ، كما قد يذهب البحث سدى . وبهذه المناسبة لابد من الاعتراف بالجميل فنذكر الاستاذ الفاضل السيد عبد الرزاق المقرم بالشكر لما اعاننا عليه من الفحص عن بعض الروايات .

والذي هو أن الخطب في هذه المؤاخذة — على أن لها قيمتها الفنية — انها لا تختص بهذا الكتاب وحده من بين كتب الاخلاق الاسلامية ، بل هذا دينها . وكأنهم اصحابها من الاستشهاد بالمنقولات نفس اداء الفكرة فاذا كانت بحسب نظرهم صحيحة مقبولة في نفسها فلا يجب عندهم أن يكون الحديث الذي يتضمنها صحيحاً مقبولاً في عرف أهل الحديث ، فاذا قال المحدث : « قال النبي والامام كذا » يعني بذلك أن هذا القول ثابت بالنقل الصحيح الموثوق به وإلا فيقول « روي عنه كذا » أو ما يشبهه أما الاخلاقي فلا يعني بذلك القول إلا أنه مروي عنه بأي طريق كان .

ولعل لهذا التسامح عذراً مقبولاً في مذهبهم على ما قدمنا لو لم تكن فيه اساءة الى امانة النقل في أهم تراث اسلامي ديني في حين كان من الممكن تحاشيها بقليل من التحقيق والبحث على أن في الثابت الصحيح عن آل البيت عليهم السلام ما فيه الكفاية للامام بنواحي الاخلاق المطلوبة وما في [الكافي] كاف وحده في هذا الباب . وكنا نتمنى اثناء التصحيح على صاحب كتابنا هذا ألا يتبع هذه العادة عند الاخلاقيين التي لم يتبعها في كتبه الاخرى ،

فيزيد على فائدته الاخلاقية فائدة اخرى في تحقيق الاحاديث الصحيحة .

* * *

أما اسلوب الكتاب الادبي فهو يمثل الى حد ما عصره الذي ضعفت فيه اللغة الى حد كبير ، بالرغم على أن الفلاسفة الاشراقين اشتهروا في تلك العصور بحسن البيان وقوة الاسلوب لاسيما في العصر السابق على عصر المؤلف كالسيد الداماد العظيم المتوفى ١٠٤١ وتلميذه النابغة الجليل المولى صدر المتقدم ذكره ، حتى كان يسمى الاول امير البيان ولعل* الثاني احق بهذا اللقب . غير أن صاحبنا لا يحسب في عداد الفلاسفة وإن ارتشف من منهم . على أنه كان يقتبس كثيراً نص* عبارات غيره استراحة اليها . وهذه سنة مستساغة عند المؤلفين الاخلاقيين ، وكان كتبهم يجدونها مشاعة بين الجميع ، أو لأن همهم اداء الفكرة كما كان عذرهم في مراسيل الاحاديث . وبهذه المناسبة نقول إنا وجدنا أثناء تصحيح الكتاب كثيراً من الالفاظ والعبارات مما لم نجد له مسوّغاً من اللغة العربية ككلمة (القادسة) و (الهلاكة) ففضلنا غالباً أن نبقىها على ما وجدناها حرصاً على امانة النقل واهملنا التذييه عليها . ومثل كلمة (سيما) فضلنا أن نصححها ونضع كلمة (لا) بين قوسين اشارة الى زيادتها منا .

وإذا كانت امانة النقل هي العذر لنا في ذلك فهي التي تقضي علينا ان نصرح أن عناوين الكتاب على الاكثر هي من وضعنا .

* * *

وأما اسلوبه العلمي فقد بناء مؤلفه من اوله الى آخره على نظرية الوسط والاطراف في الاخلاق تلك النظرية الموروثة من الفلسفة اليونانية ، وقد بحث عنها المؤلف في الجزء الاول ص ٦١ . وليس من حقنا ان نناقشها ولا يمتاز بها هذا الكتاب وحده ، فان شأنه في الاعتماد على هذه النظرية الأساسية شأن سائر كتب الاخلاق الاسلامية العلمية .

ولكن الذي امتاز به كتابنا - بعد أن بحث مؤلفه بحثاً فلسفياً متوسطاً عن النفس وقواها والخير والسعادة والفضائل والرذائل في البابين الاول والثاني كما صنع اسلافه - ان جعل اساس تقسيمه للكتاب على القوى الثلاث: العاقلة والشهوية

والغضبية ، معللاً ذلك بأن « جميع الفضائل والردائل لا تنخرج عن التعلق بالقوى الثلاث » ج ١ ص ٦٧ ، وذكر لمكمل قوة ما يتعلق بها من اجناس الفضائل والردائل منفردة ومنضمة الى الاخرى ثم ذكر انواعها ، واستقصى ذكر الانواع مطبقاً على كل نوع نظرية الوسط والاطراف فجاء في استقصائه وإحاطه كل فضيلة ورذيلة بالتموه التي تتعلق بها بما لم يسبقه اليه أحد فيما نعلم وهو نفسه ادعى ذلك فقال « ١ : ٧٣ » : « ان احصاء الفضائل والردائل وضبطها وادخال البعض في البعض والاشارة الى القوة الموجبة لها على مافصلناه مما لم يتعرض له علماء الاخلاق » .

وهذه أهم ناحية فنية في الكتاب ، وفتح جديد في تحقيق منشأ حدوث خلق الفضيلة والرذيلة ، لو انفق لغيره ان يترسم خطاه ، ويتم ما فتحه من هذا الباب من التحقيق ، لتقدم على يديه علم الاخلاق تقدماً كبيراً وعلى اساس تحقيقه هذا اسقط فضيلة العدالة من حسابه فلم يجعلها جنساً مقابلاً لاجناس الفضائل الثلاث الاخرى وهي الحكمة والعفة والشجاعة ، باعتبار ان العدالة جامعة لجميع الكمالات باسرها لا انها في مقابلها . وقد فصل هذا الرأي في الباب الثاني . ولا أظن أحداً يقره عليه ، ولا يثبت امام النقد ، ولكن هذه المقدمة تضيئ عن مثل هذه الأبحاث الدقيقة ، كما تضيئ عن مقارنة هذا التأليف بالمؤلفات الاخلاقية الاخرى . وقصدنا ان هذا التقسيم من المؤلف وارجاع الفضائل والردائل الى اسبابها وجعل مواضع الابحاث هي تلك القوى واحصاء انواع الاخلاق بنوعها ولوازمها كل ذلك مستجد وهي طريقة علمية امتاز بها الكتاب .

تصحيح الكتاب ومراجعته

وعدت الأخ الفاضل الألمعي السيد محمد الكنتري ناشر الكتاب وملتزمه تصحيحاً وتعليقاً — جزاه الله خير ما يحزى العاملون — على الاشتراك معه واعانته على تدقيق وتحقيق هذا السفر الجليل وتصحيحه ايضاً عند الطبع ،

إذا توفّق أهميّة ما يلزم لطبعه وذلك قبل سنتين . و شاء التوفيق أن يحقق هذه الأمنية فلم أجد للتخلي عن الوفاء بالوعد سبيلاً مهماً كلغني الأمر .

ويعجبني من هذا الرجل صبره وجلده على المشاق في سبيل نشره باعتباره أحد الكتب التي يجب إحياؤها في هذا العصر . وهذا منه أحد شواهدني على تأثير الفتيان الكرام الأبرار بهذا السفر الأخلاقي وقد شاهدت صبره لأول مرة في إيران في صيف العام الماضي لما اشترك هو والعلامة الأخ بالروح الشيخ محمد شيخ الشريعة في قسم من الكتاب على النسخة المخطوطة الآتي ذكرها في المراجع رقم ٢ الى حد ص ١٧٦ من الجزء الأول من هذا المطبوع ، فأودعنا في التعليقة آراءهما القيمة في تحقيقه وتصحيحه . وائتينا عندنا في التصحيح من أوله لما استقبلت المطبعة النسخة للطبع ، فإننا اعتمدنا كثيراً على تلك التحقيقات القيمة الماضية .

ولا ننسى أن نذكر أن النسخة المطبوعة في إيران على الحجر فيها من التحرير والتصحيح ما يذهب بالاطمئنان اليها ويشوّه المقصود والمعنى . ومن الغريب أن نجد التحرير حتى في الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث الشريفة . أما تذكير المؤنث وتأنيث المذكر وتشويه الاملاء والتبويب فهذه أمور حدثت عنها ولا حرج . ويكفي أن تقارن صفحة واحدة منها بمطبوعنا لتعرف أي مجهود بذل للتصحيح والاخراج وتجد العناية على كل سطر منه . ومن سوء الحظ أن النسخة المخطوطة المرجع رقم (٢) لم تكن أكثر حظاً في الصحة من اختها المطبوعة . وهذا ما دعانا الى ان نرجع الى كتب اخرى تمت بالموضوع بصفة لتحقيق الكتاب ، كالكتب الاخلاقية وكتب الحديث . واكثر ما كان يعيننا تصحيح الاحاديث الشريفة بالرجوع الى مصادرها الذي جشمنا بحثاً مضنياً كان يستغرق اكثر اوقاتنا . وقد ذكرنا احياناً في التعليقة المصدر المرجوع اليه . وعلى الاكثر لا يذكر المرجع إلا عندما يكون مخالفاً لنسخ الكتاب . وبحسن الآن أن نذكر أهم المراجع التي اعتمد عليها لتصحيح الكتاب وهي .

١ - النسخة من الكتاب المشار اليها آنفاً المطبوعة على الحجر بإيران

- ٢ - النسخة المخطوطة منه التي تفضل بها شيخنا الحجة الشيخ محسن الشير بأغا بزرگك مؤلف الذريعة وقد نسخت سنة ١٢٠٨ . ويعبر عنها في التعلية بنسختنا الخطية .
- ٣ - النسخة المخطوطة منه في مكتبة سبه سالار بطهران . ولا يحضرنا الآن تأريخ نسخها ورقها في المكتبة . وقد قوبلت النسخة الى حد صفحة ١٧٦ من الجزء الاول .
- ٤ - النسخة المطبوعة التي يملكها الخطيب السيد جواد شير وفيها بعض التقييدات والتصحيحات .
- ٥ - احياء العلوم للشيخ ابي حامد الغزالي .
- ٦ - احياء الاحياء المجلد الرابع المطبوع في ايران على الحجر سنة ١٣٢٦ للشيخ المولى محسن الفيض الكاشاني .
- ٧ - نسخة اصول الكافي المخطوطة سنة ١١٠٣ في مكتبة منتدى النشر برقم ٤٤٦ وهي نسخة ظاهر عليها التصحيح ودقة المقابلة على نسخ صحيحة .
- ٨ - نسخة اصول الكافي المخطوطة التي تحت تصرفنا .
- ٩ - فروع الكافي المطبوع بالحجر سنة ١٣١٥ وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة .
- ١٠ - الوسائل المطبوعة سنة ١٣٢٣ المعروفة بطبعة عين الدولة .
- ١١ - البحار المجلد ١٥ بجميع اجزائه الأربعة المطبوع على الحجر .
- ١٢ - كنز العمال المطبوع بحيدر آباد دكن سنة ١٣١٢ .
- ١٣ - مستدرک الوسائل للشيخ المحدث النوري المطبوع على الحجر سنة ١٣١٩ .
- ١٤ - الوافي للشيخ المولى محسن الفيض المطبوع على الحجر سنة ١٣٢٥ وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة .
- ١٥ - سفينة البحار المطبوع على الحجر بالنجف الأشرف سنة ١٣٥٢ للمحدث الثقة الجليل الشيخ عباس القمي .
- ١٦ - جامع الاخبار المطبوع بالهند على الحجر .
- ١٧ - مصباح الشريعة المطبوع بالهند على الحجر .

-- ق --

وهذه غير المراجع التي رجعنا إليها نادراً ، كجموعة الشيخ ورام
والحقائق للغيث ومجمع البحرين للشيخ نحر الدين الطريحي ونهاية ابن الأثير
ونحوها كثير لا فائدة في احصائها . وهذه المراجع هي التي روجعت لتصحيح
اجزاء الكتاب . والله تعالى هو الموفق للصواب .
ويجب ألا نأسى في الختام لشكر الشيخ عبد الهادي الأسدي
على جهوده التي بذلها في تصحيح الكتاب عند الطبع والاشتراك في مقابلة
النسخة الاصلية وتدقيقها جزاه الله خير ما يجزي العاملين .

محمد رضا المظفر

معتد متدي النشر

النجف الاشرف

٢٠ رجب ١٣٦٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي خلق الانسان ، وجعله افضل انواع الالكوان ، وصيره نسخة لما اوجده من عوالم الامكان . اظهر فيه عجائب قدرته القاهرة ، وابرز فيه غرائب عظمتة الباهرة . ربط به الناسوت باللاهوت ، واودع فيه حقائق الملك والملكوت . ختم طينته من الظلمات والنور ، وركب فيه دواعي الخير والشرور . عجنه من المواد المتخالفة ، وجمع فيه القوى والاصواف المتناقضة ، ثم ندبه الى تهذيبها بالتقويم والتعديل ، وحثه على تحسينها بعد ما سهل له السبيل . والصلاة على نبينا الذي اوتي جوامع الحكم ، وبعث لتتميم محاسن الاخلاق والشم ، وعلى آله مصابيح الظلم ، ومفاتيح ابواب السعادة والكرم صلى الله عليه وعليهم وسلم .

أما بعد فيقول طالب السعادة الحقيقية (مهدي بن ابي ذر النراقي) بصره الله بعيوب نفسه ، وجعل يومه خيراً من أمسه : انه لا ريب في ان الغاية من وضع النواميس والاديان ، وبعثة المصطفين من عطاء الانسان ، هو سوق الناس من مراتع البهائم والشياطين ، واوصلهم الى روضات العلمين ،

وردعهم عن مشاركة اسراء ذل الناسوت ، ومصاحبة قرنائه جب الطاغوت الى مجاورة سكان صقع الملكوت ، ومرافقة قطان قدس الجبروت ، ولا يتيسر ذلك إلا بالتخلي عن ذمائم الاخلاق ورذائلها والتجلي بشرائف الصفات وفضائلها فيجب على كل عاقل ان يأخذ اهبطه ، ويبدل همته في تطهير قلبه عن أوساخ الطبيعة وارجاسها ، وتغسيل نفسه عن اقذار الجسمية وانجاسها قبل ان يتيه في بيداء الشقاق ، ويهوي في مهاوي الضلالة والهلاك ، ويصرف جده ويجهده في استخلاص نفسه عن لصوص القوى الامارة مادام الاختيار بيده ، إذ لا تنفع الندامة والخسرة في غده . ثم لا ريب في ان النزكية موقوفة على معرفة مملكات الصفات ومنجياتها ، والعلم بأسبابها ومعالجاتها ، وهذا هو الحكمة الحقة التي مدح الله اهلها ، ولم يرخص لاحد جهلها ، وهي الموجبة للحياة الحقيقية والسعادة السرمدية ، والتارك لها على شفا جرف المملكات ، وربما احرقته نيران الشهوات .

وقد كان السلف من الحكماء ببالغون في نشرها وتدوينها ، وجمعها وتبيينها على ما ادت اليه قوة انظارهم ، وادركوه بقراءتهم وافكارهم ، ولما جاءت الشريعة النبوية « على صадعها الف صلاة ونحية » حثت على تحسين الاخلاق وتهذيبها ، وبينت دقائقها وتفصيلها ، بحيث اضمحل في جنبها ما قرره اساطين الحكمة والعرفان وغيرهم من أهل الملل والاديان إلا انه لما كانت ما ورد منها منتشرة في موارد مختلفة ، متفرقة في مواضع متعددة ، تعمس ان يحيط به الجلب فلا بد من ضبطه في موضع واحد ليسهل تناوله للكل ، فجمعت في هذا الكتاب خلاصة ما ورد من الشريعة الحقة ، مع زبدة ما أورده اهل العرفان والحكمة على نهج تقر به اعين الطالبين ، وتسر به أفئدة الراغبين .

ونذكر أولاً بعض المقدمات النافعة في المطلوب ، ثم نشير الى اقسام

الأخلاق ومبادئها من القوى ونضبطها باجناسها وانواعها ونتائجها وثمراتها ، ثم الى المعالجة الكلية لذمائم الأخلاق ، والجزئية لكل خلق مذموم : مما له اسم مشهور وما ينشأ عنه من الأفعال المذمومة ، وفي تلوه نذكر ضده الحمود ، وما يدل على فضله عقلا وتقالا لأن العلم بفضيلة كل خلق والمداومة على آثاره أقوى علاج لازالة ضده ، ولا نتابع القوم من تقديم الرذائل بأسرها على الفضائل ، بل نذكر أولا ما يتعلق بالقوة العقلية من الفضائل والرذائل على النحو المذكور ثم ما يتعلق بالغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق باثنتين منها أو ثلاث لأن ذلك ادخل في ضبط الأخلاق ، ومعرفة أضدادها والعلم بمبادئها واجناسها ، وهو من أهم الأمور لطالبي هذا الفن .

وما تعرضت لتدبير المنزل وسياسة المدن ، لان غرضنا في هذا الكتاب انما هو مجرد اصلاح النفس وتهذيب الاخلاق ، وسميته (بجامع السعادات) ورتبته على ثلاثة أبواب .

الباب الاول

في المقدمات

- انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار - - تجرد النفس وبقاؤها -
- امتداد النفس وتألمها - - فضائل الاخلاق ورذائلها - - الاخلاق الذميمة
- تحجب عن المعارف - - حصول الملكات بتضاعف الاعمال - - العمل نفس
- الجزاء - - القول بتجسد الاعمال والملكات - المضادة بين الدنيا والآخرة -
- للجبلة والمزاج دخل في جودة الملكات ورداءتها - - حقيقة الخلق وماهية
- الملائكة - - الاقوال في تبدل الاخلاق والملكات - - شرف علم الاخلاق -
- تعريف النفس واسماها باختلاف الاعتبارات - - في الاشارة الى اعتبار مدافعة
- القوى الاربع - - انقهار النفس بتسخير القوة العالية - - اختلاف الصفات
- يوجب اختلاف النفوس - - اثنان حقيقة الانسان من الجهات المتقابلة -
- حقيقة الخير والسعادة والجمع بين الاقوال المختلفة فيها - - شرائط حصول
- السعادة - - غاية ما يمكن الوصول اليه من السعادة - - تقسيم اللذات والآلام -
- اللذة في الحقيقة هي العقلية دون الحسية - - ايقاظ فيه موعظة ونصيحة -
- التنبيه على ان الفائت لا يتدارك -

فصل

(انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار)

اعلم ان الانسان منقسم الى سر وعلم وروح وبدن ولكل منهما منافع وملائمات وآلام ولذات ومهلكات ومنجيات .

ومنافع البدن وآلامه هي الامراض الجسمية وملائماته هي الصحة واللذات الجسمية والمتكفل لبيان تفاصيل هذه الامراض ومعالجتها هو علم الطب ، ومنافع الروح وآلامه هي رذائل الاخلاق التي تهلكه وتشقيه ، وصحته رجوعه الى فضائلها التي تسعده وتنجيهِ وتوصله الى مجاورة أهل الله ومقربيه والمتكفل لبيان هذه الرذائل ومعالجتها هو (علم الاخلاق)
ثم ان البدن مادي فان والروح مجرد باق، فان اتصف بشرائف الصفات كان في البهجة والسعادة أبداً ، وان اتصف برذائلها كان في العذاب والشقاوة مخلداً . ولا بد لنا من الاشارة الى تجرده وبقائه بعد خراب البدن ترغيباً للطالبين على السعي في تزكيتهم وحفظهم عن الشقاوة الأبدية .

فصل

(في تجرد النفس وبقائها)

لا ريب في تجرد النفس وبقائها بعد مفارقتها عن البدن . اما الأول والمراد به عدم كونها جسماً وجسمية فيدل عليه وجوه :

منها ان كل جسم لا يقبل صوراً واشكالاً كثيرة لزوال كل صورة أو شكل فيه بطريقتين مثله ، والنفس تقبل الصور المتعددة المختلفة من المحسوسات

والمعقولات من دون ان تزول الأولى بورود الأخرى ، بل كلما قبلت صورة ازدادت قوتها على قبول الأخرى ، ولذلك تزيد القوة على ادراك الأشياء بالرياضيات الفكرية وكثرة النظر ، فثبت عدم كونها جسماً .

ومنها ان حصول الابعاد الثلاثة للجسم لا يتصور إلا بان يصير طويلاً عريضاً عميقاً وحصول الألوان والطعوم والروائح له لا يتصور إلا بان يصير ذا لون وطعم ورائحة وهي تحصل للنفس وقوتها الوهمية بالادراك من غير ان يصير كذلك .

وايضاً حصول بعضها للجسم يمنع من حصول مقابله له ولا يمنع ذلك في النفس بل تقبل كلها في آن واحد على السواء .

ومنها ان النفس تلتذ بما لا يلائم الجسم من الامور الالهية والمعارف الحقيقية ، ولا تميل الى اللذات الجسمية والخيالية والوهمية ، بل تمن ابداً الى الابتهاجات العقلية الصرفة التي ليس في الجسم وقواه فيها نصيب ، وهذا أوضح دليل على انها غيرهما ، إذ لا ريب في ان ما يحصل لبعض النفوس الصافية عن شوائب الطبيعة من البهجة والسرور ، بادراك العلوم الحقة الكلية والذوات المجردة النورية القدسية ، وبالمناجاة ، والعبادات ، والمواظبة على الأذكار في الخلوات ، مع صفاء النيات ، لامدخلية للجسم فيها وقواه الخيالية والوهمية وغيرهما إذ النفس قد تغفل في تلك الحالة عنها بالكلية ، وربما استغرقت بحيث لا تشعر بالبدن ولا تدري ان لها بدنًا فكأنها منخلعة عنه ، فهذا يدل على انها من عالم آخر غير عالم الجسم وقواه ، إذ التنازها منحصر باللائمات الجزئية التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة .

ومنها ان النفس تدرك الصور الكلية المجردة فتكون محلا لها ولا ريب

في ان المادي يكون محلاً للمجرد اذ كل مادي ذو وضع قابل للانقسام وكون المحل ذا وضع قابل للانقسام يستلزم ان يكون حاله أيضاً كذلك كما ثبت في محله والمجرد لا يمكن كذلك ، وإلا خرج عن حقيقته ، فالنفس لا تكون مادية ، واذا لم تكن مادية كانت مجردة لعدم الوسطة .

ومنها ان القوى الجسمية الباطنية لا تكتسب العلوم إلا من طريق الحواس الظاهرة اذ ما لم يدرك الشيء بها لم تتمكن الحواس الباطنة ان تدركه وهذا وجداني ضروري . والنفس قد تدرك ما لا طريق لشيء من الحواس الى ادراكه كالامور المجردة والمعاني البسيطة الكلية ، واسباب الاتفاقات والاختلافات التي بين المحسوسات ، والضرورة العقلية قاضية بانه لا مدخلة لشيء من الحواس في إدراك شيء من ذلك .

- وايضاً تحكم بانه لا واسطة بين النقيضين وهذا الحكم غير مأخوذ من مبادئ حسية اذ لو كان مأخوذاً منها لم يكن قياساً أولياً ، فمثله مأخوذ من المبادئ الشريفة العالية التي تبني عليها القياسات الصحيحة .

وأيضاً هي حاكمة على الحس في صدقه وكذبه وقد تخطئه في أفعاله وترد عليه احكامه كتخطئه للبصر فيما يراه أصغر مما هو عليه في الواقع أو بالعكس وفيما يراه مستديراً وهو مربع أو مكسوراً وهو صحيح أو معوجاً وهو مستقيم أو منكوساً وهو منتصب أو مختلفاً في وضعه الواقعي وفي رؤيته للاشياء المتحركة على الاستدارة كالحلقة والطوق ، كتخطئه للسمع فيما يدركه في المواضع الصقيلة المستديرة عند الصدى وللذوق في ادراكه الحلو مرراً ومثله ، وكذا الحال في الشم واللمس ، ولا ريب في ان تخطئة النفس الحواس في هذه الادراكات وحكمها بما هو المطابق للواقع انما يكون مسبوقاً بالعلم الذي لا يكون مأخوذاً من الحس ، لان الحاكم على الشيء أعلى رتبة منه فلا يكون علمه

الذي هو مناط الحكم مأخوذاً عنه .

ومما يؤكّد ذلك أنّها علّة بناتها وبكونها مدركة لمعقولاتها ومعلوم أنّ هذا العلم مأخوذ من جوهرها دون مبادئ آخر .

ومنها أنّنا نشاهد أنّ البدن وقواه يضعفان في أفعالهما وآثارهما والنفس تقوى في إدراكاتها وصفاتها ، كما في سن الكهولة ، أو يكونان قوين في الأفعال مع كونها ضعيفة فيها كما في سن الشباب ، فلو كانت جسماً أو جسمانية لكانت تابعة لها في الضعف والقوة ، (فان قلت) الإدراك وسائر الصفات الكمالية للنفس يضعف أو يختل بضعف البدن أو اختلاله كما نشاهد في المشايخ والمرضى وتجردها ينفي ذلك ، (قلنا) الضعف أو الاختلال إنّما يحدث في الإدراك والأفعال المتعلقة بالقوى الجسميّة وأما ما يحصل للنفس بجوهرها أو بواسطة القوى الجسميّة بعد صيرورته ملكة لها فلا يحصل فيه اختلال وضعف ، يصير ظهوره أشد وتأثيره أقوى .

وأما الثاني أعني بقاءها بعد المفارقة عن البدن فالدليل عليه بعد ثبوت تجردها أنّ الجرد لا يتطرق إليه الفساد لانه حقيقة والحقيقة لا تبديد كما صرح به المعلم الأول وغيره ووجهه ظاهر .

فصل

(بيان تلذذ النفس وتألّمها)

إذا عرفت تمرد النفس وبقاءها ابداً فاعلم أنّها إما ملتذذة متنعة دائماً أو معذبة متألمة كذلك ، والتذاذها يتوقف على كمالها الذي يخصها ، ولما كانت لها قوتان النظرية والعملية ، وكال القوة النظرية الاحاطة بمقتضى الموجودات بمراتبها والاطلاع على الجزئيات غير المتناهية بإدراك كليتها والترقي منه

الى معرفة المطلوب الحقيقي وغاية الكل ، حتى يصل الى مقام التوحيد ويتخلص عن وساوس الشيطان ويطمئن قلبه بنور العرفان ، وهذا الكمال هو الحكمة النظرية .

وكمال القوة العملية التخلي عن الصفات الردية والتحلي بالاخلاق المرضية ثم الترقى منه الى تطهير السر وتخليته عما سوى الله سبحانه ، وهذا هو الحكمة العملية التي يشتمل هذا الكتاب على بيانها .

وكمال القوة النظرية بمنزلة الصورة وكمال القوة العملية بمنزلة المادة ، فلا يتم احدهما بدون الآخر ومن حصل له الكمالان صار بانفراده عالماً صغيراً مشابهاً للعالم الكبير وهو الانسان التام الكامل الذي تلاًّ قلبه بانوار الشهود وبه تتم دائرة الوجود .

فصل

(في فضائل الاخلاق ورذائلها)

فضائل الاخلاق من المنجيات الموصلة الى السعادة الابدية ورذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمدية ، فالتخلي عن الثانية والتحلي بالاولى من أهم الواجبات والوصول الى الحياة الحقيقية بدونها من المحالات ، فيجب على كل عاقل ان يجتهد في اكتساب فضائل الاخلاق التي هي الاوساط (١) المثبتة من صاحب الشريعة والاجتناب عن رذائلها التي هي

(١) اشارة الى ان الفضيلة وسط بين رذيلتين وقد دعى الشارع الى تمحيص

الوسط بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : خير الامور اواسطها . وسياً في شرح المعنى من الوسط والطرفين .

الاطراف ، ولو قصر ادر كته الهلاكة الابدية ، اذ كما ان الجنين لو خرج عن طاعة ملك الارحام المتوسط في الخلق لم يخرج الى الدنيا سويا سميعا بصيرا ناطقا ، كذلك من خرج عن طاعة نبي الاحكام المتوسط في الخلق لم يخرج الى عالم الآخرة كذلك .

فَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (١)

ثم ما لم تحصل التخلية لم تحصل التحلية ولم تستعد النفس للفيوضات القدسية ، كما ان المرأة ما لم تذهب الكدورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها ، والبدن ما لم تزل عنه العلة لم تتصور له افاضة الصحة ، والثوب ما لم ينق عن الاوساخ لم يقبل لونا من الالوان ، فالمواطبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تتطهر النفس من الصفات المذمومة ، كالكبر والحسد والرياء ، وطلب الرياسة والعلاء ، وارادة سوء الاقران والشركاء ، وطلب الشهرة في البلاد وفي العباد ، وأي فائدة في تزيين الظواهر مع اهمال البواطن .

ومثل من يواظب على الطاعات الظاهرة ويترك تفقد قلبه ككبر الحش (٢) ظاهرها جص وباطنها تن ، وكقبور الموتى ظاهرها مزينة وباطنها جيفة ، أو كبيت مظلم وضع السراج على ظاهره فاستنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده فامر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه عن اصله فاخذ يجر رأسه ويقطعه فلا يزال يقوى اصله وينبت ،

(١) سورة نبي اسرائيل آية ٧٤

(٢) الحش بالفتح أو الضم ثم التشديد والفتح أكثر من الضم : المخرج وموضع الحاجة . واصله من الحش بمعنى البستان ، لانهم كانوا يتقوتون في البساتين ، فلما اتخذوا السكين اطلقوا عليها الاسم مجازاً ، فالمراد هنا من بهر الحش خزانة السكين .

فإن الأخلاق المذمومة في القلب هي مغارس المعاصي فمن لم يطهر قلبه منها لم تتم له الطاعات الظاهرة ، أو كمر يض به جرب وقد أُمرَ بالطلاء ليزيل ما على ظهره ويشرب الدواء ليقلع مادته من باطنه ، قنع بالطلاء وترك الدواء متناولاً ما يزيد في المادة فلا يزال يطلي الظاهر والجرب يتفجر من المادة التي في الباطن .

ثم إذا تخلت عن مساوى الأخلاق وتخلت بمعاليمها على الترتيب العلمي استعدت لقبول الفيض من رب الأرباب ، ولم يبق لشدة القرب بينهما حجاب ، فترسم فيها صورة الموجودات على ما هي عليها ، على سبيل الكلية ، أي بحدودها ولوازمها الذاتية ، لامتناع احاطتها بالجزئيات من حيث الجزئية ، لعدم تناهيها ، وإن علمت في ضمن الكليات لعدم خروجها عنها ، وحينئذ يصير (١) موجوداً تاماً أبدي الوجود سرمدى البقاء فائزاً بالرتبة العليا والسعادة القصوى قابلاً للخلافة الآلهية والرئاسة المعنوية ، فيصل إلى اللذات الحقيقية والابتهاجات العقلية التي ما رأتها عيون الأعيان ، ولم تتصورها عوالي الأذهان .

فصل

(الأخلاق المذمومة تحجب عن المعارف)

الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الآلهية والنفحات القدسية اذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جليلة الحال اتضاحاً ، كيف والقلوب كالألوانى فاذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها معرفة الله وحبه وانسه ، وإلى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب

(١) تذكرة الضمير باعتبار أن الآية لا تليق صاحب النفس بل هو هي .

بني آدم لنظروها الى ملكوت السموات والارض » فبقدر ما تتطهر القلوب عن هذه الخبائث تتجاذى شطر الحق الاول (١) وتتألاً لا فيها حقائمه كما اشار اليه النبي صلى الله عليه وآله : « ان لربكم في ايام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » ، فان التعرض لها انما هو بتدبير القلوب عن الكدورات الحاصلة عن الأخلاق الرديئة (٢) فكل اقبال على طاعة واعراض عن سيئة يوجب جلاء ونوراً للقلب يستعد به لافاضة علم يقيني ، ولذا قال سبحانه :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (٣)

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » فالقلب اذا صفي عن الكدورات الطبيعية بالكيفية يظهر له من المزايا الالهية والافاضات الرحمانية ما لا يمكن لاعظم العلماء كما قال سيد الرسل : « ان لي مع الله حالات لا يحتملها ملك مقرب ولا نبي مرسل » .

وكل سالك الى الله انما يعرف من الاطراف الالهية والنفحات الغيبية ما ظهر له على قدر استعداد ، واما ما فوقه فلا يحيط بحقيقته علماً لكن قد يصدق به ايماناً بالغيب كما انا نؤمن بالنبوة وخواصها ونصدق بوجودها ولا نعرف حقيقتها كما لا يعرف الجنين حال الطفل والطفل حال المميز والمميز من العوام حال العلماء والعلماء حال الانبياء والاولياء .

فالرحمة الالهية بحكم العناية الازلية مبذولة على الكل غير مضمون بها

(١) المراد من الحق الاول هو الله تبارك وتعالى فكما ان الحق صفة له كذلك الاول فهو صفة بعد صفة .

(٢) المراد من النفحات هي الافاضات المعنوية لا النعمات كما وردت بالمعنى الثاني في بعض الاخبار .

(٣) العنكبوت الآية : ٦٩

على احد ، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب وتصفيتهما عن الخبائث الطبيعية، ومع تراكم صداها الحاصل منها لا يمكن ان يتجلى فيها شيء من الحقائق، فلا تحجب الانوار العلمية والاسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالى شأنه عن ذلك، بل الاحتجاب انما هو من جهة القلب لكسورته وخبثه واشتغاله بما يضاد ذلك .

ثم ما يظهر للقلب من العالوم لطهارته وصفاء جوهره هو العلم الحقيقي النوراني الذي لا يقبل الشك ، وله غاية الظهور والانجلاء لاستفادته من الانوار الالهية والالهامات الحقبة الربانية ، وهو المراد بقوله عليه السلام : « انما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء » واليه أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه » (الى ان قال) : « قد خلع سراويل الشهوات ، وتخلّى من الهموم إلاهما واحداً انفرد به ، فخرج من صفة العمى ومشاركة اهل الهوى ، وصار من مفاتيح ابواب الهدى ومغاليق ابواب الردى ، قد ابصر طريقه وسلك سبيله وعرف منارده ، وقطع غماره (١) ، واستمسك من العرى باوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس » وفي كلام آخر له عليه السلام « قد أحى قلبه وأمات نفسه ، حتى دق جليله (٢) ولطف غليظه ، وبرق له لامع ككثير البرق ، فأبان له الطريق وسلك به السبيل ، وتدافعته الأبواب الى باب السلامة ودار الإقامة ، وثبتت رجلاه لطأ نينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه »

(١) غمرة الشيء شدته وضيقه جمعه غمرات وغمار وغمر ومنه غمرات الموت

أي مكارمه وشدائمه .

(٢) . الجليل : الكبير في الحجم

وقال عليه السلام في وصف الراسخين من العلماء : « هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلنوا ما استوعره المترفون وانسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان ارواحها معلقة بالحل الأعلى » وبالمجلة ما لم يحصل للقلب التزكية لم يحصل له هذا القسم من المعرفة اذ العلم الحقيقي عبادة القلب وقربة السر ، وكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الظاهر إلا بعد تطهيره من النجاسة الظاهرة فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بعد تطهيره من النجاسة الباطنية التي هي رذائل الأخلاق وخبائث الصفات ، كيف وفيضان انوار العلوم على القلوب إنما هو بواسطة الملائكة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب » فاذا كان بيت القلب مشحوناً بالصفات الخبيثة التي هي كلاب ناجية لم تدخل فيه الملائكة القادسة والحكم بثبوت النجاسة الظاهرة للمشارك ، مع كونه مغسول الثوب نظيف البدن ، إنما هو لسراية نجاسته الباطنية فقوله صلى الله عليه وآله وسلم « بني الدين على النظافة » يتناول زوال النجاستين . وما ورد من ان الطيور نصف الايمان المراد به طهارة الباطن عن خبائث الأخلاق ، وكان النصف الآخر تحليته بشرائف الصفات وعمارته بوظائف الطاعات .

وبما ذكر ظهر ان العلم الذي يحصل من طريق المجادلات الكلامية والاستدلالات الفكرية ، من دون تصفيل الجوهر النفس ، لا يخلو عن الكدرة والظلمة ، ولا يستحق اسم اليقين الحقيقي الذي يحصل للنفوس الصافية ، فما يظنه كثير من اهل التعلق بقاذورات الدنيا انهم على حقيقة اليقين في معرفة الله سبحانه خلاف الواقع ، لأن اليقين الحقيقي يلزمه (روح) (١)

(١) هذه الكلمة غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى .

ونور وبهجة وسرور ، وعدم الالتفات الى ما سوى الله ، والاستغراق في البحر عظمة الله ، وليس شيء من ذلك حاصلًا لهم ، فما ظنوه يقينًا إما تصديق مشوب بالشبهة ، أو اعتقاد جازم لم تحصل له نورانية وجلاء وظهور وضياء ، لكثرة قلوبهم الحاصلة من خبائث الصفات .

والسر في ذلك ان منشأ العلم ومناطه هو التجرد كما بين في مقامه ، فكلمًا تزداد النفس تجردًا تزداد ايمانًا ويقينًا ، ولا ريب في انه ما لم ترتفع عنها استار السيئات وحجب الخطيئات ، لم يحصل لها التجرد الذي هو مناط حقيقة اليقين فلا بد من المجاهدة العظيمة في الزكية والتحلية حتى تنفتح ابواب الهداية وتتضح سبل المعرفة ، كما قال سبحانه :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (١)

فصل

(ان العمل نفس الجزء)

كل نفس في بدء الخلقة خالية عن الملكات بأسرها ، وإنما تتحقق كل ملكة بتكرر الافاعيل والآثار الخاصة به (٢) بيان ذلك ان كل قول أو فعل ما دام وجوده في الاكوان الحسية لاحظ له من الثبات ، لان الدنيا دار التجدد والزوال ، ولكنه يحصل منه اثر في النفس ، فاذا تكرر استحكم الاثر فصار ملكة راسخة ، مثاله الحرارة التي تحدث في الفحم فانها ضعيفة

(١) العنكبوت آية ٦٩ .

(٢) هكذا وجدت في النسخة المطبوعة ونسختنا الخطية والاصح « بها » وان

كانت الكلمة غير موجودة في نسخة خطية اخرى .

اولا ، واذا اشتدت تجمرت ، ثم استضاءت ، ثم صارت صورة نارية محرقة لما قارنها مضيئة لما قابلها ، وكذلك الاحوال النفسانية اذا تضاعفت قوتها صارت ملكات راسخة وصوراً باطنية تكون مبادئ للاثار المختصة بها ، فالنفوس الانسانية في اوائل الفطرة كصحائف خالية عن النقوش والصور تقبل كل خلق بسهولة ، واذا استحكت فيها الاخلاق تعسر قبولها لاضدادها ، ولذلك سهل تعليم الاطفال وتأديبهم وتنقيش نفوسهم بكل صورة وصفة ويتعسر أو يتعذر تعليم الرجال البالغين وردّهم عن الصفات الحاصلة لهم لاستحكامها ورسوخها .

ثم لا خلاف في ان هذه الملكات وافعالها اللازمة لها ان كانت فاضلة كانت موجبة للانداز والبهجة ومراقبة الملائكة والاخيار ، وان كانت ردية كانت مقتضية للالم والعذاب ومصاحبة الشياطين والاشرار ، وانما الخلاف في كيفية ايجابها للثواب أو العذاب ، فمن قال ان الجزاء مغاير للعمل قال ان كل ملكة وفعل يصير منشأ لترتب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله سبحانه على التفصيل انوار في الشريعة ومن قال ان العمل نفس الجزاء قال ان الهيئات النفسانية اشتدت وصارت ملكة تصير متمثلة ومتصورة في عالم الباطن والملكوت بصورة يناسبها ، إذ كل شيء يظهر في كل عالم بصورة خاصة ، فان العلم في عالم اليقظة امر عرضي يدرك بالعقل أو الوهم وفي عالم النوم يظهر بصورة اللب ، فالظاهر في العالمين شيء واحد هو العلم لكنه تجلى في كل عالم بصورة والسرور يظهر في عالم النوم بصورة البكاء ومنه يظهر انه قد يسرك في عالم مايسوءك في عالم آخر فالذات الجسمية التي تسرك في هذا العالم تظهر في دار الجزاء بصورة تسوءك وتؤذيك، وتركها وتحمل مشاق العبادات والطاعات والصبر على المصائب والبليات

يسرك في عالم الآخرة مع كونها مؤذية في هذا العالم ثم القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملك ان كانت من فضائل الاخلاق أو فواضل الاعمال واسم الشيطان ان كانت من اضدادها ، وقد يطلق على الأولى اسم الغلمان والخور وامثالهما وعلى الثانية اسم الحيات والعقارب واشباههما ، ولا فرق بين الاطلاقين في المعنى ، وإنما الاختلاف في الاسم .

وهذا المذهب يرجع الى القول بتجسد الاعمال بصورة مأنوسة مفرحة أو صورة موحشة معدّبة ، وقد ورد بذلك أخبار كثيرة منها ما روى اصحابنا عن قيس بن عاصم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال يا قيس : « إن مع العزّ ذلاً ومع الحياة موتاً ومع الدنيا آخرة ، وإن لكل شيء رقيباً وعلى كل شيء حسيباً ، وإن لكل أجل كتاباً ، وإنه لا بدّ لك من قرين يدفن معك وهو حيّ وتدفن معه وأنت ميت ، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً ألامك ، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه ، فلا تجعله إلا صالحاً ، فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك » ، ومنها ما استفاض من قولهم عليهم السلام « ان من فعل كذا خلق الله تعالى ملكاً يستغفر له الى يوم القيامة » ، ومنها ما ورد « ان الجنة قيعان وغراسها سبحان الله » ، ومنها ما روي « ان الكافر خلق من ذنب المؤمن » ، ومنها قولهم « المرء مرهون بعمله » ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجري في بطنه نار جهنم » ويدل عليه قوله سبحانه (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَظَهِيرَةٌ لِّلْكَافِرِينَ) « ١ » وربما كان في قوله تعالى (وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) « ٢ » وقوله تعالى (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ

« ١ » التوبة الآية ٦ :

« ٢ » يس الآية ٥ :

ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (١) «إشارة اليه حيث قال عز وجل (ما كنتم) ولم يقل بما كنتم .

وقال فيثاغورث الحكيم « ستعارض لك في أفعالك وأقوالك وأفكارك ، وسيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صورة روحانية ، فان كانت الحركة غضبية أو شهوية صارت مادة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحبجك عن ملاقة النور بعد وفاتك ، وان كانت الحركة عقلية صارت ملكاً تلتذ بمنادته في دنياك وتهدي به في آخرك الى جوار الله وكرامته » انتهى .

وهذه الكلمات صريحة في ان مواد الاشخاص الاخروية هي التصورات الباطنية والنيات القلبية والمملكات النفسية المتصورة بصور روحانية وجودها وجود إدراكي والانسان اذا انقطع تعلقه عن هذه الدار وحان وقت مسافرة الى دار القرار وخلص عن شواغل الدنيا الدنية وكشف عن بصره غشاوة الطبيعة ، فوقع بصره على وجه ذاته والتفت الى صفحة باطنه وصحيفة نفسه ولوح قلبه ، وهو المراد بقوله سبحانه (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) (٢) وقوله تعالى (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (٣) صار ادراكه فعلاً وعلمه عيناً وصره عياناً ، فيشاهد ثمرات أفكاره وأعماله ، ويرى نتائج نظاره وأفعاله ويطالع على جزاء حسناته وسيئاته ، ويحضر عنده جميع حركاته وسكناته ، ويدرك حقيقة قوله سبحانه : (وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمْنِهِ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) (٤)

(١) الطور الآية ١٦ .

(٢) سورة التكوين الآية ١٠ .

(٣) سورة ق الآية ٢١ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٣-١٤ .

فمن كان في غفلة عن أحوال نفسه ومضيعة لساعات يومه وأمسه يقول (ما لهذا الكتاب لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) « ١ » (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) « ٢ » .

وقد أيد هذا المذهب أعني صيرورة الملكات صوراً روحانية باقية أبد الدهر موجبة للبهجة والالتذاذ والتوحش والتألم ، بانه لو لم تكن تلك الملكات والنيات باقية ابداً لم يكن للخلود في الجنة او النار وجه صحيح ، اذ لو كان المقتضى للثواب او العذاب نفس العمل والقول وهما زائلاً لزم بقاء المسبب مع زوال السبب وهو باطل ، وكيف يجوز للحكيم ان يعذب عباده أبد الدهر لأجل المعصية في زمان قصير ، فاذن منشأ الخلود هو الثبات في النيات والرسوخ في الملكات ، ومع ذلك فمن يعمل مثقال ذرة من الخير أو الشر يرى أثره في صحيفة نفسه أو في صحيفة أعلى وأرفع من ذاته أبداً كما قال سبحانه : (فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) « ٣ » والسرف فيه أن الأمر الذي يبقى مع النفس الى حين مفارقتها من الدنيا ولم يرتفع عنها في دار التكليف يبقى معها أبداً ولا يرتفع عنها أصلاً لعدم تجدد ما يوجب ازالته بعد مفارقتها عن عالم التكليف

ثم الظاهر ان هذا المذهب عند من قال به من أهل الشرائع بيان لكيفية الثواب والعقاب الروحانيين مع ادعائه بالجنة والنار الجسمانيين ، اذ لو كان مراده قصر اللذة والثواب والألم والعقاب والجنات والقصور والغلمان والحدود والنار والجحيم والزقوم والضريع وسائر ما ورد في الشريعة القادسة من امور القيامة

« ١ » سورة الكهف الآية ٤٧ .

« ٢ » سورة آل عمران الآية ٢٩ .

« ٣ » سورة نيس الآية ١٣ - ١٥ .

على ما ذكر فهو مخالف لضرورة الدين .

(تنبيه) الدنيا والآخرة متضادتان وكلما يقرب العبد الى احدهما يبعد عن الأخرى وبالعكس ، كما دلت عليه البراهين الحسكية والشواهد الذوقية والأدلة السمعية ، فكل ملكة أو حركة أو قول أو فعل يقرب العبد الى دار الطبيعة والغرور يبعده عن عالم البهجة والسرور وبالعكس ، فأسوأ الناس حالاً من لم يعرف حقيقة الدنيا والآخرة وتضادهما ، ولم يخف سوء العاقبة ، وأفنى عمره في طلب الدنيا واصلاح امر المماش ، وتصر سعيه على جرّ المنفعة لبدنه من نيل شهوة أو بلوغ لذة أو اكتساب ترفع ورئاسة أو جمع المال ، من غير تصور لما يصل اليه من فائده كما هو عادة أكثر أبناء الدنيا ، ولم يعرف غير هذه الأمور من المعارف الحقيقية والفضائل الخلقية والأعمال الصالحة المقربة الى عالم البقاء ، فكأنه يعلم خلوده في الدنيا ولا يرجو بعد الموت ثواب عمل ولا جزاء فعل ولا يعتقد بما يرجوه المؤمنون ويؤمله المتقون من الخير الدائم واللذات الخالفة لهذه اللذات الفانية التي يشارك فيها السباع والبهائم ، فاذا ادركه الموت مات على حسرة وندامة آيساً من رحمة الله قائلاً : (يا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) « ١ »

أعاذنا الله من سوء الخاتمة ووقفنا الله لتحصيل السعادة الدائمة .

فصل

تأثير المزاج على الاخلاق

للمزاج مدخلة تامة في الصفات فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعدة لبعض الأخلاق وبعضها مقتض للخلافه ، فانا نقطع بان بعض الأشخاص بحسب جبلته ولو خلى عن الأسباب الخارجية بحيث يفضى ويخاف ويحزن بادنى سبب

ويضحك بادنى تعجب وبعضهم بخلاف ذلك ، وقد يكون اعتدال القوى فطرياً بحيث يبلغ الانسان كامل العقل فاضل الأخلاق غالبه قوته العاقلة على قوتي الغضب والشهوة كما في الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، وقد يكون مجاوزتها عن الوسط كذلك بحيث يبلغ ناقص العقل ردي الصفات مغلوبة عاقلته تحت سلطان الغضب والشهوة كما في بعض الناس .

إلا أن الحق كما يأتي امكان زوالها بالمعالجات المقررة في علم الأخلاق ، فيجب السعي في ازالة نقائصها وتحصيل فضائلها ، وعجباً لأقوام يبالغون في اعادة الصحة الجسمانية الفانية ولا يجتهدون في تحصيل الصحة الروحانية الباقية ، يطيعون قول الطبيب الجوسي في شرب الأشياء الكريمة ومزاولة الأعمال القبيحة لأجل صحة زائلة ، ولا يطيعون امر الطبيب الإلهي لتحصيل السعادة الدائمة وبقاء النفس على النقصان اما لعدم صرفها الى طلب المقصود لملازمة العوايق والموانع او مزاولة النقيض تمكن موجب ، او لكثرة اشتغالها بالشواغل المحسوسة ، او لضعف القوة العاقلة ، فان لم تدركها العناية الآلمية فلا يزال يتزايد النقصان ويبعد عن الكمال الذي خلق لأجله ، الى ان تدركها الهلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية نعوذ بالله من ذلك ، وإن ادركته الرحمة الأزلية ، فيصرف همه في ازالة النقائص واكتساب الفضائل ، فلا يزال يتصاعد من مرتبة من الكمال الى فوقها ، حتى يصير من اهل مشاهدة الجلال والجمال ، ويتشرف بجوار الرب المتعال ويصل الى السرور الحقيقي الذي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والى قرّة الأعين التي يشير اليها في قوله سبحانه (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) « ١ »

فصل

تأثير التربية على الاخلاق

الخلق عبارة عن ملكة للنفس مقتضية لصدور الانفعال بسهولة من دون احتياج الى فكر وروية والمملكة كيفية نفسانية بطيئة الزوال ، وبالقيد الأخير خرج الحال ، لأنها كيفية نفسانية سريعة الزوال . وسبب وجود الخلق اما المزاج كما مر ، او العادة بان يفعل فعلا بالروية أو التكلف ويصبر عليه الى ان يصير ملكة (له) « ١ » ويصدر عنه بسهولة وان كان مخالفاً لمقتضى المزاج . واختلف الأوائل في امكان ازالة الاخلاق وعدمه ، وثالث الأقوال ان بعضها طبيعي يمتنع زواله وبعضها غير طبيعي حاصل من اسباب خارجة يمكن زواله ، ورجح المتأخرون الأول وقالوا ليس شيء من الاخلاق طبعياً ولا مخالفاً للطبيعة بل النفس بالنظر الى ذاتها قابلة للاتصاف بكل من طرفي التضاد ، إما بسهولة ان كان موافقاً للمزاج ، او بعسر ان كان مخالفاً له ، فاختلاف الناس في الاخلاق لاختلافهم في الاختيار والمزاولة لأسباب خارجة .

(حجة القول الأول) ان كل خلق قابل للتغيير وكل قابل للتغيير ليس طبعياً فينتج لاشيء من الخلق بطبيعي . والكبرى بدينية ، والصغرى وجدانية ، فانا نجد ان الشرير يصير بمصاحبته الخير خيراً ، والخير بمجالسة الشرير شراً ونرى ان التأديب (في السياسات) « ٢ » فيه اثر عظيم في زوال الاخلاق ، ولولاه لم يكن لقوة الروية فائدة وبطلت التأديبات والسياسات ولعت الشرائع

« ١ » غير موجودة في نسختها لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة .

« ٢ » لم توجدني نسخة الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة .

والديانات، ولما قال الله سبحانه (قد أفلح من زكاه)، ولما قال النبي صلى الله عليه وآله: حسنوا أخلاقكم، ولما قال: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

ورد بمنع كلية الصغرى، فانا نشاهد ان بعض الأخلاق في بعض الأشخاص غير قابل للتبديل (لا) سيما ما يتعلق بالقوة النظرية، كالحدس والتحفظ وجودة الذهن وحسن التعقل ومقابلاتها، كما هو معلوم من حال بعض الطلبة، فانه لا ينجح سعيهم في التبديل مع مبالغتهم في المجاهدة، وما قيل من لزوم تعطيل القوة المميزة وبطلان التأديب والسياسات، مردود بان هذا اللزوم إذا لم يكن شيء من الأخلاق قابلاً للتغيير، وامام مع قبول بعضها أو أكثرها له، فلا يلزم شيء مما ذكر، ولو كان عدم قبول بعض الأخلاق للتغيير موجباً لبطلان علم الشرائع والأخلاق لكان عدم قبول بعض الأمراض للصحة مقتضياً لبطلان علم الطب مع انا نعلم بديهية ان بعض الأمراض لا يقبل العلاج .

(وحجة القول الثاني) ان الأخلاق بأسرها تابعة للمزاج . والمزاج لا يتبدل، واختلاف مزاج شخص واحد في مراتب سنه لا ينفي ذلك، لجواز تابعيتها لجميع مراتب عرض المزاج، وايد ذلك بقوله صلى الله عليه وآله (الناس معادن كعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام) وبقوله صلى الله عليه وآله (اذا سمعتم ان جبلاً زال عن مكانه فصدقوه واذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه فانه سيعود الى ما جُبل عليه) .

والجواب ان توابع المزاج من المقتضيات التي يمكن زوالها لا من اللوازم التي يمتنع انفكاكها، لما ثبت في الحكمة من ان النفوس الانسانية متفقة في الحقيقة وفي بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والأحوال كما هو شأن العقل الهولاني ثم ما يحصل لها منها اما من مقتضيات الاختيار والعادة او استعدادات الأبدان والأمزجة، والمقتضى ما يمكن زواله كالبرودة للماء لا ما يمتنع انفكاكه كالزوجية

لأربعة ، واخبر الأول لا يفيد المطلوب بوجه ، والثاني مع عدم ثبوته عندنا يدل على خلاف مطلوبهم ، لان قوله (سيعود الى ما جبل عليه) يفيد امكان ازالة الخلق بالاسباب الخارجية من التأديب والنصائح وغيرها وبعد ازالته بها يعود بارتفاعها ، كبرودة الماء التي تزول ببعض الاسباب وتعود بعد زوال السبب فلو دام على حفظ الاسباب وابقاها لم يحصل العود اصلا .

وإذ ثبت بطلان القولين الأولين فالحق القول بالتفصيل يعني قبول بعض الاخلاق بل اكثرها بالنسبة الى الاكثر التبديل ، للحس والعيان ، ولبطلان السياسات والشرائع لولاه ، ولا مكان تغير خلق البهائم اذ ينتقل الصيد من التوحش الى الانس والفرس من الجماع الى الاتقياد والكلب من الهراشة الى التأديب ، فكيف لا يمكن في حق الانسان ، وعدم قبول بعضها بالنسبة الى البعض له ، للمشاهدة والتجربة ، وهذا البعض ، لا يكون متعلق التكليف كالاخلاق المتعلقة بالقوة العقلية من الذكاء والحفظ وحسن التعقل وغيرها . والتصفح يعطي اختلاف الاشخاص والاخلاق في الازالة والاتصاف بالضد بالامكان والتعذروا السهولة والتعسر وبالتلليل والرفع بالمرّة ، ولذا لو تصفحت أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين في جميع الاخلاق ، كما لا تجد اثنين متماثلين في الصورة ، ويشير الى ذلك قوله صلى الله عليه وآله (اعملوا فكل ميسر لما خاق له) وقال ارسطاطاليس يمكن صيرورة الاشرار ا خياراً بالتأديب إلا ان هذا ليس كلياً فانه ربما اثر في بعضهم بالزوال وفي بعضهم بالتقليل وربما لم يؤثر اصلا) .

ثم المراد من التغيير ليس رفع الغضب والشهوة مثلا واماطتهما بالكفاية فان ذلك محال لانهما مخلوقتان لفائدة ضرورية في الجبلّة ، اذ لو انقطع الغضب عن الانسان بالكفاية لم يدفع عن نفسه ما يهلكه ويؤذيه وامتنع جهاد الكفار ، ولو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبقى حياته ، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرّة لضاع

النسل ، بل المراد ردها من الافراط والتفريط الى الوسط ، فالمطلوب في صفة الغضب خلو النفس عن الجبن والتهور ، والاتصاف بحس الحمية ، وهو ان يحصل إذا استحسن حصوله شرعاً وعقلاً ولا يحصل إذا استحسن عدمه كذلك وكذا الحال في صفة الشهوة ، ولا ريب في أن رد بعض الموجودات الناقصة من القوى وغيرها إذا وجدت فيه قوة الكمال الى كماله ممكن إذا كان له شرط يرتبط باختيار العبد ، فكما ان النواة يمكن ان تصير نخلاً بالتربية ، لوجود قوة النخلية فيه ، وتوقف فعليتها على شرط التربية التي بيد العبد ، فكذلك يمكن تعديل قوتي الغضب والشهوة بالرياضة والمجاهدة لوجود قوة التعديل فيهما وتوقف فعلتيهما على شرط ارتبط باختيار العبد أعني الرياضة والمجاهدة ، وإن لم يمكن لنا قلعهما بالكلية كما لا يمكن لنا اعدام شيء من الموجودات ولا ايجاد شيء من المعدومات .

ثم شرائط الرد تختلف بالنسبة الى الأشخاص والأخلاق ولذا ترى ان التبديل يختلف باختلاف مراتب السياسات والتأديب فيمكن ان لا يرتفع مذموم خلق بمرتبة من التأديب ويرتفع بمرتبة منه فوقها . والأسهل قبولاً لكل خلق الاطفال لخلو نفوسهم عن الاضداد المانعة من القبول ، فيجب على الآباء تأديبهم بالآداب الجميلة وصونهم عن ارتكاب الاعمال القبيحة حتى تعتاد نفوسهم بترك الرذائل وارتكاب الفضائل ، والمؤدب الاول هو الناموس الالهى والثاني اولو الازهان القويمة من اهل المعارف الحققة ، فيجب تقييد من يراد تأديبه بالنواميس الربانية اولاً وتنبيهه بالحكم والمواعظ ثانياً .

فصل

شرف علم الاخلاق اشرف موضوعه وغايته

لما عرفت ان الحياة الحقيقية للانسان تتموقف على تهذيب الاخلاق الممكن

بالمعالجات المقررة في هذه الصناعة ، تعرف انها اشرف العلوم وانفعها ، لان شرف كل علم انما هو بشرف موضوعه او غايته ، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة بقدر شرف بدن الانسان واصلاحه على جلود البهائم ، وموضوع ، هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الانسان ولبه ، وهو اشرف الانواع الكونية ، كما برهن عليه في العلوم العقلية ، وغايته اكمله وايصاله من اول افق الانسان الى آخره ، ولكونه ذا عرض عريض متصلا اوله بأفق البهائم وآخره بأفق الملائكة ، لا يكاد ان يوجد التفاوت الذي بين اشخاص هذا النوع في افراد سائر الانواع فان فيه أخس الموجودات ومنه اشرف الكائنات كما قيل :

ولم أرَ أمثال الرجال تفاوتت لدى المجد حتى عَدَّ الف بواحد
وبالفارسية :

اي نقد اصل وفرع ندانم چه گوهری کز آسمان بلندتر و از خاک کمتر
والى ذلك التفاوت يشير قول سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم
« إني وزنت بأمتي فرجحت بهم » ولا ريب في أن هذا التفاوت لأجل
الاختلاف في الأخلاق والصفات لاشتراك الكل في الجسمية ولواحقها .

وهذا العلم هو الباعث للوصول الى اعلى مراتبهما وبه تتم الانسانية ويعرج من حضيض البهيمية الى ذرى الرتب الملكية ، وأي صناعة أشرف مما يوصل أخس الموجودات الى اشرفها ، ولذلك كان السلف من الحكماء لا يطلقون العلم حقيقة إلا عليه ويسمونه بالا كسير الاعظم ، وكان أول تعاليمهم ، وبيالغون في تدوينه وتعليمه والبحث عن اجماله وتفصيله ، ويعتقدون ان المتعلم ما لم يهذب اخلاقه لا تنفعه سائر العلوم ، وكما ان البدن الذي ليس بالنقي كلما غذوته فقد زدته شراً ، فكذلك النفس التي ليست نقية

عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلا فساداً ، ولذا ترى أكثر المشبهين
بزي العلماء أسوأ حالا من العوام ، مائلين عن وظائف الإيمان والاسلام ،
إما لشدة حرصهم على جمع المال غافلين عن حقيقة المال ، أو لغلبة حبهم الجاه
والمنصب ظناً منهم انه ترويج للدين والمذهب ، أو لوقوعهم في الضلالة والحيرة
لكثرة الشك والشبهة ، أو لشوقهم الى المرء والجدال في اندية الرجال اظهاراً
لتفوقهم على الاقران والامثال ، أو لاطلاق السنتهم على الآباء المعنوية من
أكابر العلماء وأعظم الحكماء ، ولعدم تعبدهم برسوم الشرع والملة ظناً منهم
انه مقتضى قواعد الحكمة ، ولم يعلموا أن الحكمة الحقيقية ما أعطته
النواميس الاكلمية والشرائع النبوية فكأنهم لم يعلموا ان العلم
بدون العمل ضلال ولم يتفطنوا قول نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم « قصم ظهري
رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك » ولم يتذكروا قوله صلى الله عليه وآله وسلم
« البلاهة أدنى الى الاخلاص من فطنة براء » وكل ذلك ليس إلا لعدم
سعيهم في تهذيب الأخلاق وتحسينها وعدم الامتثال لقوله سبحانه :

وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا (١)

فصل

(النفس واسماؤها وقواها الاربع)

ما عرفت من تجرد النفس انما هو التجرد في الذات دون الفعل ،
لافتقارها فعلاً الى الجسم والآلة ، فحدها انها جوهر ملكوتي يستخدم البدن
في حاجاته ، وهو حقيقة الانسان وذاته ، والاعضاء والقوى آلاته التي

يتوقف فعله عليها ، وله اسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات ، فيسمى « روحاً » لتوقف حياة البدن عليه و « عقلاً » لادراكه المعقولات و « قلباً » لتقلبه في الخواطر ، وقد تستعمل هذه الالفاظ في معان آخر تعرف بالقرائن . وله قوى أربع قوة عقلية ملكية وقوة غضبية سبعة وقوة شهوية بهيمية وقوة وهمية شيطانية (والأولى) شأنها إدراك حقائق الأمور والتمييز بين الخيرات والشرور والأمر بالأفعال الجميلة والنهي عن الصفات الذميمة (والثانية) موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء والتوثب على الناس بأنواع الأذى ، (والثالثة) لا يصدر عنها إلا أفعال البهائم من عبودية الفرج والبطن والحرص على الجماع والأكل ، (والرابعة) شأنها استنباط وجوه المكر والحيل والتوصل الى الأغراض بالتلبيس والخداع .

والفائدة في وجود القوة الشهوية بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس ، وفي وجود الغضبية ان يكسر سورة الشهوية والشيطانية ويقهرها عند انغمارها في الخداع والشهوات واصرارها عليها ، لانهما لتمردهما لا تطيعان العاقلة بسهولة بخلاف الغضبية فانهما تطيعانها وتتأديبان بتأديبها بسهولة .

ولذا قال افلاطون في صفة السبعية والبهيمية « أما هذه أي السبعية فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف ، وأما تلك أي البهيمية بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع » وقال أيضاً : « ما اصعب ان يصير الخائض في الشهوات فاضلاً ، فمن لا تطيعه الواهمة والشهوية في ايثار الوسط فليستعن بالقوة الغضبية المهيبة للغيرة والحمية حتى يقهرها » فلولم يتمثلا مع الاستعانة فان لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاها دل على غلبتها على العاقلة ومقهوريتها عندها ، وحينئذ لا يرجى صلاحه ، وإلا فالاصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا يئأس من روح الله ،

فان سبل الخيرات مفتوحة وأبواب الرحمة الالهية غير مسدودة .

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (١)

والفائدة في القوة الوهمية ادراك المعاني الجزئية واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصل بها الى المقاصد الصحيحة . وبيان ذلك أن الواهمة والخيال والمتخيلة ثلاث قوى متباينة ومباينة للقوى الثلاث الأول ، وشأن الأولى ادراك المعاني الجزئية ، وشأن الثانية إدراك الصور ، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما ، وكل من مدركاتهما اما مطابق للواقع أو مخترع من عند أنفسها من غير تحقق له في نفس الامر ايضاً ، واما من مقتضيات العقل والشرعية ومن الوسائل الى المقاصد الصحيحة ، أو من دواعي الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة ، وعلى الأول يكون وجودها خيراً وكلاً وان كان وجودها على الثاني شراً وفساداً ، والحال في جميع القوى كذلك .

هذا وقيل ما ورد في القرآن من النفس المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء ، اشارة الى القوى الثلاث أعني العاقلة والسبعية والبهيمية ، والحق انها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف احوالها ، فاذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاث الأخر وصارت منقاداً لها مقهورة منها وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها ، سميت « مطمئنة » ، لسكونها حينئذ تحت الاوامر والنواهي وميلها الى ملائمتها التي تقتضي جبلتها ، واذا لم تتم غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس لوم وندامة سميت (لوامة) واذا صارت مغلوبة منها مدعنة لها من دون دفاع سميت « امارة بالسوء » لانه لما اضمحلت قوتها العاقلة واذعنت للقوى الشيطانية من دون

مدافعة فكأنما هي الآمرة بالسوء .

ثم مثل اجتماع هذه القوى في الانسان كمثل اجتماع ملك أو حكيم و كلب
 وخنزير وشيطان في مربوط واحد وكان بينها منازعة واهيما صار غالباً كان الحكم
 له ، ولم يظهر من الافعال والصفات إلا ما تقتضيه جبلته فكأن اهلب الانسان
 وعاء اجتمع فيه هذه الاربعة ، فالملك أو الحكيم هو القوة العاقلة ، والكلب
 هو القوة الغضبية فان الكلب ليس كلباً ومذموماً لونه وصورته بل لروح معنى
 السلبية والسبعية اعني الضراوة والتكلب على الناس بالعقر والجرح ، والقوة
 الغضبية موجبة لذلك ، فمن غلب فيه هذه القوة هو الكلب حقيقة وان
 اطلق عليه اسم الانسان مجازاً ، والخنزير هو القوة الشهوية ، والشيطان هو
 القوة الوهمية والتقريب فيها كما ذكر ، والنفس لا تزال محل تنازع هذه
 القوى وتدافعها الى ان يغلب احداها ، فالغضبية تدعوه الى الظلم والايذاء
 والعداوة والبغضاء ، والبهيمية تدعوه الى المنكر والفواحش والحرص على
 المآكل والمناكح ، والشيطانية تهيج غضب السبعية وشهوة البهيمية وتزيد (١)
 فعلها وتغري احداها بالآخري والعقل شأنه ان يدفع غيظ السبعية بتسليط
 الشهوية عليها ويكسر سورة الشهوية بتسليط السبعية عليها ويرد كيد الشيطان
 ومكره بالكشف عن تلبسه ببصيرته النافذة ونورانيته الباهرة ، فان غلب
 على الكل يجعلها مقهورة تحت سياسته غير مقدمة على فعل إلا بإشارته ، جرى
 الكل على المنهج الوسط وظهر العدل في مملكة البدن وان لم يغلب عليها
 وعجز عن قهرها قهره واستخدموه فلا يزال الكلب في العقر والايذاء والخنزير
 في المنكر والفحشاء والشيطان في استنباط الحيل وتدقيق الفكر في وجوه المكر

(١) وفي نسخة الخطية هكذا « تزين »

والخدع ليرضي الكلب ويشبع الخنزير ، فلا يزال في عبادة كلب عقور
أو خنزير هلوع أو شيطان عنود ، فتدركه الهلاكة الابدية والشقاوة السرمدية
ان لم تغنه العناية الالهية والرحمة الازلية .

وقد يمثل اجتماع هذه القوى في الانسان براكب بهيمة طالب للصيد
يكون معه كلب وعين من قطاع الطريق ، فالراكب هو العقل ، والبهيمة هي
الشهوة ، والكلب هو الغضب والعين هو القوة الوهمية التي هي من جواسيس الشيطان ،
فان كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما يصدده ،
وان كانت الغلبة والحكم للبهيمة او الكلب لهلك الراكب بنهبه .
لا يصلح له من التلال والوهاد واقتحامه في موارد الملكات وان كان الكل تحت
نهي العين وامره وافتتنوا بخدعه ومكره لأضلهم بتليسه عن سواء السبيل حتى
يوصلهم الى ايدي السارقين .

وكذلك لو كانت القوى بأسرها تحت اشارة العقل وقهرها وغلب عليها
وقعت لانتقادها له المسألة والممازجة بين الكل ، وصار الجميع كالواحد لأن
المؤثر والمدير حينئذ ليس إلا قوة واحدة تستعمل كلاً منها في المواضع اللائقة
والأوقات المناسبة فيصدر عن كل منها ما خلق لأجله على ما ينبغي من القدر
والوقت والكيفية فتصلح النفس وقواها .

(وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) « ١ »

ولو لم يغلب العقل حصل التدافع والتجاذب بينه وبين سائر القوى
ويتزايد ذلك الى ان يؤدي الى انحلال الآلة والقوة ، لو يصير العقل مغلوباً ،
فتهلك النفس وقواها .

(وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا) « ١ »

(تسميم) لما تبين ان للنفس اربع قوى متخالفة ولها قوى أخرى أيضاً كما تبين في العلم الطبيعي ، فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض يحصل في النفس اختلاف عظيم ، والاختلاف في النفوس انما هو باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة ، إذ هي في بدو فطرتها خالية عن جميع الاخلاق والملكات ، وليس لها فعلية اصلاً ، بل هي محض القوة ، ولذا ليس لها قوام بذاتها وانما تقوم بالبدن ، ثم بتوسط قواها تكتسب العلوم والاخلاق وترسم بالصور والأعمال الى ان تتقوم بها وتصل الى ما خلقت لأجله ، ولما كانت قواها متخالفة متنازعة فما لم يغلب احداها لم تدخل النفس في عالمه « ٢ » الذي تخصه فلا تزال من تنازعا معركة للآثار المختلفة والأحكام المتباينة الى ان يغلب احداها فتظهر في النفس آثاره ويدخل في عالمه الخاص .

ولما كانت القوة العاقلة من سنخ الملائكة ، والواهمة من حزب الأبالسة والغضبية من افق السباع ، والشهوية من عالم البهائم ، فبحسب غلبة واحدة منها تكون النفس اما ملكاً أو شيطاناً أو كلباً أو خنزيراً ، فلو كانت الغلبة والسلطنة لقهر مان العقل ظهر في مملكة النفس احكامه وآثاره ، وانتظمت احواله ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره فتهلك النفس ويختل معاشها ومعادها .

ثم المنشأ للتنازع والتجرد والبقاء في نفس الانسانية انما هو قوتها العقلية لأن التدافع انما ينهيا وبين سائر القوى ، فليس في نفوس سائر الحيوانات لفقدانها العاقلة تنازع وتجاذب وان اختلفت في غلبة ما فيها من القوى ، فان الغلبة في الشياطين للواهمة وفي السباع للغضب وفي البهائم للشهوة واما الملائكة فتتحصن

« ١ » الشمس الآية ٩ .

« ٢ » في سجننا الحسية هكذا (في علله التي تخصها) .

قوتها بالعاقلة فليس فيها سائر القوى فلا يتحقق فيها تدافع وتنازع فالجامع لعوالم الكل هو الانسان وهو المخصوص من بين المخلوقات بالصفات المتقابلة ولذلك صار مظهراً للأسماء المتقابلة الالهية وقابلاً للخلافة الربانية وقائماً بعمارة عالمي الصورة والمعنى .

والملائكة وان كانوا مخصوصين بالجنة الروحانية ولوازمها من الاشراقات العلمية وتوابعها من اللذات العقلية إلا انه ليس لهم جهة جسمانية ولوازمها والأجسام الفلكية وان كانت لها نفوس ناطقة على قواعد الحكمة إلا أنها خالية عن الطبائع المختلفة والكيفيات المتباينة وليس لها سير في المدارج المتخالفة والمراتب المتفاوتة ولا تقلب في أطوار النقص والكمال ولا تحول في جميع التقاليب والأحوال بخلاف الانسان فانه محيط بجميع المراتب المختلفة وسائر في الأطوار المتباينة من الجمادية والنباتية والحيوانية والملكية وله الترقى عن جميع تلك المراتب بأن تتحقق له مرتبة مشاهدة الوحدة الصرفة فيتجاوز عن افق الملائكة فهو النسخة الجامعة لحقائق الملك والملكوت والمعجون المركب من عالمي الأمر والخلق قال امير المؤمنين عليه السلام (إن الله خص الملك بالعقل دون الشهوة والغضب وخص الحيوانات بهما دونه وشرف الانسان باعطاء الجميع فان انقادت شهوته وغضبه لعقله صار افضل من الملائكة لوصوله الى هذه المرتبة مع وجود المنازع والملائكة ليس لهم مزاحم) .

وصل

قد ظهر بما ذكر أن الانسان ذو جنبة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة والملائكة القادسة وذو جنبة جسمانية يشابه بها السباع والأنعام فبالجزء الجسماني أقيم في هذا العالم الحسي مدة قصيرة وبالجزء الروحاني ينتقل الى العالم العلوي ويقيم

فيه ابدأً في مصاحبة الارواح القدسية بشرط أن يتحرك بقواه نحو كمالاتها الخاصة حتى يغلب الجزء الروحاني على الجسدي وينفض عن نفسه كدورات الطبيعة وتظهر فيه آثار الروحانيات من العلم بحقائق الأشياء والانس بالله تعالى والحب له والتحلي بفضائل الصفات ، وحينئذ يقوم بغلبة روحانيته بين الملائكة الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ويستنير بالنور الالهي ويزيد ذلك بحسب دفع العلائق الجسمية ، حتى اذا ارتفعت عنه حجب الغواسق الطبيعية بأسرها وازيلت عنه استار العوائق الهيولانية برمتها خلى عن جميع الآلام والحسرات وكان ابدأً مسروراً بذاته مقتبطاً بحاله مبتهجاً بما يرد عليه من فيوضات النور الاول ولا يسر إلا بتلك الذات ولا يغتبط إلا بها ولا يهش إلا باظهار الحكمة الحققة بين اهلها ولا يرتاح إلا بمن ناسبه واحب الاقتباس منه ولا يبالي بمفارقة الدنيا وما فيها ويرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا وبالأحرار وكلاً عليه ، إلا ما هو ضروري يحتاج اليه بدنه الذي يفتقر اليه في تحصيل كماله ويحن أبدأً الى مصاحبة الذوات النورية ، ولا يفعل إلا ما أراد الله تعالى منه ، ولا يتعرض إلا لما يقربه اليه ، ولا يخالفه في متابعة الشهوات الردية ، ولا ينخدع بخدائع الطبيعة ، ولا يلتفت الى شيء يعوقه عن سعادته ، ولا يحزن على فقد محبوب ولا فوت مطلوب ، واذا صفي من الأمور الطبيعية بالكلية زالت عنه العوارض النفسانية والخواطر الشيطانية بأسرها وفنى عنه ارادته المتعلقة بالأمور الخارجة ، وحينئذ يمتلي من المعارف الالهية والشوق الالهي والبهجة الالهية والشعار الالهي ، وتتقرر الحقائق في عقله كتقرر القضايا الأولية فيه بل يكون علمه بها اشد اشراقاً وظهوراً من علمه بها ، واذا بلغ هذه الغاية فقد استعد للوصول الى المرتبة القصوى ومجاورة الملائكة الأعلى ،

فيصل الى ما لاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويفوز بما
أشير اليه في الكتاب الالهي بقوله :

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (١)

فصل

(الاقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها)

اعلم ان الغاية في تهذيب النفس عن الرذائل وتكميلها بالفضائل هو الوصول
الى الخير والسعادة . والسلف من الحكماء قالوا ان « الخير » على قسمين
مطلق ومضاف والمطلق هو المقصود من ايجاد الكل اذ الكل يتشوقه وهو
غاية الغايات والمضاف ما يتوصل به الى المطلق . « والسعادة » هو وصول
كل شخص بحركته الارادية النفسانية الى كماله الكامن في جبلته . وعلى هذا
فالفرق بين الخير والسعادة ان الخير لا يختلف بالنسبة الى الأشخاص والسعادة
تختلف بالقياس اليهم .

ثم الظاهر من كلام ارسطاطاليس ان الخير المطلق هو الكمالات
النفسية والمضاف ما يكون معداً لتحصيلها كالتعلم والصحة أو نافعاً فيه
كالمكنة والثروة .

واما السعادة فعند الاقدمين من الحكماء راجعة الى النفوس فقط ،
وقالوا ليس للبدن فيها حظ ، فحصروها في الأخلاق الفاضلة ، واحتجوا على
ذلك بأن حقيقة الانسان هي النفس الناطقة والبدن آلة لها ، فلا يكون ما يعد
كمالاً له سعادة للانسان . وعن المتأخرين منهم كارسطو ومن تابعه راجعة الى

الشخص من حيث التركيب ، سواء تعلقت بنفسه أو بدنه ، لأن كل ما يلائم جزءاً من شخص معين فهو سعادة جزئية بالنسبة اليه ، مع انه يتعسر صدور الأفعال الجميلة بدون اليسار وكثرة الأعوان والانصار والبخت المسعود وغير ذلك مما لا يرجع الى النفس ، ولذا قسموا السعادة الى ما يتعلق بالبدن من حيث هو كالصحة واعتدال المزاج ، والى ما يتوصل به الى افشاء العوارف ، ومثله مما يوجب استحقاق المدح كاللئال وكثرة الأعوان ، والى ما يوجب حسن الحديث وشيوع الحممة ، والى ما يتعلق بانجاح المقاصد والأغراض على مقتضى الأمل ، والى ما يرجع الى النفس من الحكمة والأخلاق المرضية ، وقالوا كمال السعادة لا يحصل بدون هذه الخمسة وبقدر النقصان فيها تنقص ، قالوا وفوق ذلك سعادة محضة لا تدانيها سعادة ، وهو ما يفيض الله سبحانه على بعض عباده من المواهب العالية والاشراقات العلمية والابتهاجات العقلية بدون سبب ظاهر .

ثم الاقدمون لذهابهم الى نفي السعادة للبدن صرحوا بان السعادة العظمى لا تحصل للنفس ما دامت متعلقة بالبدن وملوثة بالكدورات الطبيعية والشواغل المادية ، بل حصولها موقوف على مفارقتها عنها ، لأن السعادة المطلقة لا تحصل لها ما لم تصر مشرقة بالاشراقات العقلية ومضيئة بالانوار الالهية ، بحيث يطلق عليها اسم العقل التام ، وذلك موقوف على تخلصها التام عن الظلمة الهيولانية والقصورات المادية .

واما المعلم الأول واتباعه فقالوا ان السعادة العظمى تحصل للنفس مع تعلقها بالبدن أيضاً ، لبداية حصولها من استجمع الفضائل بأسرها واشتغل بتكميل غيره ، وما اقتبح: ان يقال مثله ناقص واذا مات يصير تاماً ، فالسعادة

لها مراتب ويحصل للنفس الترقى في مدارجها بالمجاهدة الى ان تصل الى اقصاها ،
وحينئذ يحصل تمامها وان كان قبل المفارقة وتكون باقية بعدها ايضاً .

ثم المتأخرون عن الطائفتين من حكماء الاسلام قالوا ان السعادة في الأحياء
لا تتم إلا باجتماع ما يتعلق بالروح والبدن ، وادناها ان تغلب السعادة البدنية
على النفسية بالفعل إلا أن الشوق الى الثانية والحرص على اكتسابها يكون
أغلب ، وأقصاها ان تكون الفعلية والشوق كلاهما في الثانية أكثر ، إلا انه
قد يقع الالتفات الى هذا العالم وتنظيم أموره بالعرض ، واما في الاموات
فيختص بما يتعلق بالنفس فقط لاستغنائهم عن الأمور البدنية ، فتختص
السعادة فيهم بالملكات الفاضلة الباقية والعلوم الحقة اليقينية والوصول الى
مشاهدة جمال الابد ومعانية جلال السرمد ، وقالوا ان الاولى لشوبها بالزخارف
الحسية والكدورات الطبيعية ناقصة كدرة ، واما الثانية فلخلوها عنها تامة
صافية ، لأن المتصف بها يكون أبداً مستنيراً بالانوار الالهية مستضيئاً
بالاضواء العقلية مستهتراً (١) بذكر الله وانسه مستغرقاً في بحر عظمتة وقده
وليس له التفات الى ماسوى ذلك ، ولا يتصور له تحسر على فقد لذّة أو محبوب
ولا شوق الى طلب شيء مرغوب ولا رغبة الى أمر من الامور ولا رهبة من
وقوع محذور ، بل يكون منصرفاً بجزئه العقلي مقصوراً همه على الأمور
الالهية من دون التفات الى غيرها .

وهذا القول ترجيح لطريقة المعلم الاول من حيث اثبات سعادة للبدن ،
ولطريقة الاقدمين من حيث نفي حصول السعادة العظمى للنفس ما دامت متعلقة
بالبدن ، وهو (الحق المختار) عندنا ، إذ لا ريب في كون ما هو وصلة الى

(١) مستهتراً به على بناء اسم المفعول أي مولع به لا يتحدث بغيره .

السعادة المطلقة سعادة اضافية ، ومعلوم ان غرض القائل بكون متعلقات الابدان كالصحة والمال والاعوان سعادة انها سعادة اذا جعلت آلة لتحصيل السعادة الحقيقية لا مطلقاً ، إذ لا يقول عاقل ان الصحة الجسمية والحطام الدنيوي سعادة ، ولو جعلت وسيلة الى اكتساب سخط الله وعقابه وحاجة عن الوصول الى دار كرامته ونوابه ، وكذا لا ريب في ان النفس ما دامت متعلقة بالبدن مقيدة في سجن الطبيعة لا يحصل لها العقل الفعلي ، ولا تنكشف لها الحقائق كما هي عليه انكشافاً تاماً ، ولا تصل الى حقيقة ما يترتب على العلم والعمل من الابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية ، ولو حصلت لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون في آن واحد ويمر كالبرق الخاطف .

هذا وقد ظهر من كلمات الجميع ان حقيقة الخير والسعادة ليست إلا المعارف الحقة والأخلاق الطيبة ، والامر وان كان كذلك من حيث ان حقيقتيها ما يكون مطلوباً لذاته وباقيها مع النفس ابداً وهما كذلك ، إلا انه لا ريب في ان ما يترتب عليهما من حب الله وانسه والابتهاجات العقلانية واللذات الروحانية مغاير لهما من حيث الاعتبار ، وان لم ينفك عنهما ، ومطلوبيته لذاته اشد وأقوى ، فهو باسم الخير والسعادة أولى وأحرى ، وان كان الجميع خيراً وسعادة . وبذلك يحصل الجمع بين أقوال ارباب النظر والاستدلال واصحاب الكشف والحال واخوان الظاهر من أهل المقال ، حيث ذهبت (الفرقة الاولى) الى ان حقيقة السعادة هو العقل والعلم ، (والثانية) الى انها العشق ، (والثالثة) الى انها الزهد وترك الدنيا .

فصل

(لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً)

لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً ، فلا تحصل باصلاحها بعضاً دون بعض ووقتاً دون وقت ، كما ان الصحة الجسمية وتدبير المنزل وسياسة المدن لا تحصل إلا باصلاح جميع الاعضاء والاشخاص والطوائف في جميع الاوقات ، فالسعيد المطلق من اصلح جميع صفاته وافعاله على وجه الثبوت والدوام بحيث لا يغيره تغير الاحوال والازمان ، فلا يزول صبره بحدوث المصائب والفتن ولا شكره بورود النوائب والحن ولا يقينه بكثرة الشبهات ولا رضاه باعظم النكبات ولا احسانه بالاساءة ولا صداقته بالعداوة ، وبالجملة لا يحصل التفاوت في حاله ، ولو ورد عليه ماورد على ايوب النبي عليه السلام أو على برناس الحكيم ، لشهامة ذاته ورسوخ اخلاقه وصفاته ، وعدم مبالاته بعوارض الطبيعة ، وابتهاجه بنورانيته وملكاته الشريفة ، بل السعيد الواقعي لتجرده وتعاليه عن الجسمانيات خارج عن تصرف الطبائع الفلكية متعال عن تأثير الكواكب والاجرام الاثرية ، فلا يتأثر عن سعدتها ونحسها ولا ينفعل عن قرها وشمسها . أهل التسبيح والتقديس لا يبالون بالتثليث والتسديس وربما بلغ تجردهم وقوة نفوسهم مرتبة تحصل لهم ملكة الاقتدار على التصرف في مواد الكائنات ، ولو في الافلاك وما فيها ، كما حصل لفخر الانبياء وسيد الاوصياء صلوات الله عليها وآلها من شق القمر ورد الشمس .

وقد ظهر مما ذكر ان من يجزع بورود المصائب الدنيوية ويضطرب من الكدورات الطبيعية ويدخل نفسه في معرض شماتة الأعداء وترحم

الأحباء ، خارج عن زمرة السعداء ، لضعف غريزته وغلبة الجبن على طبيعته ، وعدم نيته بعد الى الابتهاجات التي تدفع عن النفس امثال ذلك ، ومثله لو تكلف الصبر والرضا وتشبه ظاهراً بالسعداء لكان في الباطن متألماً مضطرباً ، وهذا ليس سعادة لأن السعادة الواقعية إنما هو صيرورة الاخلاق الفاضلة ملكات راسخة بحيث لا تغيرها المغيرات ظاهراً وباطناً . بلغنا الله وجميع الطالبين الى هذا المقام الشريف ،

وصل

(غاية السعادة التشبه بالمبدأ)

صرح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الانسان في صفاته بالمبدأ : بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلاً ، لا لغرض آخر من جلب منفعة أو دفع مضرة ، وإنما يتحقق ذلك اذا صارت حقيقته المعبر عنها بالعقل الاكهي والنفس الناطقة خيراً محضاً ، بان يتطهر عن جميع الخبائث الجسمانية والاقذار الحيوانية ، ولا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية والخواطر النفسانية ، ويمتلىء من الانوار الالهية والمعارف الحقيقية ، ويتيقن بالحقائق الحققة الواقعية ، ويصير عقلاً محضاً بحيث يصير جميع معقولاته كالتقضايا الأولية ، بل يصير ظهورها أشد وانكشافها أتم ، وحينئذ يكون له اسوة حسنة بالله سبحانه ، في صدور الافعال وتصير إلهية أي شبيهة بافعال الله سبحانه في انه اصرافه حسنه يقتضي الحسن والمحوضة جماله يصدر عنه الجميل ، من دون داع خارجي ، فتكون ذاته غاية فعله وفعله غرضه بعينه ، وكلما يصدر عنه بالذات وبالقصد الأول فأنما يصدر لاجل ذاته وذات الفعل وان ترشحت منه الفوائد الكثيرة على الغير بالقصد الثاني وبالعرض . قالوا واذا بلغ الانسان

هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الالهيّة واللذة الحقيقيّة الذاتيّة ، فيشتمل طبعه من اللذات الحسية الحيوانيّة ، لأنّ من أدرك اللذة الحقيقيّة العقليّة علم أنّها لذّة ذاتيّة ، والحسية ليست لذّة بالحقيقة لتصرّفها ودثورها وكونها دفع ألم . وأنّت خبير بأن هذا التصريح محل تأمل لمخالفته ظواهر الشرع فتأمل .

فصل

(بازاء كل واحدة من القوى الاربع لذّة وألم)

لما عرفت ان القوى في الانسان اربع قوّة نظريّة عقليّة وقوّة وهميّة خياليّة وقوّة سبعية غضبيّة وقوّة بهيميّة شهويّة ، فاعلم انه بازاء كل واحدة منها لذّة وألم ، لان اللذة ادراك الملائم والألم ادراك غير الملائم ، فكل من الغرائز المدركة لذّة هو نيله مقتضى طبعه الذي خلق لاجله وألم هو ادراكه خلاف مقتضى طبعه .

(غريزة العقل) لما خلقت لمعرفة حقائق الأمور ، فلذتها في المعرفة والعلم ، وألمها في الجهل ، و « غريزة الغضب » لما خلقت للتشفي والانتقام فلذتها في الغلبة التي يقتضيها طبعها وألمها في عدمها ، و « غريزة الشهوة » لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به قوام البدن فلذتها في نيل الغذاء وألمها في عدم نيله ، وهكذا في غيرها ، فاللذات والآلام أيضاً على اربعة أقسام العقليّة والخياليّة والغضبيّة والبهيميّة .

فاللذة العقليّة كالانبساط (١) الحاصل من معرفة الأشياء الكلية وادراك الذوات المجردة النورية والألم العقلي كالالتباس الحاصل من الجهل ، واللذة

الخيالية كالفرح الحاصل من ادراك الصور والمعاني الجزئية الملائمة والألم الخيالي كادراك غير الملائمة منها ، واللذة المتعلقة بالقوة الغضبية كالانبساط الحاصل من الغلبة ونيل المناصب والرياسات والألم المتعلق بها كالانقباض الحاصل من المغلوبية والعزل والرؤسية ، واللذة البهيمية هي المدركة من الأكل والجماع وأمثالهما والألم البهيمي ما يدرك من الجوع والعطش والحر والبرد واشباهها . وهذه اللذات والآلام تصل الى النفس وهي الملتذذة والمتألمة حقيقة إلا ان كلامها يصل اليها بواسطة القوة التي تتعلق بها . والفرق بين الكل ظاهر .

وربما يشبه بين ما يتعلق بالوهم والخيال وما يتعلق بالقوة الغضبية من حيث اشتراكهما في الترتب على التخيل .

ويدفع الاشتباه بان ما يتعلق بالغضبية وان توقف على التخيل إلا ان المتأثر بالالتذاذ والتألم بعد التخيل هو الغضبية وبواسطتها تتأثر النفس في هذا النوع من اللذة والألم ما لم تتأثر الغضبية لم تتأثر النفس ، واما ما يتعلق بالوهم والخيال فالتأثر بالالتذاذ والتألم هاتان القوتان ويصل التأثير منهما الى النفس من دون توسط القوة الغضبية ، ومما يوضح الفرق ان الالتذاذ والتألم الخياليين لا يتوقفان على وجود غلبة ومغلوبية مثلاً في الخارج ، واما الغضبيان فيتوقفان عليهما .

ثم أقوى اللذات هي العقلية لكونها فعلية ذاتية غير زائلة باختلاف الاحوال ، وغيرها من اللذات الحسية انفعالية عرضية منفعة زائلة وهي في مبدأ الحال مرغوبة عند الطبيعة وتزايد بتزايد القوة الحيوانية وتتضعف بضعفها الى ان تنتفي بالمرة ويظهر قبورها عند العقل واما العقلية فهي في البداية منتفية ، لان ادراكها لا يحصل إلا للنفوس الزكية المتحلية بالاخلاق المرضية ، وبعد

حصولها يظهر حسنها وشرفها وتزايد بتزايد القوة العقلية ، الى ان ينتهي الى أقصى المراتب ولا يكون لها نقص ولا زوال .

والعجب ممن ظن انحصار اللذة في الحسية وجعلها غاية كمال الانسان وسعادته القصوى ، والمتشرعون منهم قصروا اللذات الآخرة على الجنة والخور والغلمان وامثالها وآلامها على النار والعقارب والحيات واشباهها ، وجعلوا الوصول الى الأولى والخلاص عن الثانية غاية لزهدهم وعبادتهم ، وكأنهم لم يعلموا ان هذه عبادة الاجراء والعبيد تركوا قليل المشتبهات ليصلوا الى كثيرها ، وليت شعري ان ذلك كيف يدل على الكمال الحقيقي والقرب من الله سبحانه ، ولا ادري ان الباكي خوفاً من النار وشوقاً الى اللذات الجسمية المطلوبة للنفس البهيمية كيف يعدّ من اهل التقرب الى الله سبحانه ويستحق التعظيم ويوصف بعلو الرتبة ، وكأنهم لم يدركوا الابتهاجات الروحانية ولا لذة المعرفة بالله وحبّه وانسه ولم يسمّعوا قول سيد الموحدين (١) صلى الله عليه وآله « إلهي ماعبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك »

وبالجملة لا ريب في ان الانسان في اللذة الجسمية يشارك الخنافس والديدان والهمج من الحيوان ، وأما يشابه الملائكة في البصيرة الباطنة والاخلاق الفاضلة ، وكيف يرتضي العاقل ان يجعل النفس الناطقة الشريفة خادمة للنفس البهيمية الخسيسة .

والعجب من هؤلاء الجماعة (٢) مع هذا الاعتقاد يعظمون من يتنزّه عن الشهوات الحيوانية ويستنهين باللذات الحسية ويتخضعون له ويعبدون أنفسهم

(١) المعنى به هو أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام .

(٢) المراد من الذين قصرّوا اللذات في الحسية والمكلام كله في هذا الرأي .

اشقياء بالنسبة اليه ويدعون انه اقرب الناس الى الله سبحانه واعلى رتبة منهم
بتنزهه عن الشهوات الطبيعية ، وقد اتفق كلهم على تنزه مبدع الكل وتعالیه
عنها مستدلّين بلزوم النقص فيه لولاه ، وكل ذلك يناقض رأيهم الاول ،
والسر فيه انهم وان ذهبوا الى هذا الرأي الفاسد إلا انه لما كانت غريزة العقل
فيهم بعد موجودة ، وان كانت ضعيفة ، فيرى ما هو كمال حقيقي لجوهرها
كاملاً ، ويحكم بنورانيته الذاتية ، على كون ما هو فضيلة في الواقع فضيلة وما هو رذيلة
في نفس الامر رذيلة ، فيضطرونهم الى اكرام اهل التنزه عن الشهوات والاستهانة
بالمكبين عليها .

ومما يدل على قببح اللذات الحيوانية أن اهلها يكتمونها ويخفون
ارتكابها ويستحيون عن اظهارها ، واذا وصفوا بذلك تتغير وجوههم ، كما
هو ظاهر من وصف الرجل بكثرة الأكل والجماع ، مع ان الجميل على الاطلاق
يحسن اذا عته وصاحبه يحب ان يظهره ويوصف به ، هذا مع ان البديهة حكمة
بان هذه اللذات ليست لذات حقيقية ، بل هي دفع آلام حادثة للبدن (١) فان
ما يتخيل لذة عند الاكل والجماع إنما هو راحة من ألم الجوع ولذع المني ولذا
لا يلتذ الشبعان من الاكل ، ومعلوم ان الراحة من الألم ليس كاملاً وخيراً ،
اذ السكّال الحقيقي والخير المطلق ما يكون كاملاً وخيراً أبداً .

(١) الحق ان كل لذة بدنية وتقسية إنما هي اشباع شهوة أو غريزة تتطلب الاشباع ،
حتى طلب المعارف والعلم إنما هو لاشباع غريزة حب الاستطلاع ، الا ان طالب العلم
لا يصل الى حد الاشباع ابداً ، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : « منهومان لا يشبعان
طالب علم وطالب مال » وايست كذلك الغريزة الجنسية وغريزة حب الاكل وامثالها
فإنها تصل الى حد الاشباع فتكفئني .

إيقاظ

(فيه موعظة ونصيحة)

لما عرفت ان الانسان في اللذة العقلية يشارك الملائكة وفي غيرها من الحسية المتعلقة بالقوى الثلاث اعني السبعية والبهيمية والشرطانية يشارك السباع والبهائم والشرطانيين ، فاعلم ان من غلبت عليه احدى اللذات الأربع كانت مشاركته لما ينسب اليه اكثر حتى اذا صارت الغلبة تامة لكان هو هو ، فانظر يا حبيبي أين تضع نفسك ، فان الغلبة لو كانت لقوتك الشهوية حتى يكون اكثر همك الى الشهوات الحيوانية كالاكل والشرب والجماع وسائر النزوات البهيمية ، كنت واحداً من البهائم ، وان كانت لقوتك الغضبية حتى يكون جلّ ميلك الى المناصب والرياسات الرديّة وايداء الناس بالضرب والشم وباقى الحركات السبعية ، نزلت منزلة السباع ، وان كانت لقوتك الشرطانية حتى يكون غالب سعيك في استنباط وجوه المكر والحيل للوصول الى مقتضيات قوّتي الشهوة والغضب بأنواع الخداع والتلييسات الوهمية دخلت في حزب الالباسة، وان كانت لقوّتك العقلية حتى يكون جدك مقصوراً على «أخذ» (١) المعارف الاكلمية واقتفاء (٢) الفضائل الخلقية عرجت الى افق الملائكة القادسة . فمن كان عاقلاً غير عدو لنفسه وجب عليه ان يصرف جلّ همّه في تحصيل السعادة العامة والعملية وازالة النقائص الكامنة في نفسه ، وليقتصر على الأمور الشهوانية واللذات الجسمانية بقدر الضرورة ، بان يكتفي من الغذاء بما يحفظ اعتدال

(١) لم توجد في نسختنا الخطية ولكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة

(٢) في نسختنا الخطية هكذا « واقتناء » .

مزاجه وقوام حياته ، ولا يكون قصده منه الالتذاذ بل سدّ الضرورة ودفع
الآلم ، ولا يضيع وقته في تحصيل ازيد من ذلك ، فان تجاوز عنه فبقدر
ما يحفظ رتبته ولا يوجب مهانتة وذلتة ، ومن اللباس بقدر ما يستر العورة
ويدفع الحرّ والبرد ، فان تجاوز عن ذلك فبقدر ما لا يؤدي الى حقارته
ولا يوجب السقوط بين اقرانه وأهل طبقتة ، ومن الجماع بقدر ما يحفظ نوعه
ويبقى نسله ، وان تعدى فبقدر ما لا يخرج عن السنة ، وليحذر عن الانهماك
في مقتضيات قوّتي الشهوة والغضب ، لانه يوجب الشقاوة الدائمة والهلاك
السرمدية ، فالله الله في نفوسكم معاشر الاخوان ادر كوها قبل ان تفرقوا في
بحار المهالك ، وتنهبوا عن نوم الغفلة قبل ان تنسد عليكم السبل والمسالك ،
وبادروا الى تحصيل السعادات قبل ان تستحكم فيكم الملكات المهلكة والعادات
المفسدة ، فان ازالة الرذائل بعد استحكامها في غاية الصعوبة ، والمجاهدة مع
احزاب الشياطين بعد الكبر قلما يفيد الاثر ، والغلبة على النفس الامارة
بعد ضعف الهرم في غاية الاشكال ، إلا انه في أي حال لا ينبغي ان تيأسوا
من روح الله فاجتهدوا بقدر القوة والاستطاعة ، فانه خير من التماذي في
الباطل فلعل الله يدرككم بعظيم رحمته .

ولقد قال الشيخ (١) الفاضل احمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه وهو

(١) هو الحكيم الاعظم والفيلسوف الاكبر « ابو علي احمد بن محمد » بن يعقوب
ابن مسكويه الخازن « الرازي » الاصل والاصطهباني المسكن والحائمة كان من اعيان
العلماء واركأ الحكماء ماصراً للشيخ ابي علي بن سينا صاحب الوزير المهلب في ايام شبابه
وكان من خاصته الى ان اتصل بصحبة « عضد الدولة » البويهسي فصار من كبار ندمائه
ورسله الى نظرائه ثم اختص بالوزير « ابن العميد » وابنه « ابي الفتح » . له مؤلفات
كثيرة بعضها في الحكمة ومنه كتاب « الفوز الاكبر » وكتاب « الفوز الاصغر »
« وجاويدان خرد » بالفارسية في الحكمة وهو يقرب من خمسة آلاف بيت وبعضها في -

الأستاذ في علم الأخلاق وأقدم الاسلاميين في تدوينه : « أني تنبهت عن نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة ، فتوجهت الى فطام نفسي عن رذائل الملكات وجاهدت جهاداً عظيماً حتى وفقني الله لاستخلاصها عما يهلكها ، فلا يأس أحد من رحمة الله ، فان النجاة لكل طالب مرجوة وابواب الافاضة ابداً مفتوحة » فبادروا اخواني الى تهذيب نفوسكم قبل ان يصير الرئيس مرؤساً والعقل مقهوراً ، فيفسد جوهركم وتمسخ حقيقتكم ، ويدرككم الانتكاس في الخلق الذي هو خروج عن اقق الانسان ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين ، نعوذ بالله من ذلك ونسأله العصمة من الخسرات الذي لانهاية له . وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء فرماها في نار مضطربة فيحرقها ، حتى تصير كاساً (١) لا منفعة فيها .

(تميم) ولا تظن ان ما يفوت عن النفس من الصفاء والبهجة لاجل ما يعتريها من الكدرة الحاصلة من معصية من المعاصي يمكن تداركه ، فان ذلك محال ، اذ غاية الامر ان تتبع تلك المعصية بحسنة تمحي آثارها وتعيد النفس الى ما كانت عليه قبل تلك المعصية ، فلا تزداد بتلك الحسنة اشراقاً وسعادة ، ولو جاء بها من دون سيئة ل زاد بها نور القلب وبهجته وحصلت له

— التاربيخ ومنه « تجارب الامم » وبعضها في الاخلاق ومنه كتاب « الطهارة » المشهور وهو الذي قصد « المصنف » به هنا لانه اول كتاب صنف في علم الاخلاق وقد مدحه استاذ البشر واعلم اهل البدو والخضر الحجة الأعظم الفيلسوف المحقق الخواجه « نصير الدين الطوسي » قدس سره بايات وكان رحمه من علمائنا الامامية قدس الله اسرارهم وقبره « باصبيان » على باب (درب جناد) وقد اشتهر ان السيد (الداماد) الذي كان من اعظم علمائنا واكابر حكمائنا كان كلما اجتاز يقف على قبره ويقرأ الفاتحة الترجمة عن الركبي واللقاب للمحدث الشهير الحاج شيخ (عباس القمي) قدس سره مع تصرف يسير منا .

(١) الكس ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها باعراهما .

درجة في الجنة ، ولما تقدمت السيئة سقطت هذه الفائدة وانحصرت فائدتها في مجرد عود القلب الى ما كان عليه قبلها ، وهذا نقصان لا حيلة لجبره ، ومثال ذلك ان المرأة التي تدنس بالخبث والصدأ اذا مسحت بالمصقلة وان زال به هذا الخبث إلا انه لا يزيد به جلاء وصفاء ، بخلاف ما اذا لم تتدنس اصلاً فان التصقيل يزيد لها صفاء وجلاء ، والى ما ذكر أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله « من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه ابداً »

الباب الثاني

(في بيان اقسام الاخلاق وتفصيل القول فيها)

وفيهِ فصول

اجناس الفضائل الاربعة والاقوال في حقيقة العدالة — حقيقة العدالة
انقياد العقل العملي للعقل النظري ولوازم الاقوال في العدالة — العقل النظري
هو المدرك للفضائل والردائل — دفع اشكال في تقسيم الحكمة — تحقيق
الوسط والاطراف — اجناس الردائل وانواعها — الفرق بين الفضيلة
والرذيلة — العدالة اشرف الفضائل — اصلاح النفس قبل اصلاح الغير
واشرف وجوه العدالة عدالة السلطان — لا حاجة الى العدالة مع رابطة المحبة —
التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي .

فصل

احسان اجناس الفضائل الاربع والاقوال في حقيقة المدالة

قد تبين في العلم الطبيعي ان للنفس الناطقة قوتين (أولاهما) قوة الادراك (وثانيتهما) قوة التحريك ولكل منهما شعبتان (الشعبة الاولى) للاولى العقل النظري ، وهو مبدأ التأثير عن المبادئ العالية بقبول الصور العلمية ، و(الشعبة الثانية) لها العقل العملي ، وهو مبدأ تحريك البدن في الاعمال الجزئية بالروية . وهذه الشعبة من حيث تعلقها بقوتي الشهوة والغضب مبدأ « لحدوث » (١) بعض الكيفيات الموجبة لفعل أو انفعال كالخجل ، والضحك والبكاء وغير ذلك ، ومن حيث استعمالها الزعم والمتخيلة مبدأ لاستنباط الآراء والصنائع الجزئية ، ومن حيث نسبتها بالعقل وحصول الازدواج بينهما سبب لحصول الآراء الكلية المتعلقة بالاعمال كحسن الصدق وقبح الكذب ونظائرها . و(الشعبة الاولى) للثانية قوة الغضب وهي مبدأ دفع غير الملائم على وجه الغلبة ، و(الشعبة الثانية) لها قوة الشهوة وهي مبدأ جلب الملائم .

ثم اذا كانت القوة الاولى غالبة على سائر القوى ولم تتفعل عنهما ، ان كانت هي مقهورة عنهما مطيعة لها فيما تأمرها به وتنهها عنه ، تكن تصرف كل منها على وجه الاعتدال ، وانتظمت امور النشأة الانسانية ، وحصل تسالم القوى الاربع وتمازجها ، فتهذب كل واحد منها ، ويحصل له ما يخصه من الفضيلة ، فيحصل من تهذيب العاقلة العلم وتتبعه الحكمة ، ومن تهذيب العاملة العدالة ، ومن تهذيب الغضبية الحلم وتتبعه الشجاعة ، ومن تهذيب

(١) وفي النسخة المخطوطة عندنا « لاجل » .

الشهوية العفة وتتبعه السخاوة . وعلى هذا تكون العدالة كمالاً للقوة العملية
(بطريق آخر) .

قيل : ان النفس لما كانت ذات قوى اربع العاقلة والعاملة والشهوية
والغضبية ، فان كانت حركاتها على وجه الاعتدال وكانت الثلاث الاخيرة
مطبعة للاولى واقتصرت من الافعال على ما تعين لها ، حصلت أولاً فضائل
ثلاث هي الحكمة والعفة والشجاعة ، ثم يحصل من حصولها المترتب على تسلم
القوى الأربع واتقيار الثلاث تحت الأولى حالة متشابهة هي كمال القوى الأربع
وتماها ، وهي العدالة . وعلى هذا لا تكون العدالة كمالاً للقوة العملية فقط بل
تكون كمالاً للقوى بأسرها .

وعلى الطريقتين تكون أجناس الفضائل أربعاً : (الحكمة) وهي معرفة
حقائق الموجودات على ما هي عليه . والموجودات إن لم يكن وجودها بقدرتنا
واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة النظرية ، وإن كان وجودها بقدرتنا واختيارنا
فالعلم المتعلق بها هو الحكمة العملية . (والعفة) هي انقياد القوة الشهوية للعاقلة
فيما تأمرها به وتنهاها عنه حتى تكتسب الحرية وتتخلص عن أسر عبودية
الهوى . (والشجاعة) وهي اطاعة القوة الغضبية للعاقلة في الاقدام على الأمور
المائلة وعدم اضطرابها بالخوض في ما يقتضيه رأيها حتى يكون فعلها ممدوحاً
وصبرها محموداً . وتفسير هذه الفضائل الثلاث لا يتفاوت بالنظر الى الطريقتين .
وأما (العدالة) فتفسيرها على الطريق الأول هو انقياد العقل العملي للقوة
العاقلة وتبعيته لها في جميع تصرفاته أو ضبطه الغضب والشهوة تحت إشارة العقل
والشرع الذي يحكم العقل أيضاً بوجوب اطاعته ، أو سياسة قوتي الغضب
والشهوة وحملها على مقتضى الحكمة وضبطهما في الاسترسال والانقباض على
حسب مقتضاء . وإلى هذا يرجع تعريف الغزالي « انها حالة للنفس وقوة بها

يسوس الغضب والشهوة ويحملها على مقتضى الحكمة ويضبطها في الاسترسال والاعتدال على حسب مقتضاها » إذ المراد من الحالة والقوة هنا قوة الاستعلاء التي للعقل العملي لا نفس القوة العملية . وتفسيرها على الطريق الثاني هو ائتلاف جميع القوى واتفاقها على امتثالها للعاقلة ، بحيث يرتفع التخالف والتجاذب ، وتحصل لكل منها فضيلته المختصة به ، ولا ريب في أن اتفاق جميع القوى وائتلافها هو كمال لجميعها لا للقوة العملية فقط ، اللهم إلا أن يقال أن الائتلاف إنما يتحقق باستعمال كل من القوى على الوجه اللائق واستعمال كل قوة ولو كانت قوة نظرية إنما يكون من القوة العملية لأن شأنها تصريف القوى في الحال اللائقة على وجه الاعتدال ، وبدونها لا يتحقق صدور فعل عن قوة .

ثم العدالة على الطريق الأول تكون أمراً بسيطاً مستلزماً للملكات الثلاث أعني الحكمة والعفة والشجاعة ، وعلى الثاني تحتل البساطة والتركيب على الظاهر ، وإن كانت البساطة أقرب نظراً إلى أن الاعتدال الخُلقي بمنزلة الاعتدال المزاجي الحاصل من ازدواج العناصر المتخالفة ، وقد برهن في اصول الحكمة أن المزاج كيفية بسيطة . وتفصيل الكلام في المقام أنه إذا حصلت الملكات الثلاث حصل للعقل العملي قوة الاستعلاء والتدبير على جميع القوى ، بحيث كانت الجميع منقاداً له واستعمل كلاً منها على ما يقتضيه رأيه ، فإن جعلت العدالة عبارة عن نفس هذه القوة أو نفس تدبير التصرف في البدن وأمر المنزل والبلد دون الملكات الثلاث كانت العدالة بسيطة وكانت كمالاً للعقل العملي فقط ، وإن جعلت نفس الملكات كانت مركبة ، وحينئذ لا يناسب جعلها فضيلة على حدة معدودة في أعداد الفضائل ، لأن جميع الأقسام لا يكون قسماً منها وليس الائتلاف والامتزاج هيئة وحدانية عارضة للملكات الثلاث حتى تكون شيئاً على حدة ونوعاً مركباً . ثم على الطريقين يتحقق التلازم بين

العدالة والممتلكات الثلاث إلا انه على الطريق الأول تكون العدالة علة والممتلكات الثلاث معلولة وعلى الطريق الثاني ينعكس ذلك لتوقف حصول العدالة على وجود تلك الممتلكات وامتزاجها فهي أجزاء للعدالة أو بمنزلتها .

تكملة

العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري

الحق ان حقيقة العدالة هو التفسير الأول المذكور في الطريق الأول ، أعني انقياد العقل العملي للقوة العاقلة ، وسائر التفسيرات المذكورة في الطريقين لازمة له ، إذ الانقياد المذكور يلزمه اتفاق القوى وقوة الاستعلاء والسياسة للعقل العملي على قوتي الغضب والشهوة أو نفس سياسته إياهما وضبطهما تحت إشارة العقل النظري وامثال ذلك ، وعلى هذه التفسيرات اللازمة للأول يلزم ان تكون العدالة جامعة لجميع الفضائل ويتحقق معناها في كل فضيلة حتى تكون فرداً لها .

وتحقيق المقام ان انقياد العقل العملي للعاقلة يستلزم ضبط قوتي الغضب والشهوة تحت إشارة العقل وسياسته إياهما واستعلائه عليهما ، وهذا يستلزم اتفاق جميع القوى وامتزاجها ، فجميع الفضائل الصادرة عن قوتي الغضب والشهوة ، بل عن العاقلة ايضاً ، إنما تكون بتوسط العقل العملي وضبطه إياها ، الا ان ذلك لا يوجب كونها كلاً له حتى يعد من فضائله . ووجه ظاهر ، ولا كون الضبط المذكور عدالة .

فالحق ان حقيقة العدالة هو مجرد انقياد العاقلة للعقل ، ومثل الضبط والاستعلاء والسياسة من لوازمه ، والفضائل الصادرة عن القوى الأخرى

بتوسط العقل العملي إنما تندرج تحت لازم العدالة ، لا عينها ، فمن ادرج جميع الفضائل تحت العدالة نظره الى اعتبار ما يلزمها ، ومن لم يدرجه تحتها نظره الى عدم اعتباره ، وعلى هذا لا بأس بأن يقال إن للعدالة اطلاقين (احدهما) العدالة بالمعنى الاخص (وثانيها) العدالة بالمعنى الأعم .

نم ان القوم ذكروا لكل واحد من الفضائل الأربع أنواعاً ، فكما ادرجوا تحت كل من الحكمة والعفة والشجاعة أنواعاً ، فكذا ادرجوا تحت العدالة ايضاً أنواعاً كالوفاء والصداقة والعبادة وغيرها ، وأنت بعدما علمت ان العدالة بالتفسير الأول هو انقياد العاملة للعاقلة في استعمال نفس العاقلة وقوى الغضب والشهوة ، تعلم ان الفضائل بأسرها ، إنما تحصل باستعمال العاملة القوي الثلاث ، فكل فضيلة إنما تتعلق حقيقتها باحدى الثلاث ، وان كان حصولها بتوسط العاملة وضبطها الثلاث ، إذ كون الاستعمال والضبط منها لا يقتضي استناد ما يحصل من الفضائل باستعمالها اليها مع صدورها حقيقة عن سائر القوى ، وكذا لا يقتضي استناد ما يحصل من الرذائل لعدم انقيادها للعاقلة اليها . ومعلوم انه لا يترتب على مجرد انقيادها أو عدمه لها فضائل ورذائل لم يكن لها تعلق بالثلاث أصلاً ، إذ كل فضيلة ورذيلة أما متعلق بالقوة العقلية أو بقوى الغضب والشهوة بتوسط العاملة ، وليس لها في نفسها فضيلة ورذيلة على حدة كما لا يخفى ، مع أنه لو كان الاستعمال والضبط منشأ لاستناد ما يحصل من الفضائل اليها لزم ان يستند اليها جميع الفضائل ، فكان اللازم ادخال جميع الفضائل تحت العدالة ، وكذا الحال على تفسير العدالة بالطريق الثاني كما ظهر . وعلى هذا فيلزم من عدم بعض الفضائل من انواع العدالة دون بعض آخر تخصيص بلا مخصص فالفضائل التي جعلوها أنواعاً مندرجة تحت العدالة بعضها من انواع الشجاعة أو لوازمها وبعضها من انواع العفة أو آثارها ، وان كان العاملة من حيث التوسط مدخلة

في حصول الجميع ، فنحن لا نتابع القوم وبحري على مقتضى النظر من جعل
انواع الفضائل والرذائل واصنافها ونتاجها متعلقة بالقوى الثلاث دون العقل
العملي ، وادخال جميعها تحت اجناسها على ما ينبغي من دون ادخال شيء منها
تحت العدالة وضدها .

ثم ان الرذائل والفضائل مع مدلية القوة العملية فيها بالاستعمال ، اما
متعلقة بمجرد احدى القوى الثلاث ، او باثنتين منها ، او بالثلاث ، ومثال
المتعلق باحدها ظاهر كالجهل والعلم المتعلقين بالعاقلة والغضب والحلم المتعلقين
بالقوة الغضبية والحرص والقناعة المتعلقين بالقوة الشهوية ، واما ما يتعلق باثنتين
منها او الثلاث ، فاما ان يكون له اصناف يتعلق بعضها ببعض وبعضها ببعض
آخر كحب الجاه أعني طلب المنزلة في القلوب فانه ان كان المقصود منه الاستيلاء
على الخلق والتفوق عليهم ، كان من رذائل قوة الغضب ، وان كان المقصود منه
طلب المال ليتوسل به إلى شهوة البطن والفرج كان من رذائل قوة الشهوة ، وكذا
الحسد أعني تمني زوال النعمة عن الغير ، ان كان باعثة العداوة كان من رذائل
القوة الغضبية ، وان كان باعثة مجرد وصول النعمة إليه كان من رذائل القوة
الشهوية ، أو يكون للثلاث أو اثنتين مدخلية بالاشتراك في نوع الفضيلة والرذيلة
او بعض اصنافها ، كالحسد الذي باعثة العداوة وتوقع وصول النعمة إليه معاً ،
وكالغرور وهو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل النفس اليه بخدعة من
الشیطان ، فان النفس ان كانت مائلة بالطبع الى شيء من مقتضيات الشهوة
واعتقدت جهلاً كونه خيراً لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والشهوة ، وان
كانت مائلة الى شيء من مقتضيات قوة الغضب واعتقدت جهلاً كونه خيراً لها
كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والغضب ، وان كانت مائلة الى شيء من
مقتضياتها مع اعتقادها كونه خيراً لها كان من رذائل الثلاث معاً .

ثم مرادنا من تعلق صفة بالقوى المتعددة وكونها معدودة من رذائلها أو فضائلها ان يكون لكل منها تأثير في حدوثها وإيجادها ، أي يكون من جملة عللها الفاعلة الموجدة ، بحيث لو قطع النظر عن فعل واحدة منها لم تتحقق هذه الصفة ، فان الغرور يتحقق بالليل والاعتقاد بمعنى ان كلاً منهما مؤثر في إيجاده وأحداثه ولولم يكن الاعتقاد المتعلق بالعاقلة والليل المتعلق بالشهوة والغضب لم يوجد غروراً فلو كانت مدخلة قوة في صفة ، بمجرد الباعثية ، أي كانت باعثة لقوة أخرى على إيجاد هذه الصفة وأحداثها ، بحيث أمكن تحقق هذه الصفة مع قطع النظر عن هذه القوة بباعث آخر لم يكن متعلقة بها ، ولم نعدّها من رذائلها أو فضائلها ، بل كانت متعلقة بالقوة الأخرى التي هي مباشرة لأحداثها وإيجادها ، مثل الغضب الحاصل من فقد شيء من مقتضيات شهوة البطن والفرج وان كان باعثة قوة الشهوة إلا انه ليس لقوة الشهوة وفعلها شركة في أحداثه وإيجاده ، بل الأحداث إنما هو من القوة الغضبية ، ومدخلته الشهوية إنما هو بتحرّيكها وتهيجها الغضبية للأحداث والإيجاد ، ولا ريب في ان للعاقلة هذه الباعثية في صدور أكثر الصفات مع عدم عدّها من رذائلها أو « فضائلها » (١) .

وإذا عرفت ذلك فاعلم انا نذكر أولاً ما يتعلق بالعاقلة من الرذائل والفضائل ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية منها ثم ما يتعلق بالشهوية منها ثم ما يتعلق بها أو الثلاث .

وصل

العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل

اعلم ان كل واحد من العقل العملي والعقل النظري رئيس مطلق من

(١) لم توجد في نسخة الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة .

وجه ، اما « الأول » فمن حيث ان استعمال جميع القوى حتى العاقلة على النحو
الأصلح موكول اليه ، واما « الثاني » فمن حيث ان السعادة القصوى وغاية
الغايات أعني التحلي بمقتضى الموجودات مستند اليه ، وايضاً ادراك ما هو الخير
والصلاح من شأنه فهو المرشد والدليل للعقل العملي في تصرفاته . وقيل إن
ادراك فضائل الأعمال وردائلها من شأن العقل العملي ، كما صرح به الشيخ في
الشفاء بقوله : « ان كمال العقل العملي استنباط الآراء الكلية في الفضائل والردائل
من الأعمال على وجه البناء على المشهورات المطابقة في الواقع للبرهان ، وتحقيق
ذلك البرهان متعلق بكمال القوة النظرية والحق ان مطلق الادراك والارشاد إنما
هو من العقل النظري فهو بمنزلة المشير الناصح والعقل العملي بمنزلة المنفذ الممضي
لاشاراته وما ينفذ فيه الاشارة فهو قوة الغضب والشهوة .

دفع الاستطال

في تقسيم الحكمة

ان قيل إن القوم قسموا الحكمة اولاً الى النظرية والعملية ، ثم قسموا
العملية الى ثلاثة أقسام ، واحد منها علم الاخلاق المشتمل على الفضائل الأربع
التي احداها الحكمة ، فيلزم ان تكون الحكمة قسماً من نفسها .
قلنا الحكمة التي هي المقسم هو العلم بأعيان الموجودات ، سواء كانت
لموجودات إلهية أي واقعة بقدره الباري سبحانه ، أو موجودات انسانية أي
واقعة بقدرتنا واختيارنا ، ولما كان هذا العلم أعني الحكمة التي هي المقسم قسماً
من الموجودات بالمعنى الثاني ، فلا بأس بالبحث عنه في علم الاخلاق ، فان غاية
ما يلزم ان تكون الحكمة موضوعاً لمادة هي جزؤها أن يجعل عنواناً فيها

ويحمل عليها كونها ملكة محمودة أو طريق اكتسابها كذا ، وبالجمله لآمانع من ان يجعل علم يبحث فيه عن احوال الموجودات موضوعاً لمسألة ويبحث عنه فيه باثبات صفة له لأجل انه ايضاً من الموجودات ، كما انه في العلم الأعلى الذي يبحث فيه عن الموجودات من حيث وجودها ، يبحث عن نفس العلم ، لكونه من الموجودات ، ويجعل موضوعاً لمسألة من مسائله ، ولا يلزم من هذا كون الشيء جزءاً لنفسه . وايضاً نقول كما ان الحكمة العملية قسم من مطلق الحكمة لتعلق العمل بالنظر فكذا المطلق قسم منها لتعلق النظر بالعمل ، وحينئذ كما ان العدالة من الحكمة باعتبار فكذا الحكمة من العدالة باعتبار آخر ، فتختلف الحيثية ولا يلزم محذور .

وقيل في الجواب ان المراد من الحكمة التي هي احدى الفضائل الأربع استعمال العقل على الوجه الاصلح ، وحينئذ فلا يرد اشكال أصلاً لعدم كون الحكمة بهذا المعنى عين المقسم لأنها جزء له . وفيه ان الحكمة بهذا المعنى هي العدالة على ما تقرر مع ان العدالة ايضاً احدى الفضائل الأربع .

(تنبيه) قد صرح علماء الأخلاق بأن صاحب الفضائل الأربع لا يستحق المدح ما لم تتعد فضائلها الى الغير ، ولذا لا يسمى صاحب ملكة السخاء بدون البذل سخياً بل منافقاً ، ولا صاحب ملكة الشجاعة بدون ظهور آثارها شجاعاً بل غيوراً ، ولا صاحب ملكة الحكمة بدونها حكيماً بل مستبصراً ، والظاهر ان المراد باستحقاق المدح هو حكم العقل بوجوب المدح ، فان من تعدى أثره يرجى نفعه ويخاف ضرره فيحكم العقل بلزوم مدحه جلباً للنفع او دفعاً للضرر ، وامام لا يرجى خيره وشره فلا يحكم العقل بوجوب مدحه وان بلغ في الكمال ما بلغ .

فصل

تحقيق الوسط والأطراف

لا ريب في أنه بأزاء كل فضيلة رذيلة هي ضدّها ، ولما عرفت ان اجناس الفضائل اربعة فأجناس الرذائل ايضاً في بادىء النظر اربعة : الجهل ، وهو ضد الحكمة ، والجبن ، وهو ضد الشجاعة ، والشره وهو ضد العفة ، والجور ، وهو ضد العدالة . وعند التحقيق يظهر ان لكل فضيلة حداً معيناً والتجاوز عنه بالافراط أو التفريط يؤدي الى الرذيلة ، فالفضائل بمنزلة الأوساط ، والرذائل بمثابة الأطراف ، والوسط واحد معين لا يقبل التعدد ، والأطراف غير متناهية عدداً . فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة ، والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز الى المحيط ، فان المركز نقطة معينة ، مع كونه أبعد النقاط عن المحيط ، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير متناهية ، مع ان كلاً منها أقرب منه من طرف اليه فعلى هذا يكون بأزاء كل فضيلة رذائل غير متناهية ، لأن الوسط محدود معين ، والأطراف غير محدودة ، وتكون الفضيلة في غاية البعد عن الرذيلة التي هي نهاية الرذائل ، ويكون كل منها اقرب منها الى النهاية (١) وبمجرد الانحراف عن الفضيلة من أيّ طرف اتفق يوجب الوقوع في رذيلة . والثبات على الفضيلة والاستقامة في سلوك طريقها بمنزلة الحركة على الخط المستقيم ، وارتكاب الرذيلة كالانحراف عنه ، ولا ريب في ان الخط المستقيم هو أقصر الخطوط الواصلة بين النقطتين ، وهو لا يكون إلا واحداً ، واما الخطوط المنحنية بينهما فغير متناهية ، فالاستقامة في طريق الفضيلة وملازمتها على نهج واحد ، والانحراف عنه تكون

(١) أي ان كلاً من الرذائل اقرب من الفضيلة الى النهاية .

له مناهج غير متناهية ، ولذلك غلبت دواعي الشر على بواعث الخير .
ويظهر مما ذكر أن وجدان الوسط الحقيقي صعب ، والثبات عليه بعد
الوجدان أصعب لأن الاستقامة على جادة الاعتدال في غاية الاشكال ، وهذا
معنى قول الحكماء « اصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ولزوم
الصوب (١) بعد ذلك حتى لا يخطيها أعسر » ولذلك لمّا أمرَ فخر الرسل
بالاستقامة في قوله تعالى « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » (٢) قال شَيْبَتْنِي سورة هود
عليه السلام ، إذ وجد أن الوسط الحقيقي فيما بين الأطراف الغير المتناهية المتقابلة
مشكل والثبات عليه بعد الوجدان اشكل .

وقال (المحقق الطوسي) وجماعة « إنَّ ما ورد في اشارات النواميس من
انَّ الصراط المستقيم أدق من الشعر وأحد من السيف اشارة الى هذا المعنى »
وغير خفي بأن هذا التأويل جرأة على الشريعة القويمة وهتك لأستار السنة
الكريمة والواجب الاذعان بظاهر ما ورد من امور الآخرة . نعم يمكن ان يقال
كما مرّ : إنَّ الامور الاخرية التي حصل بها الوعد والوعيد كلها امور محققة
ثابتة على ما أخبر به ، الا انها صور للأخلاق والصفات المكتسبة في هذه
النشأة قد ظهرت بتلك الصور في دار العقبي بحسب المرتبة ، إذ ظهورات الاشياء
مختلفة بحسب اختلاف المراتب والنشآت فواد ما يؤذي ويريح من الصور في
موطن المعاد انما هو الاخلاق والنيات المكتسبة في هذه النشأة . وهذا المذهب
مما استقر عليه آراء اساطين الحكمة والعرفان ، وذكرنا الظواهر الدالة عليه من
الآيات والახبار ، واشرنا الى حقيقة الحال فيه ، وعلى هذا فالصراط المستقيم
المدود كالجسر على الجحيم صورة لتوسط الاخلاق والجحيم صورة لأطرافها ،

(١) الصوب : يقال فلان مستقيم الصوب اذا لم يزعج عن قصده يميناً وحملا .

(٢) سورة هود الآية ١١٤ .

فمن ثبت قدمه على الوسط هنا لم يزل عن الصراط هناك ووصل الى الجنة التي وعدها الله المتقين ، ومن مال الى الأطراف هنا سقط هناك في جهنم التي احاطت بالكافرين .

ثم الوسط اما حقيقي ، وهو ما تكون نسبته الى الطرفين على السواء ، كالاربعة بالنسبة الى الاثنتين والسته ، وهذا كالمعتدل الحقيقي الذي انكر الأطباء وجوده ، أو اضافي وهو اقرب ما يمكن تحقيقه للنوع أو الشخص الى الحقيقي ، ويتحقق به كالمها « اللائق بحالها » (١) وان لم يصل اليه ، فالتسمية بالوسط إنما هو بالنسبة الى الأطراف التي هي أبعد من الحقيقي بالاضافة اليه وهذا كالاعتدالات النوعية والشخصية التي اثبتها الأطباء ، فان المراد منها الاعتدالات التي يمكن تحقيقها للأنواع والأشخاص ، وهو القدر الذي يليق بكل نوع أو شخص أن يكون عليه ، وان لم يكن اعتدالاً حقيقياً بمعنى تساوي الأجزاء البسيطة العنصرية وتكافؤها في القوة والأقربية الى الحقيقي بالنسبة الى سائر الأطراف سمي اضافياً .

ثم الوسط المعتبر هنا هو الاضافي لتعذر وجدان الحقيقي والثبات عليه ، ولذا تختلف الفضيلة باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان ، فربما كانت مرتبة من الوسط الاضافي فضيلة بالنظر الى شخص أو حال أو وقت ، ودرجة بالنسبة الى غيره . وتوضيح الكلام انه لا ريب في ان الوسط الحقيقي في الأخلاق لكونه في حكم نقطة غير منقسمة لا يمكن وجدانه ولا الثبات عليه ، ولذا ترى من هو متصف بفضيلة من الفضائل لا يمكن الحكم بكون تلك الفضيلة « هي الوسط الحقيقي ، إلا انه لما كانت تلك الفضيلة » (٢) قريبة اليه ولا يمكن

(١) غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى في المطبوعة

(٢) هذه العبارة بهما لم توجد في نسختنا الخطية .

وجود الأقرب منها إليه ، يحكم بكونها وسطاً إضافياً لأقربيتها إليه بالنسبة إلى سائر المراتب فالاعتدال الإضافي له عرض ، وسطه الاعتدال الحقيقي ، وطرفاه طرفا الإفراط والتفريط ، إلا أنه ما لم يخرج عن هذين الطرفين يكون اعتدالاً إضافياً ، وكلما كان أقرب إلى الحقيقي كان أكمل وأقوى ، وإذا خرج عنهما دخل في الرذيلة .

لا يقل على هذا ينبغي أن يكون الاعتدال الطبي في المزاج أيضاً كذلك أي له عرض وسطه الاعتدال الحقيقي وطرفاه خارجان عن الاعتدال الطبي ، حتى أنه كلما قرب إلى الحقيقي صار الطبي أقوى وأكمل ، مع أنه ليس الأمر كذلك ، إذ القياس يقتضي الخروج عن الاعتدال الطبي أو ضعفه لقربه إلى الحقيقي . (بيان ذلك) أن الاعتدال الحقيقي في المزاج أن تكون أجزاء العناصر متكافئة القوة ، والاعتدال الطبي في نوع الإنسان أو شخص من اشخاصه أن تكون الأجزاء الحارة مثلاً من عشرة إلى اثني عشر والباردة من ثمانية إلى تسعة واليابسة من سبعة إلى ثمانية والرطبة من ستة إلى سبعة ، فإذا كانت الأجزاء الحارة ستة والباردة خمسة واليابسة أربعة والرطبة ثلاثة كانت خارجة عن الاعتدال الطبي ، مع صيرورته أقرب إلى الحقيقي ، بل إذا فرضت تكافؤ أجزاء العناصر الأربعة حتى حصل نفس الاعتدال الحقيقي خرجت أيضاً عنه ، فلا يكون الحقيقي وسط الطبي حتى أنه كلما يصير إليه أقرب يكون أقوى وأكمل ...

لأننا نقول نحن لا ندعي أن الحقيقي وسط الطبي بل هو أمر مغاير له ، والحقيقي في طرفه الخارج فإن له طرفين : « أحدهما » أن تصير الأجزاء أقرب في التساوي مما كان للطبي إلى أن يبلغ إلى الحقيقي ، « والثاني » أن يصير أبعد فيه مما كان له إلى غير النهاية ، إلا أن بعض مراتب الطرفين التي منها الاعتدال الحقيقي غير ممكن الوقوع فتأمل .

فان قيل ان الوسط المعتبر هنا ان كان اضافياً ، لكان له عرض كعرض المزاج ، فلا يناسب وصفه بالحدة والدقة ، قلنا كما في عرض المزاج مرتبة هي أفضل المراتب وأقربها الى الاعتدال الحقيقي كذلك في عرض الوسط الملكات مرتبة هي أفضل المراتب وأقربها الى الحقيقي ، وهي المطلوبة بالذات ، ولا ريب في ان خصوص هذه المرتبة ليس لها عرض وسعة ، فلا بأس بوصفها بالدقة والحدة ، وأما سائر المراتب المعدودة من الوسط وإن لم تكن خالية عن شوائب الافراط والتفريط ، إلا انه لما كان لها قرب محدود الى المرتبة المطلوبة بحيث يصدق معه كون النوع أو الشخص باقياً على كماله اللائق به عدت من الأوساط والفضائل ، كما ان غير الأقرب الى الاعتدال الحقيقي من مراتب عرض المزاج يعد من الاعتدال ، لكون النوع أو الشخص معه باقياً محفوظاً ، بحيث لا يظهر خلل بين في أفعاله وإن لم يخل عن الانحراف ، ولو وصف هذه المراتب ايضاً بالحدة والدقة مع سعتها فوجهه ان وجدانها والثبات عليها لا يخلو ايضاً من صعوبة .

فصل

اجتناس الرذائل وأنواعها

قد ظهر مما ذكر انه بأزاء كل فضيلة رذائل غير متناهية من طرفي الافراط والتفريط ، وليس لكل منها اسم معين ولا يمكن عد الجميع وليس على صاحب الصناعة حصر مثلها ، لأن وظيفته بيان الاصول والقوانين الكلية ، لا احصاء الأعداد الجزئية .

والقانون اللازم بيانه هو ان الانحراف عن الوسط إما الى طرف الافراط أو الى طرف التفريط ، فيكون بأزاء كل فضيلة جنسان من الرذيلة ، ولما كانت

أجناس الفضائل اربعة فتكون أجناس الرذائل ثمانية (اثنان) بازاء الحكمة « الجريزة والبله » : (والأول) في طرف الافراط وهو استعمال الفكر في ما لا ينبغي أو في الزائد عما ينبغي (والثاني) في طرف التفريط وهو تعطيل القوة الفكرية وعدم استعمالها في ما ينبغي أو في أقل منه ، والأولى أن يعتبر عنهما (بالسفسطة) أي الحكمة المموهة ، و (الجهل) أي البسيط منه ، لأن حقيقة الحكمة هو العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه وهو موقوف على اعتدال القوة العاقلة ، فإذا حصلت له حدة خارجة عن الاعتدال يخرج عن الحد اللائق ويستخرج اموراً دقيقة غير مطابقة للواقع ، والعلم بهذه الامور هو ضد الحكمة من طرف الافراط . وإذا حصلت لها بلادة لا ينتقل الى شيء ، فلا يحصل لها العلم بالحقائق وهذا هو الجهل وهو ضد من طرف التفريط (واثنان) بازاء الشجاعة (التهور والجبين) : (الأول) في طرف الافراط وهو الاقدام على ما ينبغي الحذر عنه ، (والثاني) في طرف التفريط وهو الحذر عما ينبغي الاقدام عليه . (واثنان) بازاء العفة وهما « الشره والجود » : (والأول) في طرف الافراط وهو الانهماك في اللذات الشهوية على ما لا يحسن شرعاً وعقلاً ، (والثاني) في طرف التفريط وهو سكون النفس عن طلب ما هو ضروري للبدن . « واثنان » بازاء العدالة وهما (الظلم والانظلام) : (والأول) في طرف الافراط وهو التصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون حق (والثاني) في طرف التفريط وهو تمكين الظالم من الظلم عليه وانقياده له فيما يريد من الجبر والتعدي على سبيل المذلة هكذا قيل .

والحق ان العدالة مع ملاحظة ما لا ينفك عنها من لازمها ، لها طرف واحد يسمى جوراً وظلماً وهو يشمل جميع ذمائم الصفات ولا يختص بالتصرف في حقوق الناس واموالهم بدون جهة شرعية ، لأن العدالة بهذا المعنى كما عرفت عبارة عن ضبط العقل العملي بجميع القوى تحت إشارة العقل النظري فهو جامع

للكلمات بأسرها ، فالظلم الذي هو مقابله جامع للنقائص بأسرها ، إذ حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهو يتناول جميع ذمائم الصفات والأفعال ، فتمكن الظالم من ظلمه لما كان صفة ذميمة يكون ظلماً ، على أن من مكّن الظالم من الظلم عليه وانتقاد له ذلّة ، فقد ظلم نفسه ، والظلم على النفس ايضاً من أقسام الظلم . هذا هو بيان الطرفين لكل من الاجناس الاربعة للفضيلة .

ثم لكل واحد من اجناس الرذائل والفضائل انواع ولوازم من الاخلاق والأفعال ذكرها علماء الاخلاق في كتبهم ، وقد ذكروا للعدالة ايضاً انواعاً ، وقد عرفت فيما تقدم ان تخصيص بعض الصفات بالاندراج تحتها مما لا وجه له ، إذ جميع الرذائل والفضائل لا يخرج عن التعلق بالقوى الثلاث ، أعني العاقلة والفضيية والشهوية ، وإن كان للقوة العملية مدخيلة في الجميع من حيث المتوسط ، فنحن ندخل الجميع تحت أجناس القوى الثلاث من غير اندراج شيء منها تحت العدالة ، وقد عرفت ان بعضها متعلق بالعاقلة فقط وبعضها بالقوة الفضائية فقط وبعضها بالشهوية فقط وبعضها بالاثنتين منها أو الثلاث معاً ، فنحن نذكر ذلك في مقامات اربع .

ولمزيد الاحاطة نشير هنا إجمالاً الى اسماء الاجناس والأنواع واللوازم التي لكل جنس ، ونذكر أولاً ما يتعلق بالعاقلة ثم ما يتعلق بالفضيية ثم ما يتعلق بالشهوية ثم ما يتعلق بالثلاث أو الاثنتين منها ، ونذكر أولاً الرذيلة ، ثم نشير الى ضدها من الفضيلة ان كان له اسم ، ثم في باب المعالجات نذكر معالجة كل رذيلة من الاجناس والأنواع والنتائج ونذيلها بذكر ضدها من الفضيلة ، ونذكر أولاً جنسي الرذيلة لكل قوة ونذيلها بضدها الذي هو جنس فضيلتها ، ثم نذكر الانواع والنتائج على النحو المذكور ، أي نذكر أولاً الرذيلة بأحكامها « ومعالجاتها » (١) ،

(١) هذه الكلمة موجودة في نسختنا الخطية .

ثم نشير الى ضدها وما ورد في مدحه ترغيباً للطالبيين على اخذه والاجتناب عن ضده ، ولذلك لم تنابع القوم في التفريق بين الرذائل والفضائل وذكر كل منهما على حدة .

ثم بيان الأنواع واللوازم على ما ذكر ا كثره القوم لا يخلو عن الاختلال إما في التعريف والتفسير أو في الفرق والتمييز أو في الادخال تحت ما جعلوه نوعاً له أو غيره ذلك من وجوه الاختلال ، فنحن لا نتبعهم في ذلك ، ونبيتها ادخالاً وتمييزاً وتعريفاً على ما يقتضيه النظر الصحيح ، فنقول :

أما جنس الرذيلة للقوة العقلية ، « فاولهما » (الجريزة والسفسطة) وهي من طرف الافراط ، و « ثانيهما » (الجهل البسيط) وهو من طرف التفريط وضدها (العلم والحكمة) ، واما الأنواع واللوازم المترتبة عليهما فمنها « الجهل المركب » وهو من باب رداءة الكيفية ، ومنها (الحيرة والشك) وهو من طرف الافراط على ما قيل ، وضد الجهل المركب ادراك ما هو الحق أو زوال العلم بأنه يعلم ، وضد الحيرة الجزم باحدى الطرفين . وبذلك يظهر ان اليقين ضد لكل منهما ، لأنه اعتقاد جازم مطابق للواقع ، فن حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضداً للحيرة ، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع يكون ضداً للجهل المركب ، ومنشأ حصول اليقين هو استقامة الذهن وصفاءه مع مراعاة شرائط الاستدلال ، ومنشأ الجهل المركب اعوجاج الذهن أو حصول الخطأ في الاستدلال أو وجود مانع من افاضة الحق كعصبية أو تقليد أو أمثال ذلك ، ومنشأ الحيرة هو قصور الذهن وكدرته ، أو الاتهاب الموجب للتجاوز عن المطلوب أو عدم الاحاطة بمقدماته ، ومنها « الشرك » وضده التوحيد ، ومنها « الوسوس » النفسانية والخواطر الباطلة الشيطانية ، وهذا أيضاً من باب رداءة الكيفية ، وكان الظاهر ان بعد ذلك من رذائل قوتي الوهم والمتخيلة دون العاقلة ، اذ الغالب انها لا تنفك

عن الاختلال فيهما ، إلا انك قد عرفت العذر في ذلك ، وضدها الخواطر المحمودة التي من جملتها الفكر في بدائع صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته ، ومنها (استنباط المكر والحيلة) للوصول الى مقتضيات الشهوة والغضب ، وهو من طرف الافراط .

وأما جنسا الرذائل للقوة الغضبية ، فاولهما (التهور) وثانيهما (الجبين) وقد عرفت ان ضدها من الفضيلة (الشجاعة) وأما الأنواع والاوزام والنتائج المترتبة عليها ، فمنها (الخوف) وهو هيئة نفسانية مؤذية تحدث من توقع مكروه أو زوال مرغوب ، وهو مذموم إلا ما كان لأجل المعصية والخيانة أو من الله وعظمته . والمذموم من رذائل تلك القوة ومن نتائج الجبن وضده الأمن والطمانينة ، والمدح من فضائلها لكونه مقتضى العقل وضده الأمن من مكر الله ، وهو أي المدح من الخوف يلزم الرجاء وضده اليأس ، ومنها (صغر النفس) ، أي ملكة العجز عن تحمل الواردات وهو من نتائج الجبن ، وضده كبر النفس أي ملكة التحمل لما يرد عليه كائناً ما كان ، ومن جملة التحمل التحمل على الخوض في الأهوال وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ويسمى (بالثبات) فهو أخص من كبر النفس وضده الاضطراب في الأهوال والشدائد ومن جملة الثبات الثبات في الايمان ، ومنها (دناءة الهمة) وهو القصور عن طلب معالي الأمور وهو من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وضده (علو الهمة) الذي هو من لوازم كبر النفس وشجاعتها ، أي السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب الأمور العالية من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها ، ومن أفراد علو الهمة الشهامة ويأتي تفديرها ، ومنها (عدم الغيرة والحمية) أي الإهمال في محافظة ما يلزم حفظه ، وهو أيضاً من نتائج صغر النفس وضعفها وضده ظاهراً ، ومنها « العجلة » وهو المعنى الرابع (١) في القلب باعث على الاقدام على الأمور بأدنى خاطر

من دون توقف فيه وهو أيضاً من نتائج صغر النفس وضعفها والاتناء والتأني .
و (التعسف) قريب من العجلة ، وضده أعني (التوقف) قريب من الاتناء ،
ويأتي الفرق بينهما ، والوقار يتناول التأني والتوقف ، وهو اطمئنان النفس
وسكونها عند الحركات والأفعال في الابتداء والاثناء ، وهو من لوازم كبر
النفس وشجاعته ، ومنها (سوء الظن بالله تعالى وبالؤمنين) وهو من لوازم الجبن
وضعف النفس ، وربما كان من باب رداءة الكيفية ، فضده أعني حسن الظن بها
من آثار الشجاعة وكبر النفس ، ومنها (الغضب) وهو حركة نفسانية يوجب
حركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة وهو من باب الافراط وضده الحلم ،
ومنها (الانتقام) وهو من نتائج الغضب وضده العفو ، ومنها (العنف) وهو
ايضاً من نتائج الغضب وضده الرفق ، ومنها (سوء الخلق) بالمعنى الأخص وهو
ايضاً من نتائجه وضده (حسن الخلق) بالمعنى الأخص ، ومنها (الحقد) وهو
العداوة الكامنة ، أي ارادة الشر وقصد زوال الخير من المسلم ، وهو ايضاً من
ثمرات الغضب ، ومنها (العداوة) الظاهرة ، وضدها (النصيحة) أي ارادة الخير
والصلاح ودفع الشر والفساد عن كل مسلم ، ثم للغضب والحقد لوازم هي الضرب
والفحش واللعن والطعن ، ومنها (العجب) وهو استعظام النفس وضده انكسارها
واستحقارها (١) ، ومنها (الكبر) وهو التعظيم الموجب لرؤية النفس فوق الغير
وضده (التواضع) وهو ان لا يرى لنفسه منزلة على الغير ، ومنها (الافتخار)
وهو المباهاة بما يظنه كلاً وهو من شعب الكبر ، ومنها (البغي) وهو عدم
الانقياد لمن يجب أن ينقاد وهو ايضاً من شعب الكبر ، وضده (التسليم)
والانقياد لمن يجب الانقياد اليه واداعته ، وقد يفسر بمطلق العلو والاستطالة (٢)

(١) من كلمة منها الى قوله واستحقارها بتمام العبارة لم توجد في نسختنا
الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى .

(٢) من كلمة منها الى قوله والاستطالة بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية
لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى .

ومنها (تزكية النفس) وضده الاعتراف بنقائصها، ومنها (العصية) وهي الحماية عن نفسه وعما ينتسب اليه بالباطل والخروج عن الحق، ومنها (كتمان الحق) وضدها الانصاف والاستقامة على الحق، ومنها (القساوة) وهو عدم التأثر عن مشاهدة تألم ابناء النوع، وضدها الرحمة .

وأما جنسا الرذائل المتعلقة بالقوة الشهوية فاحدها (الشره) وثانيهما (الحمود) وضدها (العفة) وأما الأنواع والنتائج واللوازم المتعلقة بها، فمنها (حب الدنيا)، ومنها (حب المال) وضدها الزهد، ومنها (الغنى) وضده الفقر، ومنها (الحرص) وضده القناعة، ومنها (الطمع) وضده الاستغناء عن الناس، ومنها (البخل) وضده السخاء وتندرج تحته وجوه الانفاقات بأسرها ومنها (طلب الحرام) وعدم الاجتناب عنه، وضده الورع والتقوى بالمعنى الخاص، ومنها (الغدر والخيانة) وضدها الأمانة، ومنها (أنواع الفجور) من الزنا واللواط وشرب الخمر والاشتغال بالملاهي وامثالها، ومنها (الخوض في الباطل) ومنها (التكلم بما لا يعنى وبالفضول)، وضدها الترك والصمت أو بالتكلم بما يعنى بقدر الضرورة .

وأما الرذائل والفضائل المتعلقة بالقوى الثلاث او باثنتين منها، فمنها (الحسد) وضده النصيحة، ومنها (الايذاء والاهانة والاحتقار) وضدها كف الأذى والاكرام والتعظيم، والايذاء قريب من الظلم بالمعنى الأخص أو أعم منه، وضد الظلم بالمعنى الأخص العدالة بالمعنى الأخص، ومنها (اخافة المسلم وادخال الكرب في قلبه) وضدها ازالة الخوف والكرب عنه، ومنها (ترك اعانة المسلمين) وضده قضاء حوائجهم، ومنها (المداهنة) في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضده السعي فيهما، ومنها (الهجرة والتباعد عن الاخوان)

وضده التآلف والتزاور ، ومنها (قطع الرحم) وضده الصلة ، ومنها (عقوق
الوالدين) وضده البر اليها ، ومنها (تجسس العيوب) وضده الستر ، ومنها
(افشاء السر) وضده الكتمان ، ومنها (الافساد بين الناس) وضده الاصلاح
بينهم ، ومنها (الشماتة بمسلم) ، ومنها (المراء والجدال والخصومة) وضدها طيب
الكلام ، ومنها (السخرية والاستهزاء) وضدها المزاح ، ومنها (الغيبة) وضدها
المدح ودفع الذم ، ومنها (الكذب) وضده الصدق ، ولجميع آفات اللسان
مما له ضد خاص ومما ليس له ضد بخصوصه ضيد عام هو الصمت ، ومنها (حب
الجاه والشهرة) وضده حب الخمول ، ومنها « حب المدح وكراهة الذم » وضده
مساواتها ، ومنها « الريا » وضده الاخلاص ، ومنها « النفاق » وضده استواء
السر والعلانية ، ومنها « الغرور » وضده الفطانة والعلم والزهد ، ومنها « طول
الامل » وضده قصره ، ومنها « مطلق العصيان » وضده الورع والتقوى بالمعنى
الاعم ، ومنها « الوقاحة » وضده الحياء ، ومنها « الاصرار على المعصية » وضده
التوبة وأقصى مراتبها الانابة والمحاسبة ، والمراقبة قربية من التوبة في ضديتها
للاصرار ، ومنها « الغفلة » وضدها النية والارادة ، ومنها « عدم الرغبة » وضده
الشوق ، ومنها « الكراهة » وضده الحب ، ومنها « الجفاء » وضده الوفاء وهو من
تمام الحب ، ومنها « البعد » وضده الانس ومن لوازمه حب الخلوة والعزلة ،
ومنها « السخط » وضده الرضا ، وقريب منه التسليم ويسمى تفويضاً بل هو
فوق الرضا كما يأتي ، ومنها « الحزن » وضده السرور ، ومنها « ضعف الوثوق »
والاعتماد على الله وضده التوكل ، ومنها « الكفران » وضده الشكر ، ومنها
« الجزع والهلع » وضده الصبر ، ومنها « الفسق » وهو الخروج عن طاعة الله
وعبادته وضده الطاعة والعبادة وتندرج تحتهما « العبادات الموظفة في الشرع » (١)

(١) هذه العبارة بتمامها غير موجودة في نسختنا الخطية .

من الطهارة والصلاة والذكر وتلاوة القرآن والزكاة والحس والصوم والحج والزيارات ، ونحن نذكر الزكاة والحس في وجوه الانفاق ، وما سواها في العبادات .

(تنبيه) اعلم ان احصاء الفضائل والرذائل وضبطهما وادخال البعض في البعض والاشارة الى القوة الموجبة لها على ما فصلناه ، مما لم يتعرض له علماء الاخلاق ، بل انما تعرضوا لبعضها ، ويظهر من كلامهم في بعض المواضع المخالفة في الادخال . والسر فيه أن كثيراً من الصفات لها جهات مختلفة كل منها يناسب قوة كما اشرنا اليه ، فالاختلاف في الادخال لأجل اختلاف الاعتبار للجهات « وقد عرفت ان ما له جهات مختلفة يتعاقب بالقوى المتعددة نحن نجعل مبدأه الجميع ونعده من رذائله أو فضائله ولا نخصه بواحدة منها » ، ثم بعض الصفات ربما كان ببعض الاعتبار محموداً معدوداً من الفضائل ، وبعض الاعتبار معدوداً من الرذائل وذلك كالحبة والخوف والرجاء ، فان الحب إن كان متعلقاً بالدنيا ومتعلقاتها كان مذموماً معدوداً من الرذائل وان كان متعلقاً بالله وأوليائه كان محموداً معدوداً من الفضائل ، والخوف ان كان مما لا يخاف منه عقلاً كان من رذائل قوة الغضب ، وان كان من المعاصي أو من عظمة الله كان من فضائلها ، والرجاء ان لم يكن في موقعه كان من الرذائل ، وان كان في موقعه كان من الفضائل وقس عليها غيرها مما له الاعتبار المختلفة .

فصل

الفرق بين الفضيلة والرذيلة

قد دريت اجمالاً ان الفضائل المذكورة ملكات مخصوصة لها ، آثار معلومة ، وربما صدر عن بعض الناس افعال شبيهة بالفضائل ، ولبست بها ، فلا بد

من بيان الفرق بينهما لئلا يشتبه على الغافل فيضِلَّ ويُضِلَّ ، فنقول :
 قد عرفت ان فضيلة الحكمة عبارة عن العلم بأعيان الموجودات على
 ما هي عليه ، وهو لا ينفك عن اليقين والطمأنينة ، فجرد اخذ بعض المسائل
 وتقريرها على وجه لائق من دون وثوق النفس واطمئنانها ليست حكمة ، والآخذ
 بمثله ليس حكيمًا ، اذ حقيقة الحكمة لا تنفك عن الأذعان القطعي واليقيني وهما
 مفقودان فيه ، فمثله كمثل الأبطال في التشبه بالرجال أو بعض الحيوانات في
 محاكاة ما للانسان من الأقوال والأفعال .

واما فضيلة العفة فقد عرفت انها عبارة عن ملكة انقياد القوة الشهوية
 للعقل ، حتى يكون تصرفها مقصوراً على امره ونهيه ، فيقدم على ما فيه المصلحة
 وينزجر عما يتضمن المفسدة بتجويزه ولا يخالفه في اوامره ونواهيه ، وينبغي
 ان يكون الباعث للاتصاف بتلك الملكة وصدور آثارها مجرد كونهها فضيلة
 وكلاً للنفس وحصول السعادة الحقيقية بها ، لا شيء آخر من دفع ضرر أو جلب
 نفع أو اضطراراً وإجباءً ، فالاعراض عن اللذات الدنيوية لتحصيل الأزيد من
 جنسها ليس عفة ، كما هو شأن بعض تاركي الدنيا للدنيا ، وكذا الحال في تركها لخمود
 القوة وقصورها وضعف الآلة وفتورها ، او لحصول النفرة من كثرة تعاطيها ،
 أو للحذر من حدوث الأمراض والاسقام ، أو لإطلاع الناس وتوبيخهم ، أو لعدم
 درك تلك اللذات كما هو شأن بعض اهالي الجبال والبوادي الى غير ذلك .

وأما فضيلة الشجاعة فقد عرفت انها ملكة انقياد القوة الغضبية للعقل
 حتى يكون تصرفها بحسب امره ونهيه ، ولا يكون للاتصاف بها وصدور آثارها
 داع سوى كونها كمالاً وفضيلة ، فالإقدام على الأمور الهائلة والخوض في الحروب
 العظيمة وعدم المبالاة من الضرب والقطع والقتل لتحصيل الجاه والمال أو الظفر
 بأصاغة ذات جمال أو للحذر من السلطان ومثله أو للشهوة بين أبناء جنسه ، ليست

صادرة عن ملكة الشجاعة ، بل منشأها إما رذيلة الشره أو الجبن ، كما هو شأن عساكر الجائرين وقاطعي الطرق والسارقين ، فمن كان أكثر خوفاً في الأهوال وأشد جرأة على الأبطال للوصول إلى شيء من تلك الأغراض ، فهو أكثر جبناً وحرصاً لا أكثر شجاعة ونجدة . وقس على ذلك الوقوع في المهالك والأهوال تعصباً عن الأقارب والاتباع ، وربما كان باعته تكرر ذلك منه مع حصول الغلبة ، فاعتز بذلك ولم يبال بالأقدام اتكلاً على العادة الجارية . ومثله مثل رجل ذي سلاح لم يبال بالمحاربة مع طفل أغزل ، فان عدم الحذر عنه ليس لشجاعته بل لعجز الطفل ، ومن هذا القبيل ما يصدر عن بعض الحيوانات من الصولة والأقدام فانه ليس صادراً عن ملكة الشجاعة بل عن طبيعة القوة والغلبة . وبالجملة الشجاع الواقعي ما كانت أفعاله صادرة عن إشارة العقل ولم يكن له باعث سوى كونها جميلة حسنة ، وربما كان الحذر عن بعض الأهوال من مقتضيات العقل فلا ينافي الشجاعة ، وربما لم يكن الخوض في بعض الأخطار من موجباته فينافيها ، ولذا قيل عدم الفرع مع شدة الزلازل وتواتر الصواعق من علام الجنون دون الشجاعة ، وإيقاع النفس في الهلكات بلا داع عقلي أو شرعي كنعرضه للسباع المؤذية أو إلقاء نفسه من المواضع الشاهقة أو في البحار والشطوط الغامرة من دون علم بالسباحة من أمارات القحة والجمافة .

ثم الشجاع الحقيقي من كان حذره من العار والفضيحة أكثر من خوفه من الموت والهلاك ، فمن لا يبال بذهاب شرفه وفضيحة أهله وحرمة ، فهو من أهل الجنون والجمافة ولا يستحق اسم العقل والشجاعة ، كيف والموت عند الشجاع مع بقاء الفضيلة أحسن من الحياة بدونها ، ولذا يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة ، على أن الشجاعة في المبادئ ربما كانت مؤذية وإنما تظهر لذتها في العاقبة (لا سيما إذا حصلت بها الحماية عن الدين والملة والذنب عن العقائد الحقّة ، فان

الشجاع لحبه الجميل وثباته على الرأي الصحيح اذا علم أن غره في معرض الزوال والدثور وأثر الفعل الجميل يبقى على مرّ الدهور ، يختار الجميل الباقي على الرذيل الفاني ، فيحامي عن دينه وشريعته ، ولا يبالي بما يحذر عنه غيره من أبناء طبيعته ، لعله بأن الجبان المقصر في حماية الدين ومقاومة جنود الشياطين إن بقي أياماً معدودة فمع تكدرها بالذل والصغار تكون زائلة ، ولا ترضي نفسه بالحرمان عن السعادة الباقية ، ولذا قال فخر الشجعان وسيد ولد عدنان عليه صلوات الله الملك الرحمان لأصحابه: ﴿أيها الناس انكم إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفس أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش ﴾ . وبالجملة كل فعل يصدر عن الشجاع في أي وقت يكون مقتضى للعقل مناسباً لهذا الوقت واقعاً في موقعه ، وله قوة التحمل على المصائب وملكة الصبر على الشدائد والنوائب ، ولا يضطرب من شدائد الامور ويستخف بما يستعظمه الجمهور ، وإذا غضب كان غضبه بمقتضى العقل وكان انتقامه مقصوداً على ما يستحسن عقلاً وشرعاً ولا يتعدى الى ما لا ينبغي ، وليس مطلق الانتقام مذموماً ، فربما كان في بعض المواضع مستحسناً عند العقل والشرع ، وقد صرح الحكماء بأن عدم الانتقام ممن يستحقه يحدث في النفس ذبولاً لا يرتفع إلا بالانتقام وربما ادى هذا الذبول الى بعض الرذائل المهلكة .

وأما العدالة فقد عرفت أنها عبارة عن اقياد القوة العملية للعاقلة ، او امتزاج القوى وتساميها واتقهر الجميع تحت العاقلة ، بحيث يرتفع بينها النزاع والتجاذب ولا يغلب بعضها على بعض ولا يقدم على شيء غير ما تقسط له العاقلة . وإنما يتم ذلك اذا حصلت للانسان ملكة راسخة تصدر لأجلها جميع الأفعال على نهج الاعتدال بسهولة ، ولا يكون له غاية في ذلك سوى كونها فضيلة وكالا

فمن يتكلف أعمال العدول رياء وسمعة أو لجلب القلوب أو تحصيل الجاه والمال ليس عادلاً .

وقس على ذلك جميع أنواع الفضائل المندرجة تحت الأجناس المذكورة فإنه بازاء كل منها رذيلة شبيهة بها، فينبغي لطالب السعادة ان يعرفها ويحتنب عنها، مثلاً السخاء عبارة عن ملكة سهولة بذل المال على المستحق ، مع كون الغاية الباعثة له عليه مجرد كونه فضيلة وكالاً ، دون الاغراض الاخر ، فبذل المال لتحصيل الأزيد أو لدفع الضرر أو نيل الجاه أو للوصول الى شيء من اللذات الحيوانية ، ليس سخاءً وكذا بذله لغير المستحق والاسراف في انفاقه فان المبتذر جاهل بعظم قدر المال والاحتياج اليه في مواقع لولاه لأدى الى تضييع الأهل والعيال والعجز عن كسب المعارف وفضائل الأعمال ، وله دخل عظيم في ترويج احكام الملة ونشر الفضيلة والحكمة ، ولذا ورد في الصحيفة السلمانية (ان الحكمة (كذا) مع الثروة يقظان ومع الفقر نائم) . وربما كان منشأ التبذير عدم العلم بصعوبة تحصيل الحلال منه ، وهذا يكون في الأغلب لمن يظفر بمال بفترة من ميراث أو غيره ، مما لا يحتاج الى كد وعمل ، فان مثله غافل عن صعوبة كسب الحلال منه ، اذ المكاسب الطيبة قليلة جداً وارتكابها للاحرار مشكل ، ولذا ترى أفاضل الاحرار ناقصي الحظوظ منه شاكين عن بختهم ، واضدادهم على خلاف ذلك لعدم مبالاتهم من تحصيله بأي نحو كان ، وقد قال بعض الحكماء ان تحصيل المال بمنزلة نقل الحجر الى قمة الجبل وانفاقه كاطلاقه .

فصل

العدالة أشرف الفضائل

العدالة أشرف الفضائل وافضلها ، اذ قد عرفت انها كل الفضائل

أوما يلزمها كما ان الجور كل الرذائل أوما يوجبها، لأنها هيئة نفسانية يقتدر بها على تعديل جميع الصفات والأفعال وردّ الزائد والنقص الى الوسط وانكسار سورة التخالف بين القوى المتعادية، بحيث يمتزج الكل وتحقق بينها مناسبة واتحاد تحدث في النفس فضيلة واحدة تقتضي حصول فعل متوسط بين أفعالها المتخالفة، وذلك كما تحصل من حصول الامتزاج والوحدة بين الأشياء المتخالفة صورة وحدانية يصدر عنها فعل متوسط بين أفعالها المتخالفة، فجميع الفضائل مترتبة على العدالة. ولذا قال افلاطون الالهّي: (العدالة اذا حصلت للانسان اشرق بها كل واحد من اجزاء نفسه ويستضيء بعضها من بعض، فتنتهض النفس حينئذ لفعلها الخاص على افضل ما يكون، فيحصل لها غاية القرب الى مبدعها سبحانه) .

ومن خواص العدالة وفضيلتها انها اقرب الصفات الى الوحدة، وشأنها اخراج الواحد من الكثرات والتأليف بين المتباينات والتسوية بين المختلفات وردّ الأشياء من القلة والكثرة والنقصان والزيادة الى التوسط الذي هو الوحدة فتصير المتخالفات في هذه المرتبة متحدة نوع اتحاد، وفي غيرها توجد اطراف متخالفة متكاثرة، ولا ريب في ان الوحدة أشرف من الكثرة، وكلما كان الشيء أقرب اليها يكون أفضل وأكمل وأبقى وأدوم، ومن تطرق البطلان والفساد أبعد، فالمتخالفات اذا حصل بينها مناسبة واتحاد وحصلت منها هيئة وحدانية صارت اكمل مما كان، ولذا قيل: كمال كل صفة ان يقارب ضدها وكمال كل شخص ان يتصف بالصفات المتقابلة يجعلها متناسبة متسامة، وتأثير الأشعار الموزونة والنغمات والايتماعات المتناسبة وجذب الصور الجميلة للنفوس، إنما هو لوحدة التناسب، ونسبة المساواة في صناعة الموسيقى او غيرها اشرف النسب لقربها الى الوحدة، وغيرها من النسب يرجع اليها .

وبالجملّة اختلاف الأشياء في الكمال والنقص بحسب اختلافها في الوحدة والكثرة ، فأشرف الموجودات هو الواحد الحقيقي الذي هو موجد الكل ومبدؤه ويفيض نور الوحدة على كل موجود بقدر استعداده كما يفيض عليه نور الوجود كذلك ، فكل وحدة من الوحدات جوهرية كانت أو خلقية أو فعلية أو عددية أو مزاجية ، فهو ظل من وحدته الحقّة ، وكلما كان أقرب إليها يكون أشرف وجوداً ، ولولا الاعتدال والوحدة العرضية التي هي ظل الوحدة الحقيقية لم تتم دائرة الوجود ، لأن تولّد المواليّد من العناصر الأربعة يتوقف على حصول الاتحاد والاعتدال ، وتعلق النفس الربّانية بالبدن إنما هو لحصول نسبة الاعتدال ولذا يزول تعلقها به بزوالها ، بل النفس عاشقة لتلك النسبة الشريفة أينما وجدت . والتحقيق أنها معنى وحداني يختلف باختلاف محالها ، فهي في الأجزاء العنصرية الممتزجة اعتدال مزاجي ، وفي الأعضاء حسن ظاهري ، وفي الكلام فصاحة ، وفي الملكات النفسية عدالة ، وفي الحركات غنج ودلال ، وفي النغمات أبعاد شريفة لذيذة . والنفس عاشقة لهذا المعنى في أي مظهر ظهر وبأي صورة تجلّى وبأي لباس تلبّس .

فاني أحبّ الحسن حيث وجدته وللحسن في وجه الملاح مواقع والكثرة والقلة والنقصان والزيادة تفسد الأشياء إذا لم تكن بينها مناسبة يحفظ عليها الاعتدال والوحدة بوجه ما ، وفي هذا المقام تفوح نفحات قدسية تهتز بها نفوس أهل الجذبة والشوق ، ويتعطّر منها مشام أصحاب التألّه والذوق فتعرّض لها إن كنت أهلاً لذلك .

وإذا عرفت شرف العدالة وإيجابها للعمل بالمساواة ورد كل ناقص وزائد الى الوسط ، فاعلم أنها اما متعلقة بالأخلاق والأفعال ، أو بالكرامات وقسمة الأموال ، أو بالمعاملات والمعاوضات ، أو بالأحكام والسياسات . والعادل في كل

واحد من هذه الأمور ما يحدث التساوي فيه بردّ الافراط والتفريط الى الوسط، ولا ريب في انه مشروط بالعلم بطبيعة الوسط، حتى يمكن ردّ الطرفين اليه، وهذا العلم في غاية الصعوبة ولا يتيسر إلا بالرجوع الى ميزان معرف للأوساط في جميع الأشياء، وما هو إلا ميزان الشريعة الإلهية الصادرة عن منبع الوحدة الحقة الحقيقية، فانها هي المعرفة للأوساط في جميع الأشياء على ما ينبغي والمتضمنة لبيان تفاصيل جميع مراتب الحكمة العملية، فالعادل بالحقيقة يجب ان يكون حكيماً عالماً بالنواميس الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة.

وقد ذكر علماء الأخلاق ان العدول ثلاثة « الأول » العادل الأكبر، وهو الشريعة الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة، « الثاني » العادل الأوسط، وهو الحاكم العادل التابع للنواميس الإلهية والشريعة النبوية فانه خليفة الشريعة في حفظ المساواة، « الثالث » العادل الصامت، وهو الدينار لانه يحفظ المساواة في المعاملات والمعاوضات. بيان ذلك ان الانسان مدني بالطبع فيحتاج بعض افراده الى بعض آخر، ولا يتم عيشهم إلا بالتعاون، فيحتاج الزارع الى عمل التاجر وبالعكس، والتجار الى عمل الصباغ وبالعكس، وهكذا فتقع بينهم معاوضات، فلا بد من حفظ المساواة بينها دفعاً للتنازع والتشاجر، ولا يمكن حفظها بالأعمال لاختلافها بالزيادة والنقصان والقلة والكثرة وغير ذلك وربما كان أدنى عمل مساوياً لعمل كثير كمنظر المهندس وتدير صاحب الجيش، فان نظرهما في لحظة واحدة ربما ساوى عملاً كثيراً لمن يعمل ويحارب، فحفظ المساواة بينها بالدينار والدرهم بأن تقوم بهما الأعمال والأشياء المختلفة، ليحصل الاعتدال والاستواء، ويتبين وجه الأخذ والاعطاء وتصح المشاركات والمعاملات على نهج لا يتضمن افراطاً ولا تفريطاً. قيل وقد أشير الى العدول الثلاثة في الكتاب الإلهي بقوله سبحانه :

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ
وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) « ١ »

فان الكتاب اشارة الى الشريعة ، والميزان الى آلة معرفة النسبة بين
المختلفات ومنها الدينار ، والحديد الى سيف الحاكم العادل المقوم للناس على الوسط .
هذا والمقابل للعادل اعني الجائر المبطل للتساوي أيضاً إما جائر أعظم
وهو الخارج عن حكم الشريعة ويسمى كافراً ، أو جائر أوسط وهو من لا يطيع
عندل الحكم في الأحكام . ويسمى طاغياً وبارغياً ، أو جائر اصغر وهو من
لا يقوم على حكم الدينار ، فيأخذ لنفسه اكثر من حقه ويعطي غيره أقل من حقه
ويسمى سارقاً وخائناً .

ثم العدالة على أقسام ثلاثة :

« احذها » ما يجري بين العباد وبين خالقهم سبحانه ، فانها لما كانت
عبارة عن العمل بالمساواة على قدر الامكان ، والواجب سبحانه واهب الحياة
والكلمات وما يحتاج اليه كل حي من الأرزاق والأقوات ، وهياً لنا في عالم آخر
من البهجة والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وما من يوم إلا ويصل
الينا من نعمه وعطاياه ما تكل الألسنة عن حصره وعده ، فيجب ان يكون
له تعالى علينا حق يقابل به تلك النعم التي لا تحصى كثرة حتى تحصل عدالة في
الجملة ، إذ من أعطي خيراً ولم يقابل به تلك النعم التي لا تحصى كثرة حتى تحصل عدالة في
المكافأة تختلف باختلاف الأشخاص ، فان ما يؤدي به حق احسان السلطان
غير ما يؤدي به حق احسان غيره ، فان مقابلة احسانه انما تكون بمثل الدعاء
ونشر المحاسن ، ومقابلة احسان غيره تكون بمثل بذل المال والسعي في قضاء

حوائج وغير ذلك ، والواجب سبحانه غني عن معونتنا ومساعدتنا ولا يحتاج الى شيء من اعمالنا وافعالنا ، ولكن يجب علينا بالنظر الى شرع العدالة حقوق تحصل بها مساواة في الجملة ، كعرفته ومحبته وتحصيل العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة ، والاجتهاد في امتثال ما جاءت به رسله وسفراؤه من الصوم والصلاة والسعي الى المواقف الشريفة وغير ذلك ، وان كان التوفيق لا أدراك ذلك كله من جملة نعمائه ، إلا ان العبد إذا أدى ماله فيسه مدخلية واختيار من وظائف الطاعات ، وترك ما تقتضي الضرورة يتمكنه على تركه من المعاصي والسيئات تخرج عن الجور المطلق ولم يصدق عليه انه جائز مطلق ، وإن كان أصل تمكنه واختياره بل اصل وجوده وحياته كلها من الله سبحانه .

« الثاني » ما يجري بين الناس بعضهم لبعض من أداء الحقوق وتأدية الأمانات والنصفة في المعاملات والمعاوضات وتعظيم الأكرابر والرؤساء واغاثة المظلومين والضعفاء ، فهذا القسم من العدالة يقتضي ان يرضى بحقه ولا يظلم أحداً ويقوم كل واحد من ابناء نوره على حقه بقدر الامكان ، لئلا يجوز بعضهم بعضاً ، ويؤدي حقوق اخوانه المؤمنين بحسب استطاعته وقد ورد في الحديث النبوي : « ان المؤمن على أخيه ثلاثين حقاً لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو : يغفر زلته . ويرحم غربته . ويستتر عورته . ويقل عثرته . ويقبل معذرتة . ويرد غيبته . ويديم نصيحته . ويحفظ خلته . ويرعى ذمته . ويعود مرضته . ويشهد ميته . ويحجب دعوته . ويقبل هديته . ويكافي صلته . ويشكر نعمته . ويحسن نصرته . ويحفظ حليلته . ويقضي حاجته . ويشفع مسئلته . ويسمى عطسته . ويرشد ضالته . ويرد سلامه . ويطيب كلامه . ويبرّ انعامه . ويصدق اقسامه . ويواليه ولا يعاديه . وينصره ظالماً أو مظلوماً فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه ، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على اخذ حقه ، ولا يسأه ، ولا يخذله . ويجب له من

أخيراً ما يحب لنفسه ، ويكره له من الشرّ ما يكره لنفسه) .

« الثالث » ما يجري بين الأحياء وذوي حقوقهم من الأموات ، من أداء ديونهم وإنفاذ وصاياهم والترحّم عليهم بالصدقة والدعاء ، وقد أشار خاتم الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم إلى أقسام العدالة بقوله : صلى الله عليه وآله وسلم (التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله) وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم في خبر آخر : (الدين النصيحة) قيل لمن ؟ قال : (لله ولرسوله ولعامة المؤمنين) .

إِفَاقَظْ

قد ظهر مما ذكر أن الكمال كل الكمال لكل شخص هو العدل والتوسط في جميع صفاته وأفعاله الباطنة والظاهرة ، سواء كانت مختصة بذاته أو متوسطة بينه وبين أبناء نوعه ، ولا تحصل النجاة والسعادة إلا بالاستقامة على وسط الأشياء المتخالفة والتثبت على مركز الأطراف المتباعدة ، فكن ياحبيبي جامعاً للكمالات متوسطاً بين مراتب السعادات ومركزاً لدائرة نيل الافاضات ، فكن أولاً متوسطاً بين العلم والعمل جامعاً بينهما بقدر الامكان ، ولا تكثف بأحدهما حتى لا تكون واحداً من الرجلين القاصمين (١) لظهر فخر الثقلين صلى الله عليه وآله وسلم وكن في العمل متوسطاً بين حفظ الظاهر والباطن ، فلا تكن في باطنك خبيثاً وظاهرك تقيّاً ، حتى تكون كشوّهاء ملبسة بزيّ حوراء مدلّسة بأنواع التدليسات ، ولا بالعكس لتكون مثل درّة ملوّثة بأقسام القاذورات ، بل ينبغي أن يكون ظاهرك مرآة لباطنك ، حتى يظهر من محاسنك بقدر ما اقتضته ملكاتك

(١) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم [قسم ظهري رجلا نـ

طالم متذك وجاهل متذك] .

الفاضلة الباطنة ، وكن في جميع ملكاتك الباطنة وافعالك الظاهرة متوسطاً بين الافراط والتفريط على ما يقرع سمعك في هذا الكتاب . ثم كن في العلوم متوسطاً بين العلوم الباطنة العقلية . والعلوم الظاهرة الشرعية ، فلا تكن من الذين قَصَرُوا انظارهم على ظواهر الآيات ولم يعرفوا من حقائق البينات ، يذمون علماء الحقيقة وينسبونهم الى الاحاد والزندقة ، ولا من الذين صرفوا أعمارهم في فضول اهل يونان وهجروا ما جاء به حامل الوحي والفرقان ، يذمون علماء الشريعة ويثبتون لهم سوء القريحة ، يدعون لأنفسهم الذكاء والفتانة وينسبون ورثة الانبياء الى الجهل والبطالة . ثم كن في العقليات متوسطاً بين طرق العقلاء من غير جهود على واحدة منها بمجرد التقليد أو التعصب ، فتوسط بين الحكمة والكلام والاشراق والعرفان ، واجمع بين الاستدلال وتصفية النفس بالعبادة والرياضة ، فلا تكن متكلاً صرفاً لا تعرف سوى الجدل ، ولا مشائياً محضاً اضاع الدين وأهمل ، ولا متصوفاً استراح بدعوى المشاهدة والعيان من دون بيّنة وبرهان . وكن في العلوم الشرعية متوسطاً بين الأصول والفروع فلا تكن اخبارياً تاركاً للقواعد القطعية ، ولا اصولياً عاملاً بقياسات عامة . وقس على ذلك جميع امورك الباطنة والظاهرة ، واعمل به حتى يرشدك الى طريق السداد ، ويوقك لاكتساب زاد المعاد .

﴿ دفع إشكال ﴾

إن قيل : قد تلخص مما ذكر ان الفضيلة في جميع الأخلاق والصفات انما هو المساواة من غير زيادة ونقصان ، مع انه قد ثبت ان التفضل محمود وهو زيادة ، فلا يدخل تحت العدالة الراجعة الى المساواة (قلنا) التفضل احتياط يقع لتحصيل القطع بعدم الوقوع في النقصان ، وليس الوسط في طرفين من الأخلاق على نهج واحد ، فان الزيادة في السخاء اذا لم يؤد الى الاسراف احسن

من النقصان عنه ، واشبه بالمحافظة على شرائطه ، فالمتفضل إنما يصدر عن فضيلة العدالة لأنها مبالغة فيها ولا يخرجها عن حقيقتها ، اذ المتفضل من يعطي المستحق أزيد مما يستحقه ، وهذه الزيادة ليست مذمومة بل هي العدالة مع الاحتياط فيها ، ولذا قيل « ان المتفضل افضل من العادل » ، والمذموم ان يعطي غير المستحق أو يترك المساواة بين المستحقين ، لأنه انفق فيما لا ينبغي أو على ما لا ينبغي ، وصاحبه لا يسمى متفضلاً بل مضيعاً ، ولكون التفضل احتياطاً إنما يحسن من الرجل بالنسبة الى صاحبه في المعاملة التي بينهما ، ولو كان بين جماعة ولم يكن له نصيب في ما يحكم فيه لم يسمه إلا العدل المحض ولم يجز له التفضل .

تقديم

اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان

قد تلخص ان حقيقة العدالة أو لازمها ان يغلب العقل الذي هو خليفة الله على جميع القوى حتى يستعمل كلاً منها فيما يقتضي رأيه ، فلا يفسد نظام العالم الانساني ، فان الواجب سبحانه لما ركب الانسان بحكمته الحق ومصلحته التامة من القوى الكثيرة المتضادة ، فهي اذا تهايجت وتغالبت ولم يقهرها قاهر خير ، حدثت فيه بهيجاتها واضطرابها أنواع الشر ، وجذبه كل واحدة منها الى ما يقتضيه ويشتهي ، كما هو الشأن في كل مركب ، وقد شبه المعلم الأول مثله بمن يجذب من جهتين حتى ينقطع وينشق بنصفين أو من جهات كثيرة فيقطع بحسبها ، فيجب على كل انسان ان يجاهد حتى يغلب عقله الذي هو الحكم العدل والخير المطلق على قواه المختلفة ، ليرفع اختلافها وتجاذبها وقيم الجميع على الصراط القويم .

ثم كل شخص ما لم يعدل قواه وصفاته لم يتمكن من اجراء احكام العدالة بين شركائه في المنزل والبلد ، اذ العاجز عن اصلاح نفسه كيف يقدر على اصلاح غيره ، فان السراج الذي لا يضيء قريبه ، كيف يضيء بعيده ، فمن عدل قواه وصفاته أولاً واجتنب عن الافراط والتفريط واستقر على جادة الوسط ، كان مستعداً لسلوك هذه الطريقة بين ابناء نوعه ، وهو خليفة الله في ارضه ، واذا كان مثله حاكماً بين الناس وكان زمام مصالحهم في قبضة اقتداره لتنورت البلاد بأهلها وصلحت امور العباد بأسرها وزاد الحرث والنسل ودامت بركات السماء والأرض .

وغير خفي أن اشرف وجوه العدالة وأهمها وأفضل صنوف السياسات وأعماها هو عدالة السلطان ، إذ غيرها من العدالة مرتبطة بها ولولاه لم يتمكن أحد من رعاية العدالة ، كيف وتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل يتوقف على فراغ البال وانتظام الأحوال ، ومع جور السلطان امواج الفتن متلاطمة ، وافواج الحن متراكمة ، وعوائق الزمان متزاحمة ، وبوائق (١) الحداث متصادمة ، وطالبو الكمال كالحيارى في الصحارى لا يجدون الى منازلهم سبيلاً ولا الى جداولهم مرشداً ودليلاً ، وعرصات العلم والعمل دارة الآثار ، ومنازلها مظلمة الأرجاء والأقطار ، فلا يوجد ما هو الملاك في تحصيل السعادات اعني تفرغ الخاطر والاطمئنان وانتظام أمر المعاش الضروري لافراد الانسان ، ولذا لو تصفحت في امثال زماننا زوايا المدن والبلاد واطلعت على بواطن فرق العباد ، لم تجد من الالوف واحداً تمكن من اصلاح نفسه ويكون يومه خيراً من أمسه ، بل لا تجد ديناً إلا وهو باك على فقد الاسلام وأهله ، ولا طالباً إلا وهو لعدم المكنة باق على جهله ،

(١) البائقة : الداهية والشر . ويقال : رفعت عنك بائقة فلان أي غائلته

وشره ، جمعه بوائق .

ولعمري انّ هذا الزمان هو الزمان الذي اخبر عنه سيد الانام وعترته الأبرار الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام من انه « لا يبقى من الاسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه » .

وبالجملة المناط كل المناط في تحصيل الكمالات واخراج النفوس من الجهالات ، هو عدالة السلطان واعتناؤه باعلاء الكلمة وسعيه في ترويج احكام الدين والملة ، ولذا ورد في الآثار (أن السلطان اذا كان عادلاً كان شريكاً في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية ، وان كان جائراً كان سهيماً في معاصيهم) وقال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم « أقرب الناس يوم القيامة الى الله تعالى الملك العادل وأبعدهم عنه الملك الظالم » وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . والسر أن اثر عدل ساعة واحدة ربما يصل الى جميع المدن والأمصار ويبقى على مرّ الدهور والأعصار ، وقال بعض الأكابر : لو علمت انه يستجيب لي دعوة واحدة لخصصتها باصلاح حال السلطان حتى يعمّ نفعه .

توزيع

لا حاجة الى العدالة مع رابطة المحبة

لو استحكمت رابطة المحبة وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا الى سلسلة العدالة ، فانّ أهل الوداد والمحبة في مقام الايثار ولو كان بهم خصاصة ، فكيف يجور بعضهم على بعض . والسرّ ان رابطة المحبة أتم وأقوى من رابطة العدالة ، لأن المحبة وحدة طبيعية جبلية ، والعدالة وحدة قهرية قسرية . على انها لا تنتظم بدون المحبة ، لكونها باعثة للإيجاد ، كما اشير إليه في الحديث القدسي :

« كنت كنزاً مخفياً فأحببت ان اعرف » فالحبة هو السلطان المطلق والعدالة نائنها وخليفتها (١) .

وصل

التكميل الصناعي لا كتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي

لا كتساب الفضائل ترتيب ينبغي ان لا يتعدى عنه . وبيان ذلك ان مبادئ الحركات المؤدية الى الكمالات : إما طبيعية كحركة النطفة في الأطوار المختلفة الى بلوغ كمال الحيوانية ، أو صناعية كحركة الخشب بتوسط الآلات الى بلوغ كمال السريرية . ثم الطبيعية وتحريكها لاستنادها الى المبادئ العالية تكون متقدمة على الصناعة المستندة الى الانسان . ولما كان كمال الثواني ان تشبهه بالأوائل ، فينبغي ان تقتدي الصناعة في تحريكها المؤدية الى كمالها بالطبيعة .

وإذ ثبت ذلك فاعلم ان تهذيب الأخلاق لما كان امراً صناعياً لزم ان يقتني في تحصيله من حيث الترتيب بأفعال الطبيعة في ترتيب حصولها ، فنقول لاريب في أن اول ما يحصل في الطفل قوة طلب الغذاء ، واذا زادت تلك القوة يبكي ويرفع صوته لأجل الغذاء ، واذا قويت حواسه وتمكن من حفظ بعض الصور يطلب صورة الأم أو الظئر (٢) وجميع ذلك متعلق بالقوة الشهوية ، ونهاية

(١) ولذلك ان الشريعة الاسلامية اول ما دعت فيما دعت الى الاخوة والتآف بين الناس ، وكثير من احكامها مثل الجماعة والجمعة والايتار والاحسان وتحريم الغيبة والنز ونحو ذلك تستهدف ايجاد رابطة الحب بين الشعوب والقبائل والافراد ، ليستغنوا عن الاخذ بقانون العدل الصارم المر .

(٢) يريد بها الموضة .

هذه القوة وكلها ان يتم ما يتعلق بالشخص من الأمور الشهوية وينبعث منه الميل الى استبقاء النوع ، فيحدث ميل النكاح والوقاع . ثم تظهر فيه آثار القوة الغضبية حتى يدفع عن نفسه ما يؤذيه ولو بالاستعانة بغيره ، وغاية كمال هذه القوة حصول التمكن من حفظ الشخص والاقدام على حفظ النوع ، فيحدث فيه الميل الى ما يحصل به التفوق من أصناف الرئاسات والكرامات . ثم تظهر فيه آثار قوة التمييز وتزايد الى ان يتمكن من تغفل الكليات .

وهنا يتم ما يتعلق بالطبيعة من التدبير والتكميل ، ويكون ابتداء التكميل الصناعي ، فلو لم يحصل الاستكمال بالكسب والصناعة وبقي على هذه الحالة ولم يبلغ الى الكمال الحقيقي الذي تُخلق الانسان لأجله ، لانه لم يخلق أحد مجبولا على الاتصاف بجميع الفضائل الخلقية إلا من أيد من عند الله بالنفس القدسية ، وإن كان بعض الناس أكثر استعدادا لتحصيل بعض الكمالات من بعض آخر ، فلا بد لجل الانام في تكميل نفوسهم من الكسب والاستعلام .

فظهر مما ذكر ان الطبيعة تولد اولاً قوة الشهوة ، ثم قوة الغضب ، ثم قوة التمييز ، فيجب ان يقتدى به في التكميل الصناعي ، فيهدب اولاً القوة الاولى ليكتسب العفة ، ثم الثانية ليتصف بالشجاعة ، ثم الثالثة ليتحلّى بالحكمة فمن حصل بعض الفضائل على الترتيب الحكيم كان تحصيل الباقي له في غاية السهولة ، ومن حصله لا على الترتيب ، فلا يظن ان تحصيل الباقي حينئذ متعذر بل هو ممكن ، وإن كان أصعب بالنسبة الى تحصيله بالترتيب ، فإن عدم الترتيب يوجب عسر الحصول لا تعذره ، كما ان الترتيب يوجب يسره لا مجرد إمكانه فلا يترك السعي والجهد في كل حال ولا ييأس من رحمة الله الواهب المتعال ، وليشمر ذيل المهمة على منطقة الطلب حتى يسر الله له الوصول الى ما هو المتقصد والمطلب .

ثم الفضيلة إن كانت حاصلة لزم السعي في حفظها وابقائها ، وإن لم تكن حاصلة بل كان ضدها حاصلًا وجب تحصيلها بإزالة الضد. ولذا كان فنّ الأخلاق على قسمين (أحدهما) راجع إلى حفظ الفضائل (وثانيهما) نافع في دفع الرذائل، فيكون شبيهًا بعلم الطب ، من حيث انقسامه إلى قسمين (أحدهما) في حفظ الصحة (وثانيهما) في دفع المرض ، ولذا يسمى طباً روحانياً ، كما أن الطب المتعارف يسمى طباً جسمانياً . ومن هنا كتب جالنيوس إلى روح الله عليه السلام « من طبيب الأبدان إلى طبيب النفوس » فكما أن لكل من حفظ الصحة ودفع المرض في الطب الجسماني علاجاً خاصاً ، فكذلك لكل من حفظ الفضائل وإزالة الرذائل في الطب الروحاني معالجات معينة كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الباب الثالث

في طريق حفظ اعتدال الاخلاق المحموده واستحصاها

بازالة نقائصها المذمومة

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل — قانون العلاج في الطب الروحاني —
— طريقة معرفة الامراض النفسية — — — — —
المعالجات الخاصة لامراض النفس . وله أربعة مقامات :
(الاول) ما يتعلق بالقوة الماقلة من الرذائل والفضائل وكيفية علاج
الرذائل .

(الثاني) ما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج .
(الثالث) ما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج .
(الرابع) ما يتعلق بالقوى الثلاث او بأثنين منها .

وفيه فصول (١) :

فصل

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل

قد تقرّر في الطب الجسماني أن حفظ الصحة بإيراد المثل وملائم المزاج ، فيجب ان يكون حفظ اعتدال الفضائل ايضاً بذلك . وإيراد المثل لحفظ اعتدالها يكون بامور :

﴿ منها ﴾ اختيار مصاحبة الاخيار والمعاشرة مع اولى الفضائل الخلقية واستماع كيفية سلوكهم مع الخالق والخلقية ، والاجتناب عن مجالسة الاشرار وذوي الاخلاق السيئة والاحتراز عن استماع قصصهم وحكاياتهم وما صدر عنهم من الأفعال ومخرقاتهم ، فإن المصاحبة مع كل أحد أقوى باعث على الاتصاف بأوصافه فإن الطبع يسترق من الطبع كلاً من الخير والشر . والسر أن النفس الانسانية ذات قوى بعضها يدعو الى الخيرات والفضائل وبعضها يقتضي الشرور والذائل ، وكلما حصل لأحدهما أدنى باعث لما تقتضيه جبلته مال اليه وغلب على صاحبه الى الخير ، ولكون دواعي الشر من القوى أكثر من بواعث الخير منها يكون الميل الى الشر أسرع وأسهل بالنسبة الى الميل الى الخير ، ولذا قيل : إن تحصيل الفضائل بمنزلة الصعود الى الاعالي وكسب الرذائل بمثابة النزول منها والى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) .

﴿ ومنها ﴾ إعمال القوى في شرائف الصفات ، والمواظبة على الأفعال

(١) هذه الفصول كنميد للمقامات الاربعة التي تتعلق بالعلاج الخاص للذمائم الاخلاق .

التي هي آثار فضائل الملكات ، وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق الذي يريد حفظه ، فالحافظ للملكة الجود يجب أن يواظب على انفاق المال وبذله على المستحقين ويقهر على نفسه عند وجدان ميلها الى الامساك ، والحافظ للملكة الشجاعة يجب ألا يترك الاقدام في الأخطار والأهوال بشرط اشارة العقل ويعضب على نفسه عند وجدان الجبن منها ، وهكذا الحال في سائر الصفات وهذا بمثابة الرياضة الجسمانية في حفظ الصحة البدنية .

﴿ ومنها ﴾ ان يقدم التروّي على كل ما يفعله لئلا تصدر عنه غفلة خلاف ما تقتضيه الفضيلة ، ولو صدر عنه أحياناً خلاف مقتضاها فليؤدب نفسه بارتكاب ما يضاده ويشقّ عليها عقوبة بعد تعييرها وتوبيخها ، كما اذا أكل ما يضرّه من المطاعم فليؤدّبها بالصوم ، واذا صدر عنه غضب مذموم في واقعة فليؤدّبها بايقاعها في مثلها مع الصبر عليها أو في معرض اهانة السفهاء حتى يكسر جاهه أو يؤدّبها بارتكاب ما يشقّ عليها من النذر والصدقة وغير ذلك . وينبغي ألا يترك الجد والسعي في التحصيل والحفظ وان بلغ الغاية ، لأن التعطيل يؤدي الى الكسالة وهي الى انقطاع فيوضات عالم القدس ، فتتسلخ الصورة الانسانية وتحصل الهلاكة الأبدية ، والسعي يوجب ازدياد تجرّد النفس وصفاءها والانس بالحق والالف بالصدق (١) ، فيتنفّر عن الكذب والباطل ، ويتصاعد في مدارج الكمالات ومراتب السعادات ، حتى تنكشف له الاسرار الإلهية والغوامض الربانية ، ويتشبه بالروحانيات القادسة ، وينخرط في سلك الملائكة المقدسة ، ويجب ان يكون سعيه في امور الدنيا بقدر الضرورة ويحرم على نفسه تحصيل الزائد ، لأنه لاشقاوة أشد من صرف الجوهر الباقي النوراني في تحصيل الخرف الفاني الظلماني الذي يفوت عنه وينتقل الى أعدائه من الوراث وغيرهم .

﴿ ومنها ﴾ أن يحترز عما يهيج الشهوة والغضب رؤيةً وسماعاً وتخيلاتاً ومن هيجهما كن هيج كلباً عقوراً أو فرساً شموساً ، ثم يضطر إلى تدبير الخلاص عنه . وإذا تحرر كتب بالطبع فليقتصر في تسكينهما بما يسد الخلة ولا ينافي حفظ الصحة ، وهو القدر الذي جوزه العقل والشرعة .

﴿ ومنها ﴾ أن يستقصي في طلب خفايا عيوب نفسه وإذا عثر على شيء منها اجتهد في إزالته ، ولما كانت النفس عاشقة لصفات وأفعالها ، فكثيراً ما يخفي عليها بعض عيوبها ، فيلزم على كل طالب للصحة وحافظها أن يختار بعض أصدقائه ليتفحص عن عيوبه ويخبره بما اطلع عليه ، وإذا أخبره بشيء منها فليفرح وليبادر إلى إزالته حتى يثق صديقه بقوله ، ويعلم أن الهداء شيء من عيوبه إليه أحسن عنده من كل ما يحبه ويهواه . وربما كان العدو في هذا الباب أنفع من الصديق ، لأن الصديق ربما يستر العيب ولا يظهره والعدو مصر على إظهاره بل ربما يتجاوز إلى البهتان ، فإذا أظهر الأعداء عيوبه فليشكر الله على ذلك وليبادر إلى رفعها وقمعها .

ومما ينفع في المقام أن يجعل صور الناس مرايا لعيوبه ويتفقد عيوبهم ، وإذا عثر على عيب منهم تأمل في قبحه ، ويعلم أن هذا العيب إذا صدر عنه يكون قبيحاً ويدرك غيره هذا القبح ، فليجتهد في إزالته . وينبغي أن يحاسب نفسه في آخر كل يوم وليلة ويتفحص عن جميع ما صدر من الأفعال فيهما ، فإن لم يصدر عنه شيء من القبائح والذمائم فليحمد الله على حسن تأييده ، وإن صدر عنه شيء من ذلك فليعاتب نفسه ويتوب ويجتهد في ألا يصدر عنه بعد ذلك مثله .

قانونه المبرج في الطب الروحاني

(تنبيه) قد تبين أن للطب الروحاني أسوة بالطب الجسماني . والقانون في معالجة الأمراض الجسمانية ان يعرف جنس المرض أولاً ثم الأسباب والعلامات ثم يبين كيفية العلاج . والعلاج فيه إما كلي يتناول جميع الأمراض أو جزئي يختص بمرض دون مرض، فكذا الحال في الطب الروحاني ونحن نشير الى ذلك في فصول :

فصل

طريق معرفة الأمراض النفسانية

الأمراض النفسانية هي انحرافات الأخلاق عن الاعتدال . وطريق معرفتها : أنك قد عرفت ان القوى الانسانية محصورة في أنواع ثلاثة : (احدها) قوة التميز ، (وثانيها) قوة الغضب ويعتبر عنها بقوة الدفع ، (وثالثها) قوة الشهوة ويعتبر عنها بقوة الجذب . وانحراف كل منها إما في الكمية أو في الكيفية والانحراف في الكمية إما للزيادة عن الاعتدال أو للنقصان عنه . والانحراف في الكيفية إما يكون برداءتها . فأمراض كل قوة إما بحسب الافراط أو التفريط أو بحسب رداءة الكيفية .

فالافراط في قوة التميز كالجربرة والدهاء والتجاوز عن حد النظر ، والمبالغة في التنفير (١) والتوقف في غير موضعه للشبه الواهية والحكم على

(١) التنفير : البحث والتتبع .

المجردات بقوة الوهم ، وإعمال الذهن في ادراك ما لا يمكن دركه . والتفريط فيه كالبلادة وقصور النظر عن درك مقدار الواجب ، كما جراء أحكام المحسوسات على المجردات . والرداءة كالفسطة في الاعتقاد ، والميل الى العلوم الغير اليقينية كعلم الجدل والخلاف أزيد مما يعين على اليقنيات ، واستعمالها في مقام اليقنيات والشوق الى علم الكهانة والشعبنة وأمثالها للوصول الى الشهوات الخسيسة .

وأما الإفراط في قوة الدفع كشدة الغضب والغيط وفرط الانتقام بحيث يتشبه بالسباع . واما التفريط كعدم الغيرة والحمية والتشبه بالأطفال والنسوان في الأخلاق والصفات . وأما الرداءة فيها كالغيط على الجمادات والبهائم أو على الناس لا بسبب موجب للانتقام .

وأما الإفراط في قوة الجذب فكالحرص على الأكل والجماع أزيد من قدر الضرورة . والتفريط فيه فكالفتور عن تحصيل الأقوات الضرورية وتضييع العيال والحمود عن الشهوة حتى ينقطع عنه النسل . أما الرداءة فيها كشهوة البطن والميل الى مقارنة الذكور .

ثم إنك قد عرفت أن اجناس الفضائل أربعة ، فأجناس الرذائل بحسب الكمية ثمانية لكل فضيلة ضدان كل منهما ضد للآخر ، وبحسب الكيفية أربعة ، ويحصل من تركيبها وامتزاجها انواع واصناف لا يعد كثرة كما عرفت أكثرها .

فصل

أسباب الأمراض النفسانية

إعلم أن اسباب الانحراف في الأخلاق ، إما نفسية حاصلة في النفس في بدو فطرتها ، أو حادثة من مزاولتها للأعمال الرديئة ، أو جسمية وهي الأمراض

الموجبة لبعض الملكت الرديّة . والسّر في ذلك أن النفس لما كانت متعلقة بالبدن علاقة ارتباطية فيتأثر كل منهما بتأثر الآخر ، وكل كيفية تحدث في أحدهما تسري في الآخر ، كما أن غضب النفس أو تعشّقها يوجب اضطراب البدن وارتعاشه وتأثر البدن بالأمراض ، (لا) سيما اذا حدثت في الأعضاء الرئيسية يوجب النقض في ادراك النفس وفساد تخيلها . وكثيراً ما يحدث من بعض الأمراض السوداء وفيه فساد الاعتقاد والجهن وسوء الظن ، ومن بعضها التهور ، ويحصل من أكثر الأمراض سوء الخلق .

فصل

المعالجات الكلية لمرض النفس

سبب الانحراف إن كان مرضاً جسدياً فيجب ان يبادر الى ازالته بالمعالجات الطبية ، وإن كان نفسانياً فالمعالجة الكلية هنا كالمعالجة الكلية في الطب الجسماني . والمعالجة الكلية فيه ان يعالج المرض اولاً بالغذاء الذي هو ضد المرض طبعاً ، كأن يعالج المرض البارد بالغذاء الحار ، فإن لم ينفع فبالدواء ، وإن لم ينفع فبالسمومات ، وإن لم يحصل بها البرء فبالكي أو القطع ، وهو آخر العلاج . فالتانون الكلي في المعالجة هنا ايضاً كذلك ، وهو أن يبادر بعد معرفة الانحراف الى تحصيل الفضيلة التي هي ضده والمواظبة على الأفعال التي هي آثارها ، وهذا بمنزلة الغذاء المضاد للمرض ، فكما ان حصول الحرارة في المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه ، فكذا كل فضيلة تحدث في النفس تزيل الرذيلة التي هي ضدها . فإن لم ينفع فليؤتج النفس ويعتبرها على هذه الرذيلة فكراً أو قولاً أو فعلاً ويعاتبها ويخاطبها بلسان الحال والمآل : أيتها النفس الامارة قد هلكت وتعرضت لسخط الله وغضبه وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والأشرار

فإن لم يؤثر ذلك فلم يرتكب آثار الرذيلة التي هي ضد هذه الرذيلة ، بشرط محافظة التعديل ، فصاحب الجبن مثلاً يعمل أعمال المتهورين فيخوض في المخاوف والأهوال ويلقي نفسه في موارد الحذر والأخطار ، وصاحب البخل يكتر من بذل الأموال ، بشرط أن يكف إذا قرب زوال الجبن والبخل لئلا يقع في التهور والاسراف ، وهذا بمنزلة المداواة بالسّم . فإن لم ينفع ذلك لقوة استحكام المرض فليعذب النفس بأنواع التكاليف الشاقة والرياضات المتعبة المضعفة للقوة الباعثة على هذه الرذيلة ، وهذا بمثابة الكي والقطع وهو آخر العلاج .

المعالجات الخاصة لمرض النفس

(تنبيه) لما عرفت المعالجة الكلية الشاملة لجميع الرذائل بأجناسها وأنواعها وأصنافها ، فلنشتغل الآن ببيان معالجة كل من الرذائل بخصوصه . وقد عددنا قبل ذلك ما يتعلق بالقوى الثلاث من الرذائل وأضدادها من الفضائل مما له اسم مشهور ، فهنا نذكر معالجة كل رذيلة بخصوصها ونذيله بذكر ما يضادها من الفضيلة ، وما ورد في مدحها عقلاً وتقليلاً لأن العلم بمعرفة كل فضيلة وحسنة أعون شيء على إزالة ما يضادها من الرذيلة . وربما كانت جملة من الرذائل المختلفة في الاسم مشتركة في المعالجة ، وربما كان للرذائل أو الفضائل المتعددة ضد واحد منها ، فنحن نشير إلى ذلك ، ونشير أيضاً في تلو كل رذيلة وفضيلة إلى ما يتولد منهما من أفعال الجوارح مع معالجته إن كان له ذلك ، ونراعي الترتيب المذكور في مقام الاجمال : فنذكر أولاً ما يتعلق بالقوة العاقلة من الجنسين وأنواعهما ، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ثم ما يتعلق بالثلاث والاثنين منها فهنا أربعة مقامات .

المقام الاول

في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة

الجربرة وعلاجها - الجهل البسيط وعلاجه - شرف العلم والحكمة -
آداب التعلم والتعليم - العلم الاثمي والاخلاق والفقه اشرف العلوم
أصول المقائيد المجمع عليها - الجهل المركب والشك - اليقين -
علامات صاحبه - مراتب اليقين - الشرك - التوحيد - التوكل
على الله حق التوكل بماذا يحصل - مناجاة السرّ لارباب القلوب - الخواطر
الفسانية والوساوس - أقسام الخواطر ومنها الالهام - المطاردة بين جندي
الملائكة والشياطين في معركة النفس - الملائم الفارقة بين الالهام والوسوسة -
علاج الوسواس - ما يتم به علاج الوسواس - ما يتوقف قطع الوسواس
عليه - حديث النفس لا مؤاخذه عليه - الخاطر المحمود والتفكر -
مجارى التفكير في العوالم والمخلوقات .

اما جنسار ذائلها (١) ﴿ فأولهما ﴾ :

(الجربزة)

الموجبة للخروج في الفكر عن الحد اللائق وعدم استقامة الذهن على شيء ، بل لا يزال يستخرج أموراً دقيقة غير مطابقة للواقع ويتجاوز عن الحق ولا يستقر عليه ، وربما أدى في العقليات الى الالحاد وفساد الاعتقاد ، بل الى نفي حقائق الأشياء رأساً كما للسوفسطائية ، وفي الشرعيات الى الوسواس . (وعلاجه) بعد تذكر قبحه وإيجابه للهلاك ، ان يكلف نفسه على الاستقامة على مقتضى الأدلة المعتبرة عند اولى الأفهام المستقيمة ، ولا يتجاوز عن معتقدات أهل الحق المعروفين بالتحقيق واستقامة القريحة ، ولا يزال يكلف نفسه على ذلك حتى يعتاد القيام على الوسط ، وربما كان للاشتغال بالتعليمات نفع في ذلك .

﴿ وثانيهما ﴾

(الجهل البسيط)

وقد عرفت أنه من باب التفريط وهو خلو النفس عن العلم من دون اعتقاد بكونها عالمة ، وهو في البداية غير مذموم لتوقف التعلم عليه ، إذ ما لم تعتقد النفس جهلها بالمعارف لم تنتهض لتحصيلها ، وأما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة . والطريق في ازالته امور: (الأول) أن يتذكر ما يدل على قبحه وتقصه

عقلاً ، وهو أن يعلم أن الجاهل ليس انساناً بالحقيقة وإنما يطلق عليه الانسان مجازاً إذ فصل الانسان عن سائر الحيوانات إنما هو ادراك الكلي المعبر عنه بالعلم ، لمشاركتها معه في سائر الامور من الجسمية والقوى الغضبية والشهوية والصوت وغير ذلك ، فلولا علمه بحقائق الأشياء وخواصها لكان حيواناً بالحقيقة ولذا ترى أن من كان في محل محاورات العلماء وكان جاهلاً بأقوالهم لم يكن فرق بينه وبين البهائم بالنسبة اليهم ، وأي هلاك أعظم من الخروج عن حدود الانسانية والدخول في حد البهيمية (الثاني) أن يتذكر ما ورد في الشريعة من الذم عليه مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (ستة يدخلون في النار قبل الحساب لسته) وعد منهم أهل الرساتيق بالجهالة (الثالث) أن يتذكر ما يدل على فضيلة العلم عقلاً ونقلاً كما نذكره وإذا وقف على جميع ذلك فليتيقظ عن سنة الغفلة ، ويصرف في ازالته الهمة ، ويجتهد في تحصيل العلم عن أهاليه ويصرف فيه أيامه ولياليه .

فصل

شرف العلم والحكمة

قد علم أن ضد الجنسين أي الجربزة والسفسطة والجهل هو الحكمة ، اعني العلم بحقائق الأشياء ، فلنذكر أولاً بعض ما يدل على شرافته عقلاً ونقلاً ترغيباً للطالبيين على السعي في تحصيله وازالة الجهل عن نفوسهم ، فنقول :
لا ريب في أن العلم أفضل الفضائل الكمالية وأشرف النعوت الجمالية ، بل هو أجل الصفات الربوبية وأجل السمات الالهية ، وهو الموصل الى جوار رب العالمين والدخول في افق الملائكة المقربين ، وهو المؤدي الى دار المقامة

التي لا تزول ومحل الكرامة التي لا تحول ، وقد تطابق العقل والبرهان واجماع ارباب الاديان على أن السعادة الأبدية والقرب من الله سبحانه لا يتيسران بدونهُ ، وأي شيء أفضل مما هو ذريعة اليهها . وأيضاً قد ثبت في الحكمة المتعالية أن العلم والتجرد متلازمان ، فكما تزداد النفس علماً تزداد تجرداً ، ولا ريب في أن التجرد أشرف الكمالات المتصورة للانسان إذ به يحصل التشبه بالملائكة الأعلى وأهل القرب من الله تعالى .

ومن جملة العلوم معرفة الله التي هي السبب الكلي لايجاد العالم العلوي والسفلي ، كما دل عليه الخبر القدسي : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق » على أن العلم لذيقه في نفسه محبوب في ذاته ، وما يحصل منه من اللذة والابتهاج قلماً يحصل من غيره . والسرفيه أن ادراك الأشياء والاحاطة بها نوع تملك وتصرف لها ، إذ تنقرر في ذات المدرك حقائقها وصورها ، ومثل هذا التملك لدوامه وجزئية المدرك للمدرك أقوى من ملكية الأعيان المباشرة لذات المالك الزائلة عنه . والتحقيق أن اطلاق الملكية عليه مجازي ، والنفس لكونها من سنخ عالم الربوبية تحب القهر والاستيلاء على الأشياء والمالكية لها بأي نحو كان ، إذ معنى الربوبية التوحيد بالكمال والاقتدار والغلبة على الأشياء .

ثم من فوائد العلم في الدنيا العز والاعتبار عند الأخيار والأشرار ، ونفوذ الحكم على الملوك وأرباب الاقتدار ، فإن طباع الأنام من الخالص والعام مجبولة على تعظيم أهل العلم وتوقيرهم ووجوب اطاعتهم واحترامهم ، بل جميع الحيوانات من البهائم والسباع مطيعة للانسان مسخرة له لاختصاصه بقوة الادراك ومزيد التمييز . ولو تصفحت آحاد الناس لم تجد أحداً له تفوق وزيادة على غيره في جاه أو مال أو غير ذلك إلا وهو راجع الى اختصاصه بمزيد تمييز وادراك ، ولو كان من باب المكر والميل .

هذا وما يدل على شرافة العلم من الآيات والأخبار أكثر من أن تحصي .
نبذة منها قوله تعالى .

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) « ١ »

وقوله تعالى :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) « ٢ »

وقوله تعالى :

(وَمَنْ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) « ٣ »

وقوله تعالى :

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) « ٤ »

وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (اللهم ارحم خلفائي قيل يا رسول الله من خلفائك قال الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : لأبي ذر (جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله تعالى من قيام ألف ليلة يصلي في كل ليلة ألف ركعة ، وأحب إليه من ألف غزوة ، ومن قراءة القرآن كله اثني عشر ألف مرة ، وخير من عبادة سنة صام نهارها ، وقام ليلها ، ومن خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبي من الأنبياء ، وثواب ألف شهيد من شهداء بدر ، وأعطاه الله بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة في الجنة ، وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة

(١) الفاطر الآية ٣٥ .

(٢) البقرة الآية ٣٦٩ .

(٣) العنكبوت الآية ٤٣ .

(٤) العنكبوت الآية ٤٢ .

والنبيون ، ولا يحب العلم إلا السعيد ، وطوبى لطالب العلم ، والنظر في وجه العالم خير من عتق ألف رقبة ، ومن أحب العلم وجبت له الجنة ويصبح ويمسي في رضى الله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة ولا يأكل الدود جسده ، ويكون في الجنة رفيق خضر عليه السلام .

وقول امير المؤمنين عليه السلام : (ان كمال الدين طلب العلم والعمل به وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال ، وإن المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم وقد ضمنه وسيفي لكم ، والعلم مخزون عند أهله فاطلبوه) وقوله عليه السلام . (إذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة سترًا بينه وبين النار ، وأعطاه الله بكل حرف عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات) .

وقول سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام : (لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج) .

وقول الباقر عليه السلام : (عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد) .
وقول الصادق عليه السلام : (لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدّوا أعينهم الى ما متّع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا واعمىها ، وكانت دنياهم أقلّ عندهم مما يطؤون بأرجلهم ، ولتنتعموا بمعرفة الله وتلذّذوا بها تلذّذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله . إن معرفة الله تعالى انس من كل وحشة ، وصاحب من كل وحشة ، ونور من كل ظلمة ، وقوة من كل ضعف ، وشفاء من كل سقم . قد كان قوم قبلكم يُقتلون ويُحرقون ويُنشرون وتضيق عليهم الأرض برحبها ، فما يردّهم عما هم عليه شيء مما هم فيه من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا اذى بما تقموا منهم ، (إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (١)

فاسألوا ربكم درجاتهم واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم) .
وعن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال (طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فاطلبوا العلم في مظانه واقتبسوه من أهله ، فان تعلمه الله تعالى حسنة ، وطلبه عبادة ، والمذاكرة به تسبيح ، والعمل به جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة الى الله لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة والمؤنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة والوحدة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء . يرفع الله به أقواماً ، ويجعلهم في الخير قادة ، تقتبس آثارهم ، ويقنذى بأفعالهم ، وينتهي الى آرائهم . ترغب الملائكة في خلّتهم وبأجنتها تمسحهم وفي صلاتها تبارك عليهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وانعامه . إن العلم حياة القلوب من الجهل وضياء الأبصار من الظلمة وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ومجالس الأبرار والدرجات العلى في الآخرة والاولى .
اللّٰه كرم فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام . به يطاع الرّب ويعبد وبه توصل الأرحام ويعرف الحلال والحرام . العلم امام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظّه) .

آداب التعلّم والتعليم

(تنبيه) لكل من التعلّم والتعليم آداب وشروط .
﴿ أما آداب التعلّم ﴾ ، فمنها أن يجتنب المتعلّم عن اتباع الشهوات والهوى والاختلاط بأبناء الدنيا . ولقد قال بعض الأكابر كما : « أن الحاسة

الجليدية إذا كانت مؤفة برمد ونحوه فهي محرومة من الأشعة الفائضة عن الشمس كذلك البصيرة إذا كانت مؤفة بمتابعة الشهوات والهوى والمخالطة بأبناء الدنيا فهي محرومة من ادراك الأنوار القدسية ومحجوبة عن ذوق اللذات الانسية .
(ومنها) ان يكون تعلمه مجرد التقرب الى الله والفوز بالسعادات الآخروية ، ولم يكن باعثه شيئاً من المراء والمجادلة والمباهاة والمفاخرة والوصول الى جاه ومال أو التفوق على الأقران والأمثال ، قال الباقر عليه السلام : « من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار ، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها » ، وقال الصادق عليه السلام : « طلبة العلم ثلاثة فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم : صنف يطلبه للجهل (١) والمراء ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل ، وصنف يطلبه للفقه والعقل ، فصاحب الجهل والمراء مؤذٍ ممارٍ متعرض للمقال في اندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم ، وقد تسربل بالخشوع وتخلّى من الورع ، فدقّ الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه وصاحب الاستطالة والختل ذو رخب وملق يستطيل على مثله من أشباهه ويتواضع للأغنياء من دونه فهو حلوانهم (٢) هاضم ولدينه حاطم فأعصى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره ، وصاحب الفقه والمقل ذو كآبة وحزن وسهر ، قد نحتك في برنسه وقام الليل في حنّده يعمل ويخشى ورجلاً داعياً مشفقاً مقيلاً

(١) الجهل هنا بمعنى الجفاء والغلظة .

(٢) قال الشيخ [ملا صالح المازندراني] في تعليقه على اصول الكافي عن هذا الحديث : [الحلوان بضم الحاء المهملة وسكون اللام ما تأخذه الحكام والقضاة والكاهن من الاجر والرشوة على اعمالهم ، يقال حلوته آكلوه حلواناً فهو مصدر كالغفران ونونه زائدة وأصله من الحلاوة . وفي بعض النسخ (الحلوانهم) بالهمزة بعد الألف ، والحلواء بالمد والقصر ما يتخذ من الحلاوة] .

على شأنه عارفاً بأهل زمانه مستوحشاً من أوثق اخوانه ، فشدّ الله من هذا
أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه .

(ومنها) أن يعمل بما يفهم ويعلم فإنّ من عمل بما يعلم ورثه الله ما لم يعلم
وقال الصادق عليه السلام : « العلم مقرون الى العمل ، من علم عمل ، ومن عمل
علم ، والعلم يهتف بالعمل فإن اجابه وإلا ارتحل عنه » ، وعن السجاد عليه السلام
« مكتوب في الانجيل لا تطلبوا علم ما لا تعملون ولما تعملوا بما علمتم ، فإن
العلم إذا لم يعمل به لم يزد صاحبه إلا كفراً ولم يزد من الله إلا بعداً » ، وعن
النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجاً ومن أراد
به الدنيا فهي حظّه » ، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : « العلماء رجلان : رجل
عالم أخذ بعلمه فهذا ناج ، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك » ، وأن أهل النار ليتأذّون
من ريح العالم التارك لعلمه ، وأن أشدّ أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً
الى الله فاستجاب له وقبل منه ، فأطاع الله فأدخله الجنة ، وأدخل الداعي النار
بترك عمله (١) واتباعه الهوى وطول الأمل ، اما اتباع الهوى فيصد عن الحق
وطول الأمل ينسي الآخرة .

(ومنها) أن يحافظ شرائط الخضوع والادب للمعلم ، ولا يرد عليه
شيئاً بالمواجهة ويكون محباً له بقلبه ولا ينسى حقوقه ، لأنه والله المعنوي
الروحاني وهو أعظم الآباء الثلاثة ، قال الصادق عليه السلام : « اطلبوا العلم
وتزينوا معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم ، وتواضعوا لمن طلبتم منه
العلم ، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم » .

(١) صحيحناه على بعض نسخ اصول السكاكي المصححة . وفي نسخ

جامع السعادات هكذا (بتركه علمه) .

هذا وقد اشرنا سابقاً الى أن اللازم لكل متعلّم أن يطهّر نفسه أولاً من رذائل الأخلاق وذمائم الأوصاف بأسرها ، إذ ما لم يجرد لوح نفسه عن النقوش الرديّة لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة من ألواح العقول الفعّالة القدسية .

* * *

﴿ وأما آداب التعليم ﴾ ، فمنها ان يخلص المعلم تعليمه لله سبحانه ولم يكن له فيه باعث دنيوي من طمع مالي أو جاه ورئاسة أو شهرة بين الناس ، بل يكون الباعث مجرد التقرب الى الله تعالى والوصول الى المثوبات الأبدية ، فإن من علّم غيره علماً كان شريكاً في ثواب تعليم هذا الغير لآخر ، وفي ثواب تعليم هذا الآخر لغيره ، وهكذا الى غير النهاية ، فيصل بتعليم واحد الى مثوبات التعاليم الغير المتناهية ، وكفى بهذا له فضلاً وشرفاً .

ومنها ان يكون مشفقاً على المتعلم ناصحاً له ، مقتصرّاً في الافادة على قدر فهمه ، متكافئاً معه باللين والهماشة لا بالغلظة والفظاظة .

ومنها أن لا يضمن العلم من أهله ويمنعه عن غير أهله ، لأن بذل الحكمة للجهال ظلم عليها ، ومنعها عن أهلها ظلم عليهم ، كما ورد في الخبر « ١ » .

ومنها أن يقول ما يعلم ويسكت عما لا يعلم حتى يرجع اليه ويعلمه ، ولا يخبر المتعلمين ببيان خلاف الواقع ، وهذا الشرط لا يختص بالمعلمين بل يعمّ كل من تصدر عنه المسائل العلمية كالمفتي والقاضي وأمثالهما ، وقال الباقر عليه السلام : « حق الله

« ١ » روى في اصول الكافي في باب بذل العلم عن الصادق عليه السلام

« قام عيسى بن مريم خطيباً في بني اسرائيل فقال يا بني اسرائيل لا تحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » .

على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون » « ١ » وقال الصادق عليه السلام : « إن الله تعالى خص عباده بآيتين من كتابه ألا يقولوا حتى يعلموا ولا يردوا ما لم يعلموا ، فقال : (أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) « ٢ » وقال : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) « ٣ » وعنه عليه السلام : (إذا سئل الرجل منكم عما لا يعلم فليقل لا أدري ، ولا يقل الله أعلم فيوقع في قلب صاحبه شكاً ، وإذا قال المسؤل لا أدري فلا يتهمه السائل) ، وعنه عليه السلام (إياك وخصلتين ففيهما هلك من هلك . إياك أن تفتي الناس برأيك أو تدين بما لا تعلم) وعن الباقر عليه السلام « من أفتى الناس بغير علم ولا هدى لغنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، ولحقه وزر من عمل بفتياه » .

وربما كان لكل من المتعلم والمعلم آداب آخر تظهر لمن وقف على فن الأخلاق ، ثم العارف بأهل زماننا يعلم أن آداب التعلم والتعليم كسائر الآداب والفضائل فيهم مهبورة ، والأمر في مثل الزمان كما قال في وصفه بعض أهل العرفان : « قد فسد الزمان وأهله وتصدى للتدريس من قلّ علمه وكثر جهله فانحطّت مرتبة العلم وأصحابه واندرست مراسمه بين طلابه » .

« ١ » الحديث المروى في اصول الكافي هكذا . [عن زرارة بن أعين

قال سألت أبا جعفر عليه السلام ما حق الله على العباد ، قال : أن يقولوا ما يعلمون] إلى آخر الحديث ..

« ٢ » الأعراف الآية ١٦٨ .

« ٣ » يونس الآية ٤٠ .

تقديم

«العلم الإلهي وعلم الأخلاق والتفقه أشرف العلوم»

«العلم كله وإن كان كلاً، فانفس وسعادة، إلا أن فنونه متفاوتة في الشرافة والجمال ووجوب التحصيل وعدمه»، فالتبعض بها كالطب والهندسة والعروض والموسيقى، وأمثالها مما ترجع جل فائدته إلى الدنياء ولا يحصل بها مزيد من نفع وسعادة في العقبى، ولذا عدت من علوم الدنيا دون الآخرة، نولاً يجب تحصيلها، وربما وجب بحصول بعضها كفاية ..

وما هو علم الآخرة الواجب تحصيله، وأشرف العلوم وأحسنها هو العلم الإلهي المأترف لأصول الدين، وعلم الأخلاق المعروف بالحيات النفس ومهلكاتها، وعلم الفقه المعروف بكيفية العبادات والمعاملات، والعلوم التي مقتضيات هذه الثلاثة كالمربية والمنطقي وغيرهما ينصف بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقتضية. وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها اجتهاداً إلا أنها في كيفية الأخذ مختلفة: فعلم الأخلاق يجب أخذه عيناً على كل أحد على ما بينته الشريعة وأوضحه علماء الأخلاق، وعلم الفقه يجب أخذه بعضه عيناً لما بالدليل أو التقليد من مجتهد عي، والناظر لطريقين غير معذور، وثنا ورد الحث الإلزامي على التفقه في الدين، قال الصادق عليه السلام: «عليكم بالتفقه في دين الله ولا تسكونوا أعرباً»، فانه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر إليه يوم القيامة ولم يرك له عملاً»، وقال: «ليت الشياطين على رؤس أضخاني حتى ينقموا في الخلال والحرام»، وقال عليه السلام: (إن آية الكذاب أن

يخبرك خبر السماء والأرض والمشرق والمغرب فإذا سأله عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء) .

وأما أصول العقائد فيجب أخذها عيناً من الشرع والعقل ، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر ، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله والحاكم العدل الذي تطابق أحكامه الواقع ونفس الأمر ، فلا يرد حكمه ، وولادة ما غرق الشرع ، ولذا ورد : « أنه ما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه ، ولا بلغ جميع العبادين في فضل عبادتهم ما يبلغ العاقل » « ١ » فهما متعاضدان ومتظاهران وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضاً ، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفاً لمقتضى ما هو حجة فاطمة وأحكامه للواقع مطابقة ، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل ، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج . وما يترأى في بعض المواضع من التخالّف بينهما إنما هو لقصور العقل ولعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع منه ، فإن كل عقل ليس تاماً ، وكلما ينسب إلى الشرع ليس ثابتاً منه ، فلباطل هو العقل الصحيح وما ثبت قطعاً من الشريعة ، وأصح العقول وأقواها وأمتنها وأصفها هو عقل صاحب الوحي ، ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا إلى دركه ، كتنافيل أحوال نشأة الآخرة ، فاللازم في مثله أن تأخذه منه إذعاناً وإن لم يعرف مأخذه العقلي

أصول العقائد المجمع عليها

ثم ما اجتمعت الأمة المختارة عليه من أصول العقائد هو : أن الواجب

« ١ » هذا الحديث رواه في أصول الكافي عن النبي صلى الله عليه وآله في كتاب العقل والجهل وصححه جماعة عليه ، وفي نسخة جامع السعادات اختلاف عما هنا .

سبحانه موجود ، وانه واحد في الالهية ، وبسيط عن شوائب التركيب ، ومنزه عن الجسمية وعوارضها ، وان وجوده وصفاته عين ذاته ، وانه متقدم على الزمان والمكان ومتعال عنهما ، وانه حي قديم أزلي قادر مرید عالم بجميع الاشياء ، وعلمه بها بعد ايجادها كعلمه بها قبله ، ولا يزداد باحداثها علماً ، وان قدرته عامة بالنسبة الى جميع الممكنات ، وانه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، وانه عدل في حكمه صادق في وعده . وبالجملة مستجمع لجميع الصفات الكالية ، وليس كمثل شيء ولا يتصور عقل ولا وهم مثله ، بل هو تام فوق التمام .

وأن القرآن كلامه ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم رسوله ما أتى به من امور النشأة الآخرة من الجنة والنار والحساب والثواب والعقاب والصراف والميزان والشفاعة وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة ، حق ثابت ، فيجب على كل مؤمن ان يأخذ بجميع ذلك ويتشبث به ويجرد باطنه له ، بحيث لو أورد عليه ما ينقضه لم يقبله ولم يعرضه شك وريب .

ثم ان المكلفين مختلفون في كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة . فبعضهم فيها على يقين مثل ضوء الشمس ، بحيث لو كشف « ١ » عنهم الغطاء ، ما ازدادوا يقيناً ، وبعضهم على يقين دون ذلك ، واقل هؤلاء رتبة ان تصل مرتبة يقينهم الى طمأنينة لا اضطراب فيها ، وبعضهم على مجرد تصديق ظني ينزل من الشبهات والتاء النقيض ، والى هذا الاختلاف اشار الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام بقوله : (ان المؤمنين على منازل منهم على واحدة ومنهم على

« ١ » كما قال امير المؤمنين عليه الصلاة والسلام [لو كشف لي الغطاء

ما ازددت يقيناً] .

اثنين ومنهم على ثلاث ومنهم على اربع ومنهم على خمس ومنهم على ست ومنهم على سبع ، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقو... الى آخره) «١» والامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام بقوله : «ان للآيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهى تمامه ومنه الناقص البين نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه » .

ولا ريب في أن تحصيل ما يطمئن به القلب في العقائد الواجبة اخذها مما لا بد منه لكل مكلف ، وبمجرد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة في الاخرى والوصول الى مراتب المؤمنين ، ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح ، وإن لم يكن حصوله من تفاصيل البراهين الحكيمة والدلائل الكلامية ، بل كان حاصلًا من دليل اجمالي برهاني أو اقناعي ، إذ الشرع الشريف لم يكلف بأكثر من التصديق والجزم بظاهر العقائد المذكورة ، ولم يكلف البحث والتفتيش عن كیفياتها وحقائقها وعن تكلف ترتيب الأدلة في نظمها ، فلو حصل لأحد طمأنينة في اتصاف الواجب بجميع الصفات الكمالية وبرأته عن الصفات السلبية ، بمجرد أن عدم الاتصاف بالأعلى والاتصاف بالثانية نقص لا يليق بذاته الأقدس ، كان كافياً في النجاة والدخول في زمرة المؤمنين . وكذا إذا حصل له ذلك بمجرد أن هذا مما اتفق عليه فرق الأنبياء وأساطين الحكماء والعلماء ، وقوة عقولهم ودقة أفهامهم تأبى عن اتفاقهم على محض الخطأ . وقس على ذلك غيره مما يفيد الاطمئنان كائنا ما كان .

«١» الحديث مروي في اصول الكافي في باب درجات الايمان وبقية : [وعلى صاحب الثلاث اربعاً لم يقو وعلى صاحب الأربع خمساً لم يقو وعلى صاحب الخمس ستماً لم يقو وعلى صاحب الست سبعاً لم يقو وعلى هذه الدرجات] .

قال العلامة (الطوسي) « ره » في بعض تصانيفه : « أقلّ ما يجب اعتقاده على المكاف هو مترجمة قول لا إله إلا الله محمد رسول الله » ثم إذا صدّق الرسول ينبغي ان يصدّقه في صفات الله واليوم الآخر وتعيين الامام المعصوم ، كل ذلك مما يشتمل عليه القرآن من غير مزيد برهان : أما في صفات الله فبأنه حي عالم قادر مرید متكلم ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، وأما في الآخرة فبالإيمان بالجنة والنار والصراط والميزان والحساب والشفاعة وغيرها ، ولا يجب عليه أن يبحث عن حقيقة الصفات وأن الكلام والعلم وغيرها حادث أو قديم ، بل لولم تخطر هذه بباله ومات مات مؤمناً ، فإن غلب على قلبه شك أو إشكال ، فإن أمكن إزالته بكلام قريب من الأفهام وإن لم يكن قوياً عند المتكلمين ولا مرضياً فذلك كاف ، ولا حاجة الى تحقيق الدليل ، فإن الدليل لا يتم إلا بذكر الشبهة والجواب ، ومهما ذكرت الشبهة لا يؤمن أن تتشبّث بالخطأ والقلب فيظنها حقة لقصوره عن ادراك جوابها ، إذ الشبهة قد تكون جليّة والجواب دقيقاً لا يحتمله عقله ، ولذا ورد الزجر عن البحث والتفتيش في الكلام ، وإنما زجر ضعفاء العوام ، وأما أئمة الدين فلهم الخوض في غمرة الاشكالات . ومنع العوام عن الكلام بحري مجرى منع الصبيان عن شاطئ دجلة خوفاً من الغرق ، ورخصة الأقوياء فيه ايضاً هي رخصة الماهر في صنعة السباحة ، إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم ، وهو ان كل ضعيف في عقله يظن انه يقدر على ادراك الحقائق كلها ، وانه من جملة الأقوياء ، فربما يخوضون ويغرقون في بحر الجهالات من حيث لا يشعرون ، فالصواب منع الخلق كلهم — إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين — من تجاوز سلوك أهل العلم في الإيمان المرسل والتصديق الجميل بكل ما أنزل الله وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،

فمن اشتغل بالخوض فيه فقد أوقع نفسه في شغل شاغل ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين رأى أصحابه يخوضون بعد أن غضب حتى احمرت وجنتاه : (أفبهذا أمرتم ؟ تضربون كتاب الله ببعضه ببعض ! انظروا فيما أمركم الله فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا) فهذا تنبيه على منهج الحق .

ثم لا ريب في أن نورانية اليقين ووضوحه بل واطمئنان القلب وسكونه لا يحصل من مجرد صنعة الجدل والكلام ، كما لا يحصل من محض التلقين وتقليد العوام ، بل (الأول) اعني الاستضاءة بنور اليقين يتوقف على ملازمة الورع والتقوى ووظام النفس عن الهوى وإزالة كدرتها وصدأها (وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) « ١ » ، وتطهيرها عن ذمائم الصفات والاشتغال بمشاق الرياضة والمجاهدات ، حتى يقذف في قلبه نور إلهي تنكشف به الحجب والأستار عن حقائق هذه العقائد ، وهو غاية مقصد الطالبين وقرّة عيون الصديقين والمقرّين ، وله درجات ومراتب ، والناس فيه مختلفون بحسب اختلافهم في القوة والاستعداد والسعي والاجتهاد ، كما هم مختلفون في إدراك أنواع العلوم والصنائع ، « وكل ميّسر لما خلق له » (٢) .

وأما (الثاني) اعني مجرد الاعتقاد الجازم الراسخ بظواهر تلك العقائد فيمكن أن يحصل بما دون ذلك ، بأن يشتغل بعد تلقين هذه العقائد والتصديق بها بوظائف الطاعات ، ويصرف برهة من وقته في شرائف العبادات ، ويواظب على تفسير القرآن وتلاوته ، ودرس الحديث ودرايته ، ويحترز عن مخالطة أولي المذاهب الفاسدة وذوي الآراء الباطلة ، بل يجتنب كل الاجتناب عن مراقبة

« ١ » الشمس الآية ٩ .

« ٢ » حديث نبوي مشهور ، تقدم ذكره صفحة [٢٦] .

أرباب الهوى واصحاب الشر والشقاء ، ويختار مصاحبة أهل الورع واليقين ،
ومجالسة الأتقياء والصالحين ، ويلاحظ سيئاتهم وسيرتهم وهيئاتهم في الخضوع لله
والاستكانة ، فيكون التلقين كالقاء البذر في الصدر ، وهذه الامور كالسقي
والترية له ، فينمو ذلك البذر بها ويتقوى ويزداد رسوخاً ، حتى يرتفع شجرة
طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء . ثم من وصل الى مقام العقيدة الجازمة
إن اشتغل بالشواغل الدنيوية ولم يشتغل بالرياضة والمجاهدة لم ينكشف له غيره ،
ولكنه إذا مات مات مؤمناً على الحق وسلم في الآخرة ، وإن اشتغل بتصقيل
النفس وارتياضها انشرح صدره وانفتح له باب الافاضة ووصل الى المرتبة الأولى .

انواع الرذائل المتعلقة بالعاقبة

اما الأنواع المتعلقة بالعاقبة فمنها

الجهرل المركب

وهو خلو النفس عن العلم واذعانها بما هو خلاف الواقع ، مع اعتقاد كونها
عالمة بما هو الحق ، فصاحبه لا يعلم ولا يعلم انه لا يعلم ، ولذا سمي مركباً ، وهو
أشد الرذائل واصعبها ، وازالته في غاية الصعوبة ، كما هو ظاهر من حال بعض الطلبة ،
وقد اعترف اطباء النفوس بالعجز عن معالجته كما اعترف اطباء الابدان بالعجز
عن معالجة بعض الأمراض المزمنة ، ولذا قال عيسى عليه السلام (اني لا أعجز
عن معالجة الأكه والابرس وأعجز عن معالجة الأحمق) . والسر فيه أنه مع
قصور النفس بهذا الاعتقاد الفاسد لا يتنبه على نقصانها فلا يتحرك للطلب فيبقى

في الضلالة والردي مادام باقياً في دار الدنيا . ثم المنشأ له ان كان اعوجاج السليقة فانفع العلاج له تخريض صاحبه على تعلم العلوم الرياضية من الهندسة والحساب ، فانها موجبة لاستقامة الذهن لافه لأجلها باليقينيات فيتنبّه على خلل اعتقادهاء، فيصير جهلها بسيطاً ، فينتهض للطلب . وإن كان خطأ في الاستدلال ، فليوازن استدلاله لاستدلالات أهل التحقيق والمشهورين باستقامة القريحة ، ويعرض أدلة المطلوب على القواعد الميزانية باحتياط تام واستقصاء بليغ ، حتى يظهر خطاه . وإن كان وجود مانع من عصبية أو تقليد أو غير ذلك فليجتهد في ازالته .

ومررها الشك والحيرة

وهو من باب رداءة الكيفية ، وهو عجز النفس عن تحقيق الحق وابطال الباطل في المطالب الخفية ، والغالب حصوله من تعارض الأدلة ، ولاريب انه مما يهلك النفس ويفسدها ، اذ الشك ينافي اليقين الذي لا يتحقق الايمان بدونه . قال امير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه : « لا ترتابوا فتشكوا ولا تشكوا فتكفروا » وكأن الارتباب في كلامه عليه السلام مبدأ الشك ، وقال الباقر عليه السلام « لا ينفع مع الشك والجحود عمل » وقال الصادق عليه السلام : « إن الشك والمعصية في النار ليس منا ولا الينا » وسئل عليه السلام عن قول الله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) « ١ » قال : (بشك) وقال عليه السلام : (من شك في الله تعالى بعد مولده على الفطرة لم ينفء الى خير أبداً) وقال عليه السلام : (من شك أو ظن فأقام على احدهما احبط الله عمله إن حجة الله هي الحجة الواضحة) وقال عليه السلام : (من شك في الله تعالى

وفي رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر) وبمضمونه وردت أخبار أخر ،
وغير خفي أن المراد بالشك ما يضعف الاعتقاد ويزيل اليقين لا مجرد الوسوسة
وحديث النفس ، لما يأتي أنه لا ينافي الايمان ، بل الظاهر من بعض الأخبار أن إيجاب
الشك للكفر إذا انجر إلى الجحود كما روى أن أبا بصير سأل الصادق عليه السلام
ما تقول فيمن شك في الله تعالى ؟ قال : (كافر) قال فشك في رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : (كافر) ، ثم التفت الى زرارة فقال : (إنما
يكفر إذا جحد) .

ثم علاجه ان يتذكر أولاً قضية بدئية هي أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان
ومنه يعلم اجمالاً أن أحد الشقوق العقلية المتصورة في المطلوب ثابت في الواقع
ونفس الأمر والبواقي باطلة ، ثم يتصفح المقدمات المناسبة للمطلوب ويعرضها على
الأكيسة المنطقية باستقصاء بليغ واحتياط تام في كل طرف حتى يقف على موضع
الخطأ ويجزم بحقيقة أحد الشقوق وبطلان الآخر . والغرض من وضع المنطق
(لا) سيما مباحث القياسات السوفسطائية المشتملة على المغالطات ازالة هذا
المرض . ولو كان ممن لا يقتدر على ذلك ، فالعلاج في حقه أن يواظب على العبادة
وقراءة القرآن ويشغل بمطالعة الأحاديث وسماعها من أهلها ويجالس الصالحين
والمتقين واصحاب الورع وأهل اليقين ، لتكتسب نفسه بذلك نورانية يدفع
بها ظلمة شكه .

وصل

البقي

قد عرفت أن ضد الجهل المركب والخيرة والشك هو (اليقين) ، وأول
مراتبه اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وإن قويته ، فالاعتقاد

الذي لا يطابق الواقع ليس يقينياً وإن جزم به صاحبه واعتقد مطابقتها للواقع ، بل هو كما اشير اليه جهل مركب ينشأ عن اعوجاج القرينة أو خطأ في الاستدلال أو حصول مانع من افاضة الحق كتقليد أو عصبية أو غير ذلك ، فاليقين من حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضد الحيرة والشك ، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع فيه يكون ضدًا للجهل المركب . ثم العلم ان لم يعتبر فيه المطابقة للواقع ففرقه عن اليقين ظاهر ، وإلا فيتساويان ويتشاركان في المراتب المثبتة لليقين .

هذا ومتعلق اليقين اما اجزاء الايمان ولوازمه من وجود الواجب وصفاته الكمالية وسائر المباحث الإلهية من النبوة وأحوال النشأة الآخرة أو غيرها من حقائق الأشياء التي لا يتم الايمان بدونها . ولا ريب في أن مطلق اليقين أقوى اسباب السعادة ، وإن كان اليقين في المباحث الإلهية ادخل في تكميل النفس وتحصيل السعادة الآخروية ، لتوقف الايمان عليه ، بل هو أصله وركنه وغيره من المراتب فرعه وغصنه ، والنجاة في الآخرة لا تحصل إلا به والفاقد له خارج عن زمرة المؤمنين داخل في حزب الكافرين .

وبالجملة اليقين أشرف الفضائل الخلقية وأهمها وأفضل الكمالات النفسية وأعظمها وهو الكبريت الأحمر الذي لا يظفر به إلا أوحدي من أعظم العرفاء أو أئمة من أكابر الحكماء ، ومن وصل اليه فاز بالرتبة القصوى والسعادة العظمى ، قال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : (اليقين الايمان كله) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : (ما آدمي إلا وله ذنوب ، ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضربه الذنوب ، لأنه كلما أذنب ذنباً تاب واستغفر وندم فتكفر

ذنبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة) ، وقال الصادق عليه السلام (إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله تعالى من العمل الكثير على غير يقين) وعنه عليه السلام (إن الله تعالى بعده وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا وجعل الهم والحزن في الشك والسخط) ، وفي وصية لقمان لابنه : (يا بني لا استطاع العمل إلا باليقين ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه) .

علامات صاحب اليقين

ثم لصاحب اليقين علامات : (منها) ألا يلتفت في أموره الى غير الله سبحانه ، ولا يكون اتكاله في مقاصده إلا عليه ، ولا ثقته في مطالبه إلا به ، فيتبرئ عن كل حول وقوة سوى حول الله وقوته ، ولا يرى لنفسه ولا لابناء جنسه قدرة على شيء ولا منشأية لأثر ، ويعلم أن ما يرد عليه منه تعالى وما قدر له وعليه من الخير والشر سيساق اليه ، فتستوي عنده حالة الوجود والعدم والزيادة والنقصان والمدح والذم والفقر والغنى والصحة والمرض والعز والذل ولم يكن له خوف ورجاء إلا منه تعالى . والسرف فيه انه يرى الأشياء كلها من عين واحدة هو مسبب الأسباب ولا يلتفت الى الوسائط بل يراها مسخرة تحت حكمه قال الامام أبو عبد الله عليه السلام (من ضعف يقينه تعلق بالأسباب ورخص لنفسه بذلك واتبع العادات واقلوب الناس بغير حقيقة ، والسعي في امور الدنيا وجمعها وامساكها ، مقرأ باللسان انه لا مانع ولا معطي إلا الله ، وأن العبد لا يصيب إلا ما رزق وقسم له ، والجهد لا يزيد في الرزق ، وينكر ذلك بفعله وقلبه ، قال الله سبحانه : (يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي

قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) «١» وقال عليه السلام (ليس شيء إلا وله حد) قيل فما حد التوكل قال (اليقين) قيل فما حد اليقين قال (ألا تخاف مع الله شيئاً) وعنه عليه السلام (من صحة يقين المرء المسلم ألا يرضي الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤت به الله ، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهية كاره ، ولو أن أحداكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لادركه رزقه كما يدركه الموت) .

(ومنها) ان يكون في جميع الأحوال خاضعاً لله سبحانه ، خاشعاً منه ، قائماً بوظائف خدمته في السر والعلن ، مواظباً على امتثال ما أعطته الشريعة من الفرائض والسنن ، متوجهاً بشرائحه اليه ، متخضعاً متذللاً بين يديه ، معرضاً عن جميع ما عداه ، مفرغاً قلبه عما سواه ، منصرفاً بفكره الى جناب قدسه ، مستغرقاً في لجنة حبه وانسه . والسر أن صاحب اليقين عارف بالله وعظمته وقدرته وبأن الله تعالى مشاهد لأعماله وأفعاله مطلع على خفايا ضميره وهو اجس خاطره ، وأن (مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) « ٢ » فيكون دائماً في مقام الشهود لديه والحضور بين يديه ، فلا ينفك لحظة عن الحياء والجل والاشتغال بوظائف الادب والخدمة ، ويكون

« ١ » الآية من سورة آل عمران الآية : ١٦١ . وهذا الحديث منقول عن (مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة) المنسوب الى الصادق عليه السلام ، وهذا الكتاب قال فيه المجلسي قدس سره في مقدمة البحار : « فيه ما يريب اللبيب الماهر واسلوبه لا يشبه سائر كلمات الأئمة وآثارهم » ، ثم قال : « وان سنده يذهب الى الصوفية ولذا اشتمل على كثير من اصطلاحاتهم وعلى الرواية عن مشايخهم »

« ٢ » الزلزال الآية ٨-٩

سعيه في تخليقة باطنه عن الرذائل وتحليته بالفضائل لعين الله البكاللة أشد من
تزيين ظاهره لا بناء نوعه .

وبالجملة مَنْ يقينه بمشاهدته تعالى لأعماله الباطنة والظاهرة وبالجزاء
والحساب يكون ابداً في مقام امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وَمَنْ يقينه بما فعل الله في حقه من اعطاء ضروب النعم والاحسان ،
يكون دائماً في مقام الانفعال والخجل والشكر لمنعمه الحقيقي .

وَمَنْ يقينه بما يعطيه المؤمنون في الدار الآخرة من البهجة والسرور
وما اعده لخلاص عبيده مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب
أحد ، يكون دائماً في مقام الطمع والرجاء .

وَمَنْ يقينه باستناد جميع الامور اليه سبحانه وبأن صدور ما يصدر في
العالم إنما يكون بالحكمة والمصلحة والعناية الازلية الراجعة الى نظام الخير ،
يكون ابداً في مقام الصبر والتسليم والرضا بالقضاء من دون عروض تغير
وتفاوت في حاله .

وَمَنْ يقينه بكون الموت داهية من الدواهي العظمى وما بعده أشد
وادهى ، يكون ابداً محزوناً مهموماً .

وَمَنْ يقينه بخساسة الدنيا وفنائها ، لا يركن اليها . قال الصادق عليه
السلام في الكنز الذي قال الله تعالى (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا) «١» (بسم الله
الرحمن الرحيم عجبت لمن ايقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن ايقن بالقدر
كيف يحزن ، وعجبت لمن ايقن بالدنيا وتقلبها باهلها كيف يركن اليها .)

ومن يقينه بعظمة الله الباهرة وقوته القاهرة ، يكون دائماً في مقام

الهيبة والدهشة، وقد ورد أن سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم كان من شدة خضوعه وخشوعه لله تعالى وخشيته منه تعالى بحيث إذا كان يمشي يظن أنه يسقط على الأرض. ومن يقينه بكمالاته الغير المتناهية وكونه فوق التمام ، يكون دائماً في مقام الشوق والوله والحب وحكايات اصحاب اليقين من الأنبياء والمرسلين والأولياء والكاملين في الخوف والشوق وما يعترهم من الاضطراب والتغير والتلون وأمثال ذلك في الصلاة وغيرها مشهورة ، وفي كتب التواريخ والسير مسطورة. وكذا ما يأخذهم من الوله والاستغراق والابتهاج والانبساط بالله سبحانه ، وحكاية حصول تكرار الغشيات لمولانا امير المؤمنين عليه السلام في اوقات الخلوات والمناجاة وغفلته عن نفسه في الصلوات مما تواتر عند الخاصة والعامة . وكيف يتصور لصاحب اليقين الواقعي بالله وبعظمته وجلاله وباطلاعه تعالى على دقائق احواله ، أن يعصيه في حضوره ولا يحصل له الانفعال والخشية والدهشة وحضور القلب والتوجه التام اليه عند القيام لديه والمثول بين يديه ، مع أنا نرى أن الحاضر عند من له ادنى شوكه مجازية من الملوك والامراء مع رذالته وخساسته اولاً وآخرأً يحصل له من الانفعال والدهشة والتوجه اليه بحيث يغفل عن ذاته .

(ومنها) ان يكون مستجاب الدعوات بل الكرامات وخرق العادات. والسرفيه أن النفس كلما ازدادت يقيناً ازدادت تجرداً ، فتحصل لها ملكة التصرف في موارد الكائنات ، قال الامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام (اليقين يؤصل العبد الى كل حال سني ومقام عجيب كذلك اخبر رسول الله صلى الله عليه وآله من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يمشي على الماء ، فقال : (لو زاد يقينه لمشي في الهوى) فهذا

الخبر دلّ على أن الكرمات تزداد بازدياد اليقين ، وأن الأنبياء مع جلالة محلهم من الله متفاوتون في قوة اليقين وضعفه .

مرواتب اليقين

وقد ظهر ممّا ذكر أن اليقين جامع جميع الفضائل ولا ينفك عن شيء منها ، ثمّ له مراتب : (أوّلها) علم اليقين ، وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع كما مر ، وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والمزومات ، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان . و (ثانيها) عين اليقين ، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن ، وهو أقوى في الوضوح والجلال من المشاهدة بالبصر ، وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله : (لم أعبد ربّاً لم أره) بعد سؤال ذعلب التيماني عنه عليه السلام أرأيت ربك وبقوله عليه السلام (رأى قلبي ربي) ، وهو إنما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرد التام للنفس ، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عياناً . و (ثالثها) حق اليقين وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول ، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطة به غير منفك عنه ، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنة فيضان الأنوار والآثار منه إليه ، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق . وهذا إنما يكون لكامل العارفين بالله المستغرقين في لجة حبه وانسه ، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الأقدس ، وهم الصديقون الذين قصرُوا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله . وحصول هذه المرتبة يتوقف على مجاهدات شاقة ورياضات قوية ، وترك رسوم العبادات ، وقطع أصول الشهوات ، وقلع الخواطر النفسانية ، وإخماع الهواجس الشيطانية ، والظاهرة عن أدناس جيفة

الطبيعة ، والتنزّه عن زخارف الدنيا الدنية ، وبدون ذلك لا يحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة .

وكيف ترى ليلي بعين ترى بها سواها وما طهرتها بالمدامع
ثم فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض اهل السلوك ويعبرون عنه (بحقيقة
حق اليقين) والفناء في الله وهو أن يرى العارف ذاته مضمحلاً في أنوار الله
محترقاً من سبحات وجهه ، بحيث لا يرى استقلالاً ولا تحصيلاً أصلاً ،
ومثاله اليقين بوجود النار بدخوله فيها واحتراقه منها .

ثم لا ريب في أن اليقين الحقيقي النوراني المبررى عن ظلمات الأوهام والشكوك ،
ولو كان من المرتبة الأولى لا يحصل من مجرد الفكر والاستدلال ، بل يتوقف
حصوله على الرياضة والمجاهدة وتصقيل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الأخلاق
وصداها ، ليحصل لها التجرد التام فتحاذى شطر العقل الفعال ، فتتضح فيها
جلية الحق حق الانضاح . والسر أن النفس بمنزلة المرآة تنعكس اليها صور الموجودات
من العقل الفعال ، ولا ريب في أن انعكاس الصور من ذوات الصور الى المرآة
يتوقف على تمامية شكلها وصقالة جوهرها وحصول المقابلة وارتفاع الحائل بينهما
والظفر بالجهة التي فيها الصور المطلوبة فيجب في انعكاس حقائق الاشياء من
العقل الى النفس — ١ — عدم نقصان جوهرها ، فلا يكون كنفس الصبي
التي لا تنجلي لها المعلومات لنقصانها — ٢ — وصفائها عن كدورات ظلمة
الطبيعة واخبث المعاصي ، وتقائها عن رسوم العادات وخبائث الشهوات ،
وهو بمنزلة الصقالة عن الخبث والصدأ يبدأ — ٣ — وتوجيهها التام وانصراف
فكرها الى المطلوب ، فلا يكون مشغوب الهم بالأمور الدنيوية واسباب
المعيشة وغيرها من الخواطر المشوشة لها ، وهو بمنزلة المحاذاة — ٤ — وتخليتها

عن التعصب والتقليد ، وهو بمثابة ارتفاع الحجب — ه — واستحصال المطلوب من تأليف مقدمات مناسبة للمطلوب على الترتيب المخصوص والشروط المقررة ، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة .

ولولا هذه الاسباب المانعة للنفوس عن افاضة الحقائق اليقينية اليها ، لكانت عالمة بجميع الاشياء المرتسمة في العقول الفعالة ، اذ كل نفس لكونها أمراً ربانياً وجوهرًا ملكوتياً فهي بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق ، ولذا امتازت عن سائر المخلوقات من السموات والارض والجبال ، وصارت قابلة لحمل امانة الله « ١ » التي هي المعرفة والتوحيد ، فحرمان النفس عن معرفة اعيان الموجودات انما هو لاحد هذه الموانع ، وقد أشار سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم الى مانع التعصب والتقليد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه يهودانه ويمجسانه « ٢ » وينصرانه) ، والى مانع كدورات المعاصي وصدأها بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السموات والارض ، فلو ارتفعت عن النفس حجب السيئات والتعصب وحازت شطر الحق الاول تجلّت لها صورة عالم

« ١ » اشارة الى قوله تعالى (انا عرضنا الأمانة على السموات والارض فأبين ان يحملنها فحملنها الانسان انه كان ظلوما جهولا) الاحزاب الآية ٧٢ .
« ٢ » روى السيد المرتضى علم الهدى هذا الحديث في الجزء الثالث من اماليه بدون كلمة (يمجسانه) ، وكذا في غوالي اللئالي ، الا أن المعروف في روايته اضافة كلمة (يمجسانه) ولكنها بعد كلمة (ينصرانه) كما ارسلها في مجمع البيان ج ٨ ص ٣٠٣ طبع صيدا وكذا في مجمع البحرين في مادة (فطر) ، وكذا في صحيح البخاري ج ١ ص ٢٠٦ وصحيح مسلم ج ٢ ص ٤١٣ ومعالم التنزيل في هامش تفسير الخازن ج ٥ ص ١٧٢ وغير هؤلاء

المالك والشهادة بأسره ، اذ هو متناه يمكن لها الاحاطة به ، وصورة عالمي المملوكوت والجبروت بقدر ما يتمكن منه بحسب مرتبته ، لانها الاسرار الغائبة عن مشاهدة الابصار المختصة بادراك البصائر ، وهي غير متناهية ، وما يلوح منها للنفس متناه ، وان كانت في نفسها وبالإضافة الى علم الله سبحانه غير متناهية ومجموع تلك العوالم يسمى (بالعالم الربوبي) ، اذ كل ما في الوجود من البداية الى النهاية منسوب الى الله سبحانه ، وليس في الوجود سوى الله سبحانه وافعاله وآثاره ، فالعالم الربوبي والحضرة الربوبية هو العالم المحيط بكل الموجودات ، فعدم تناهيه ظاهر بين ، فلا يمكن للنفس أن تحيط بكلمه ، بل يظهر لها منه بقدر قوتها واستعدادها . ثم بقدر ما يحصل للنفس من التصفية والتزكية وما يتجلى لها من الحقائق والأسرار ومن عظمة الله ومعرفة صفات جلاله ونعوت جماله ، تحصل لها السعادة والبهجة واللذة والنعمة في نعيم الجنة وتكون سعة مملكته فيها بحسب سعة معرفته بالله وبعظمته وبصفاته وافعاله وكل منها لا نهاية له ، ولذا لا تستقر النفس في مقام من المعرفة . والبهجة والكمال والتفوق والغلبة تكون غاية طلبتها ولا تكون طالبة لما فوقها .

وما اعتقده جماعة من ان ما يحصل للنفس من المعارف الالهية والفضائل الخلقية هي الجنة بعينها فهو عندنا باطل ، بل هي موجبة لاستحقاق الجنة التي هي دار السرور والبهجة .
ومنها :

الشرك

وهو ان يرى في الوجود مؤثرا غير الله سبحانه ، فإن عبد هذيا الغير سواء كان صنما أو كوكبا أو انسانا أو شيطانا كان شرك عبادة ، وان لم يعبد

ولكن لا اعتقاده كونه منشأ أثر أطاعه فيما لا يرضى الله فهو شرك طاعة ، والأول يسمى بالشرك الجلي ، والثاني يسمى بالشرك الخفي واليه الإشارة بقوله تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) «١» وكون الشرك اعظم الكبائر الموبقة وموجباً لخلود النار مما لا ريب فيه ، وقد انعقد عليه اجماع الامة والآيات والأخبار الواردة به خارجة عن حد الإحصاء .

ثم للشرك مراتب يظهر في بحث ضده الذي هو التوحيد ، والشرك وان كان شعبة من الجهل ، كما أن التوحيد الذي هو ضده من افراد اليقين والعلم ، فذكرهما على حدة لم يكن لازماً هنا إلا انه لما كان المتعارف ذكر التوحيد في كتب الأخلاق فنحن ايضاً ذكرنا له عنواناً على حدة تأسيابها ، وأشرنا الى لمعة يسيرة منه إذ الاستقصاء فيه والخلوض في غمراته مما ليس في وسعنا ولا يليق هنا ، فإن التوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له .

وصل

التوحيد في الفعل

ضد الشرك (التوحيد) ، وهو اما توحيد في اصل الذات بمعنى عدم تركيب خارجي وعقلي في ذاته تعالى وعينية وجوده وصفاته لذاته ، ويلزمه كونه تعالى صرف الوجود وبجته ، أو توحيد في وجوب وجوده بمعنى نفي الشرك في وجوب الوجود عنه ، ولا بحث لنا هنا عن اثبات هذين القسمين ، لثبوتها في الحكمة المتعالية ، أو توحيد في الفعل والتأثير والايجاد ، بمعنى أن لا فاعل ولا مؤثر إلا هو ، وهو الذي نذكر هنا مراتبه وما يتعلق به ، فنقول :

هذا التوحيد على ما قيل له أربع مراتب : قشر ، وقشر القشر ، ولب ، ولب اللب ، كالجوز الذي له قشرتان وله لب ، وللب دهن وهو لب اللب ، (فالمرتبة الأولى) ان يقول الانسان باللسان لا إله إلا الله ، وقلبه منكر وغافل عنه ، كتوحيد المناقذين ، وهذا توحيد بمجرد اللسان ولا فائدة فيه الا حفظ صاحبه في الدنيا من السيف والسنان . (الثانية) ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما هو شأن عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام وصاحبه موحد ، بمعنى أنه معتقد بقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه . وهو عقد على القلب لا يوجب انشراحاً وانفتاحاً وصفاء له ، ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة ان مات عليه ولم يضعف بالمعاصي . (الثالثة) ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق ، وذلك بأن يرى اشياء كثيرة ولكن يراها بكثرتها صادرة عن الواحد الحق ، وهو مقام المقربين ، وصاحبه موحد ، بمعنى أنه لا يشاهد إلا فاعلاً ومؤثراً واحداً ، لأنه انكشف له الحق كما هو عليه . (الرابعة) ألا يرى في الوجود إلا واحداً ، ويسميه اهل المعرفة الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً ، فلا يرى نفسه ايضاً ، واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالواحد كان فانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه ، وهو مشاهدة الصديقين وصاحبه موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد . وهذا هي الغاية القصوى في التوحيد .

فالمرتبة الاولى كالقشرة العليا من الجوز ، وكما أن هذه القشرة لا خير فيها اصلاً ، بل إن أكلتها فهي مر المذاق ، وان نظرت الى باطنها فهو كره المنظر ، وإن اتخذتها حطباً اطفأت النار واكثرت الدخان ، وإن تركتها في البيت ضيقت المكان ، فلا تصلح إلا أن تترك مدة على الجوز لحفظ القشرة

السفلى ، ثم ترمى ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر مندموم الظاهر والباطن لكن ينفع مدة في تحفظ المرتبة الثانية الى وقت الموت .
 والمرتبة الثانية كالقشرة السفلى ، فكما أن هذه القشرة ظاهرة النفع بالاضافة الى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب عن الفساد عند الادخار واذا فصلت امكن ان ينتفع بها حطباً لكنها نازلة القدر بالاضافة الى اللب ، فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالنسبة الى مجرد نطق اللسان ، اذ تحصل به النجاة في الآخرة ، لكنه ناقص القدر بالاضافة الى الكشف والعيان الذي يحصل بانسراح الصدر وانفتاحه باسراق نور الحق فيه . والمرتبة الثالثة كاللب ، وكما أن اللب نفيس في نفسه بالاضافة الى القشر وكأنه المقصود لكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة الى الدهن منه ، فكذلك توحيد الفعل على طريق الكشف مقصد عال للساكنين ، إلا أنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق . والمرتبة الرابعة كالدهن المستخرج من اللب وكما أن اللب هو المطلوب لذاته والمرغوب في نفسه فكذلك قصر النظر على مشاهدة الحق الاول هو المقصود لذاته والمحبوب في نفسه .

(تنبيه) ان قيل : كيف يمكن تحقيق المرتبة الرابعة من التوحيد ؟ لتوقفها على عدم مشاهدة غير الواحد ، مع أن كل احد يشاهد الأرض والسماء وسائر الاجسام المحسوسة وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحداً (قلنا) : من يتيقن أن الممكنات بأسرها اعدام صرفة في نفسها ، وأن ما به تحققها من الله سبحانه ، ثم احاط على قلبه نور عظمته وجلاله بحيث يهره وغلب على قلبه الحب والانس حتى عن غيره اغفله ، فأى استبعاد في ان يوجب شدة استغراقه

في لجة العظمة والجلال والكمال والجمال وغلبة الحب والأنس عليه ، مع عدمية الكثرة ووحدة مابه التحقق عنده ورسوخ ذلك ، وارتكازه في قلبه أن لا يرى في نظر شهوده إلا هو ، ويغيب عنه غيره ، لقصر نظر بصيرته الباطنة على ماهو الحقيقة والواقع . ومما يكسر سورة استبعادك ان المشغول بالسلطان والمستغرق في ملاحظة سطوته ربما غفل عن مشاهدة غيره ، وان العاشق قد يستغرق في مشاهدة جمال معشوقه ويهمله حبه بحيث لا يرى غيره ، مع تحقق الكثرة عنده ، وان الكواكب موجودة في النهار مع انها لا ترى لمغلوبة أنوارها واضمحلالها في جنب نور الشمس ، فاذا جاز ان يغلب نور الشمس على نور الكواكب ويظهرها بحيث يضمحل ويغيب عن بصر الظاهر ، فأى استبعاد في ان يغلب نور الوجود الحقيقي القاهر على الموجودات الضعيفة الامكانية ويظهرها ، بحيث يغيب عن نظر العقل والبصيرة . ثم هذه المشاهدات التي لا يظهر فيها إلا الله الواحد الحق لا تدوم ، بل هي كالبرق الخاطف والدوام فيها عزيز نادر .

فصل

ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى

اعلم انه لا يمكن التوكل على الله تعالى في الامور حق التوكل إلا بالبلوغ الى المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهي التي يرتبط بها التوكل دون غيرها من المراتب ، اذ المرتبة الرابعة لا يتوقف ولا يبتني عليها التوكل ، والاولى مجرد نفاق لا يفيد شيئاً ، والثانية اعني مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يوزن حال موكل كما ينبغي ، فانه موجود في عموم المسلمين مع عدم وجود التوكل

كما ينبغي فيهم .

فالمناسط في التوكل هو ثالث المراتب في التوحيد ، وهو ان ينكشف للعبد بنور الحق ان لا فاعل إلا الله ، وان كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وغنى وفقر وصحة ومرض وعز وذل وحياة وموت الى غير ذلك مما يطلق عليه اسم ، فالمتفرد بابداعه واختراعه هو الله تعالى لا شريك له فيه ، واذا انكشف له هذا لم ينظر الى غيره ، بل كان منه خوفه واليه رجأؤه وبه ثقته وعليه اتكأله فانه الفاعل بالانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السموات والارض ، واذا انفتح له ابواب المعارف اتضح له هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصدّه الشيطان عن هذا التوحيد ، ويوقع في قلبه شائبة الشرك بالالتفات الى بعض الوسائط التي يتراءى في بادى النظر منشئتها لبعض الامور ، كالاعتماد على الغيم في نزول المطر ، وعلى المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها ، وعلى بعض نظرات الكواكب واتصالاتها في حدوث بعض الحوادث في الارض ، وكالاتفات الى اختيار بعض الحيوانات وقدرتها على بعض الافعال ، فيوسوس الشيطان في قلبه ويقول له : كيف ترى الكل من الله تعالى ، وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وان شاء منع ، وهذا الشخص قادر على جز رقبته بسيفه فان شاء جز رقبته وان شاء عفى عنك ، فكيف لا تخافه ولا ترجوه وأمرك بيده . وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه .

ولا ريب في أن امثال هذه الالتفاتات جهل بحقائق الامور ، ومن مكّن الشيطان وسلطه على نفسه حتى يوقع هذه الوسوس في قلبه ، فهو من الجاهلين بابواب المعارف ، إذ من من انكشف له أمر العالم كما هو عليه ، علم ان السماء

والكواكب والرياح والغيم والمطر والانسان والحيوان وغير ذلك من المخلوقات
كلهم مقهورون مسخرون للواحد الحق الذي لا شريك له ، فيعلم ان الرياح مثلاً هواء ،
والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك ، وهذا المحرك لا يحرك الهواء ما لم
يحركه على التحريك محرك آخر وهكذا الى ان ينتهي الى المحرك الاول الذي
لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه . وكذا الحال في توسط غيره من الافلاك
ونجومها وكائنات الجو ، والموجودات على الارض من الجماد والنبات والحيوان .
فالتفات العبد في نجاته الى بعض الاشياء من الرياح والامطار أو الانسان
أو الحيوان يضاهي التفات من أخذ لشجر رقبته ، فأمر الملك كاتبه بأن يكتب
توقيعاً بالعمود عنه وتخليته ، فاخذ العبد يشتغل بمدح الخبر أو الكاغد أو القلم
أو الكاتب ، ويقول لولا الخبر أو القلم أو الكاغد أو الكاتب ما تخلصت ،
فيرى نجاته من الخبر والكاغد دون القلم أو من القلم دون محرك أعني الكاتب
أو من الكاتب دون الملك الذي هو محرك الكاتب ومسخره . ومن علم أن
القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب ، وان الكاتب لا حكم له
وأما هو مسخر تحت يد الملك ، لم يلتفت الى القلم والكاتب ولم يشكر إلا الملك ،
بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك عن ان يخطر بباله الكاغد والخبر والقلم
والكاتب . ولا ريب في ان جميع المخلوقات من الشمس والقمر والنجوم والغيم
والمطر والارض وكل حيوان أو جماد مسخرات في قبضة القدرة ، كتسخير
القلم في يد الكاتب وتسخير الكاتب في يد السلطان ، بل هذا تمثيل في حق
العبد لا اعتقاده ان الملك الموقع هو الكاتب حقيقة ، وليس الامر كذلك ،
اذا الحق ان الكاتب هو الله سبحانه كما قال تعالى : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

وَلَا يَكُنَّ اللَّهُ رَمَى) «١» فمن انكشف له ان جميع ما في السموات والأرض مسخرات للواجب الحق ، لم ير في الوجود مؤثراً إلا هو ، وانصرف عنه الشيطان خائباً ، وأيس عن مزج توحيده بهذا الشرك .

وأما من لم ينشرح بنور الله صدره ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه وراء الكل ، فوقف في الطريق على بعض المسخرات ، وهو جهل محض ، وغلطه في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدب على الكاغذ فتري رأس القلم يسود الكاغذ ، ولم يمتد بصرها الى الاصابع واليد ، فضلاً عن صاحب اليد ، وظنت ان القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها .

فصل

مناجاة السر لآرباب القلوب

قال بعض العارفين : « ٢ » أرباب القلوب والمشاهدات قد انطق الله في حقهم كل ذرة في الأرض والسموات بقدرته التي انطق بها كل شيء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها وشهادتها على نفسها بالعجز ، بلسان الواقع الذي هو ليس بعربي ولا أعجمي ، وليس فيه حرف وصوت ، ولا يسمعه احد إلا بالسمع

« ١ » الأنفال الآية ١٧

« ٢ » المقصود به ابو حامد الغزالي في احياء العلوم راجع الجزء الرابع ص ١١٤ المطبوع بالمطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣٥٢ وسترى ان هذه الفصول مقتبسة منه بتغيير في العبارة وتقديم وتأخير . وكذلك هذا الفصل المنقول عنه فيه تغيير واختصار كثير وصاحب المكتاب اعترف فيما سبقاً تي باقتباس هذه الفصول من الغزالي .

العقلي المملوكوتي دون السمع الظاهر الحسي الناسوتي . وهذا النطق الذي لكل ذرة من الأرض والسماوات مع ارباب القلوب انما هو (مناجاة السر) ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فانها كلمات تستمد « ١ » من بحر كلام الله الذي لانهاية له : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) « ٢ »

ثم انهما لما كانت مناجية باسرار الملك والمملوكوت ، وليس كل أحد موضعاً للسر ، بل صدور الاحرار قبور الاسرار ، فاختصت مناجاتها بالاحرار من ارباب القلوب . وهم أيضاً لا يحكون هذه الاسرار لغيرهم ، إذ إفشاء السرّ لؤم ، وهل رأيت قط أميناً على أسرار الملك قد نوجي بخفائيه فينادي بها على الملائكة من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سرّ لما نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن إفشاء سر القدر ، ولما خص أمير المؤمنين عليه السلام ببعض الاسرار ، ولما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » بل كان يذكّر لهم ذلك حتى ييكون ولا يضحكون .

فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والمملوكوت لقلوب ارباب المشاهدة مانعان : (أحدهما) المنع عن إفشاء السرّ (ثانيهما) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية . ونحن نحكي في فعل الكتابة قدراً يسيراً من مناجاة بعض ما يرى أسباباً ووسائط ، واقرارها بالعجز على انفسها ، ليقاس عليه جميع الافعال الصادرة عن جميع الاسباب والوسائط المسخرة تحت قدرة الله ، ويفهم

« ١ » وفي نسختنا الخطية (لانها كلام يستمد) ولما كن الموجود في

المطبوعة وفي نسخة احياء العلوم كما ائتمناه في المتن .

« ٢ » الكهف الآية ١٠٩

به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونردّ لضرورة التفهّم كلماتها
الملكوّية الى الحروف والأصوات ، وان تكن لم أصواتاً وحروفاً ، فنقول :
قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله للكاغد ، وقد رأى وجهه اسودّ
بالحبر : (لمّ سوّدت وجهك وقد كان ابيض مشرقاً ؟)

فقال : (ما سوّدت وجهي ، وانما سوّده الحبر ، فاسأله لمّ فعل كذا ؟)
فسأل الحبر عن ذلك . فقال : (هذا السؤال على القلم الذي اخرجني
من مستقري ظلاماً)

فسأل القلم . فاحاله الى اليد والاصابع ، وهي الى القدرة والقوة ، وهي الى
الارادة ، معترفاً كل واحد منهم بعجز نفسه ، وبكونه مقهوراً مسخراً تحت قهر
الحال عليه من دون استطاعة لمخالفته .
ولما سأل الارادة ، قالت : (ما انتهضت بنفسي ، بل بُعثت على
إشخاص القدرة وإنهاضها ، بحكم رسول قاهر ورد عليّ من حضرة القلب
بلسان العقل ، وهذا الرسول هو العلم ، فالسؤال عن انتهاضي يتوجّه على
العقل والقلب والعلم)

ولما سألهما قال (العقل) : « أما انا فسراج ما اشتعلت بنفسي
ولكنني أشعلت »

وقال (القلب) : « أما انا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكنني بسطت »
وقال (العلم) : « أما انا فنقش نقش في لوح القلب لما أشرق
سراج العقل ، وما انتقشت بنفسي بل نقشني غيري ، فسل القلم الذي نقشني
ورسمني على لوح القلب بعد اشتعال سراج العقل »

وعند هذا تحير السائل وقال : « ما هذا القلم وهذا اللوح وهذا الخط

وهذا السراج ؟ فاني لا أعلم قلماً إلا من القصب ، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطأً إلا بالحر ، ولا سراجاً إلا من النار . واني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والقلم والخط والسراج ، ولا اشاهد من ذلك شيئاً » فقال له (العلم) : « فاذن بضاعتك منجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف ، والمهلك في الطريق الذي توجهت اليه كثيرة ، فان كنت راغباً في استتمام الطريق الى المقصد ، فاعلم ان العوالم في طريقك ثلاثة : (اولها) عالم الملك والشهادة ، ولقد كان الكاغد والحر والقلم واليد والأصابع من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، (وثانيها) عالم الملكوت الأسفل ، وهو يشبه السفينة التي بين الأرض والماء ، فلا هي في حد اضطراب الماء ، ولا هي في حد سكوت الأرض وثباتها ، والقدرة والارادة والعلم من منازل هذا العالم ، (وثالثها) عالم الملكوت الأعلى ، وهو من ورأي ، فاذا جاوزتني انتهيت الى منازل . وأول منازل القلم الذي يكتب به العلم على لوح القلب . وفي هذا العالم المهامه الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة » .

فقال له السائل السالك : « قد تحيرت في أمري ولست أدري اني اقدر على قطع هذا الطريق الخوف أم لا ، فهل لذلك علامة اعرف بها تمكيني على قطع هذا الطريق » .

فقال : « نعم ! افتح بصرك ، واجمع ضوء عينك وحدقه نحوي ، فان ظهورك القلم الذي به يكتب في لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق ، فان كل من جاوز الملكوت الأسفل وقرع أول باب من الملكوت الأعلى كوشف بالقلم . أما ترى النبي صلى الله عليه وآله وسلم كوشف به وانزل عليه قوله تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ... الى قوله : اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي

عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (« ١ » . وهذا القلم قلم إلهي ليس بقصب ولا خشب . أو ما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ، وقد علمت ان الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فليس في ذاته بجسم ولا هو في مكان فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدي ، ولا قلمه سائر الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط . بل هذه أمور إلهية من عالم الملكوت الأعلى ، فليست يده من لحم وعظم ودم ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه من صوت وحرف ، ولا خطه من نقش ورسم ورقم ، ولا حبره من زاج وعفص . فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فانت من أهل التشبيه والتجسيم وما عرفت ربك ، إذ لو نزهت ذاته تعالى وصفاته عن ذات الأجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن الحروف والأصوات ، فما بالك تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه ولا تنزهها عن الجسمية والتشبيه بغيرها .

فلما سمع السائل السالك من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه وفتح بصر بصيرته ، بعد الابتهاال الى ربه ، فأنكشف له القلم الإلهي ، فاذا هو كما وصفه العلم ، ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر اصناف العلم ، فشكر العلم وودعه ، وسافر الى حضرة القلم الإلهي ، وقال له :

« ايها القلم مالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبث به الارادات الى إنباض القدرة وإشخاصها وصرفها الى المقدورات . »

فقال له (القلم الإلهي) : « أفنسيت ما رأيت في عالم الملك وسمعته من جواب القلم الآدمي حيث أحلك الى اليد ، فجوابي مثل جوابه ، فاني التسخير

تحت يد الله تعالى الملقبة (يمين الملك) ، فأسأله عن شأني فاني في قبضته وهو الذي يردني ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الالهي والقلم الآدمي في معنى التسخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة .

فقال السائل : مَنْ يمين الملك ؟

قال القلم : أما سمعت قوله تعالى : « وَ السَّمُوتُ مَطْوِيَّاتٌ رِيمِيْنِه » (١) .

قال : نعم سمعته .

قال : والأقلام ايضاً في قبضته وهو الذي يرددها .

(فسافر السائل من عند القلم الى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ، ورأى أنه يمين لا كالأيمان ويد لا كالأيدي واصبع لا كالاصابع ، فرأى القلم متحركاً في قبضته ، فأسأله عن سبب تحريكه القلم) .

فقال : « جوابي ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة ، وهو الحوالة على القدرة ، إذ اليد لاحكم لها في نفسها ، وإنما محركها القدرة . »
(فسافر الى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقق لأجلها ما قبلها ، فأسأله عن سبب تحريكها اليمين) .

فقلت : « إنما أنا صفة فأسأل القادر ، إذ العهدة على الموصوف دون الصفة » . وعند هذا كاد أن يزيغ قلب السائل ، وينطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثبتت بالقول الثابت ونودي من وراء سرادقات الحضرة :

« لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » (١) .

فغشيت دهشة الحضرة ، فخرّ صعقاً في غشيته مدة ، فلما أفاق قال :
 « سبحانك ما أعظم شأنك وأعز سلطانك ، تبت إليك وتوكلت عليك ، وآمنت
 بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ، ولا
 أعوذ إلا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، وما لي إلا أن أسألك
 وأتضرع إليك ، وأقول : « أَشْرَحْ لِي صَدْرِي » لأعرفك « وَأَحْلُلْ
 عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي » (٢) لأثني عليك « فنودي من وراء الحجاب : « إياك
 أن تطمع في الثناء فان سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم ما زاد في هذه
 الحضرة على أن قال سبحانك : (لا اثني ثناءً عليك كما أنت أثنت على نفسك)
 وإياك أن تطمع في المرفة فان سيد الأوصياء قال : (العجز عن درك الإدراك
 ادراك والفحص عن سر ذات السر إشراك) ، فيكيفيك نصيباً من حضرتنا
 أنك عاجز عن ملاحظة جلالنا وجمالنا ، وقاصر عن ادراك دقائق حكمنا وأفعالنا)
 فعند هذا رجع السائل السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتبته ، وقال
 للقدرة واليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها : « اقبلوا عندي فاني
 كنت غريباً جديد العهد بالدخول في هذه البلاد ، والآن قد صحّ عندي عنكم
 وانكشف لي أن المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار ،
 وما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون في قبضته ، وهو الأول
 بالاضافة الى الوجود إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر
 بالاضافة الى سير المسافرين اليه فانهم لا يزالون مترقبين من منزل الى منزل الى أن

(١) الانبياء الآية ٢٣ .

(٢) طه الآية ٢٦ - ٢٨ .

يقع الانتهاء الى حضرة ، فهو أول في الوجود وآخر في المشاهدة ، وهو الظاهر بالاضافة الى من يطلبه بالسراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت ، وهو الباطن بالاضافة الى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس »

وهذا هو التوحيد في الفعل للسالكين الذين انكشف لهم وحدة الفاعل بالمشاهدة واستماع كلام ذرات الملك والملكوت ، وهو موقوف على الايمان بعالم الملكوت والتمكن من المسافة اليه واستماع الكلام من أهله . ومن كان أجنبياً من هذا العالم ولم يكن له استعداد الوصول اليه ولم يمكنه ان يسلك السبيل الذي ذكرناه ، فينبغي ان يرد مثله الى التوحيد الاعتقادي الذي يوجد في عالم الشهادة ، وهو ان يعلم ببعض الأدلة وحدة الفاعل ، مثل ان يقال له : إن كل أحد يعلم أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين ، فأية العالم ومدبره واحد اذ (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) « ١ » فيكون ذلك على ذوق مراءاه في عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق بقدر عقله واستعداده ، وقد كلفوا الأنبياء ان يكلموا الناس على قدر عقولهم .

ثم الحق أن هذا التوحيد الاعتقادي اذا قوى يصلح ان يكون عماداً للتوكل واصلا فيه ، اذ الاعتقاد اذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال ، إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع اليه الاضطراب ، فيحتاج الى من يحرسه بكلامه ، وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شيء من ذلك ، بل لو كشف له الغطاء لما ازداد يقيناً وان كان يزداد وضوحاً .

(تنبيه) اعلم أن ما يبتني عليه التوحيد المذكور ، اعني كون جميع

الاشياء من الاسباب والوسائط مقهورات مسخرات تحت القدرة الازلية ظاهر .
 وسائر ما أوردنا في هذا المقام مما ذكره أبو حامد الغزالي وتبعه بعض أصحابنا
 (ولا اشكال فيه إلا في افعال الانسان وحركاته) « ١ » فان البديهة تشهد
 بثبوت نوع اختيار له ، لأنه يتحرك ان شاء ويسكن ان شاء ، مع أنه لو كان
 مسخرًا مقهورًا في جميع أفعاله وحركاته ، لزم الجبر ولم يصح التكليف والثواب
 والعقاب . ولتحقيق هذه المسئلة موضع آخر ، ولا يليق ذكرها هنا والحق
 أن كلما قيل فيها لا يخلو عن قصور ونقصان ، والأولى فيها السكوت والتأدب
 بأداب الشرع « ٢ »
 ومنها .

الخواطر النفسانية والوساوس الشيطانية

اعلم أن الخاطر ما يعرض في القلب من الافكار فإن كان مذمومًا داعيًا
 الى الشر سمي (وسوسة) وإن كان محمودًا داعيًا الى الخير سمي (إلهامًا)
 وتوضيح ذلك أن مثل القلب بالنسبة الى ما يرد عليه من الخواطر مثل هدف

« ١ » هكذا في المطبوعة . وفي نسختنا الخطية والنسخة الأخرى

(ولا ريب في لزوم الاشكال في افعال الانسان وحركاته)

« ٢ » هذا اعتراف بالعجز وهروب من حل هذه المعضلة التارخية في

سر الخلق ، والحل الذي لم يسبق اليه البشر حتى عند فلاسفتهم الأقدمين

والمتأخرين ما قاله امامنا الصادق عليه السلام : « لا جبر ولا تفويض ولكن

امر بين امرين » فان الفاعل الذي منه الوجود هو الله تعالى وحده لا شريك

له في خلقه ، والفاعل الذي به الوجود هو العبد المختار في فعله .

تتوارد عليه السهام من الجوانب أو حوض تنصبّ اليه مياه مختلفة من الجداول، أوقبة ذات ابواب يدخل منها أشخاص متخالفة ، أو مرآة منصوبة تجتاز اليها صور متباينة ، فكما أن هذه الأمور لا تنفك عن تلك السوانح فكذا القلب لا ينفك عن واردات الخواطر ، فلا تزال هذه اللطيفة الإلهية مضماراً لتطاردها ومعركة لجولاتها وتزاحمها ، الى ان يقطع ربطها عن البدن ولذاته ويتخلص عن لدع عقاب الطبع وحياته .

ثم لما كان الخاطر أمراً حادثاً فلا بدّ له من سبب ، فإن كان سببه شيطانياً فهو الوسوسة ، وإن كان ملكاً فهو الإلهام ، وما يستعدّ به القلب لقبول الوسوسة يسمى إغواءً وخذلاناً ، وما يتهيأ به لقبول الإلهام يسمى لطفاً وتوفيقاً ، والى ذلك أشار سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : (في القلب لمّتان « ١ » لمّة من الملك إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، ولمّة من الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق) وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن)

« ١ » روى الحديث في احياء العلوم ج ٢ ص ٢٣ هكذا : « في القلب لمّتان لمّة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله . ولمّة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ثم تلا قوله تعالى (الشيطان يعدكم الفقر) الآية .

وهذا الحديث لم نعثر عليه من طرقنا وكذا الحديث الآتي وفي نهاية ابن الاثير : « في حديث ابن مسعود لابن آدم لمّتان لمّة من الملك ولمّة من الشيطان . اللّمة الهمة والخطرة تقع في القلب اراد إلهام الملك أو الشيطان به والقرب منه . »

فصل

أقسام الخواطر ومنها الالهام

الخواطر ينقسم الى ما يختلج بالبال من دون ان يكون مبدءاً للفعل وهي
الاماني الكاذبة والأفكار الفاسدة ، وإلى محرك الارادة والعزم على الفعل ،
إذ كل فعل مسبوق بالخواطر أولاً ، فمبدء الأفعال الخواطر وهي تحريك الرغبة ،
والرغبة العزم ، والعزم النية ، والنية تبعث الأعضاء على الفعل ، (والثاني)
كما عرفت إن كان مبدءاً للخير يكون إلهاماً ومحموداً ، وإن كان مبدءاً للشر يكون
وسواساً ومذموماً (والاول) له انواع كثيرة (منها) ما يرجع الى التمني ،
سواء كان حصول ما يتمناه ممكناً أو محالاً ، وسواء كان المتمنى حسناً محموداً
أو قبيحاً مذموماً ، وسواء كان عدمه مستنداً الى قضاء الله وقدره أو الى تقصيره
وسوء تدبيره ، فيخطر بباله أنه ياليت لم يفعل كذا أو فعل كذا .

(ومنها) ما يرجع الى تذكر الأحوال الغالبة ، إما بدون اختياره
أو مع اختيار ما بأن يتصور ماله من النفائس الفانية فيستر به ، أو يتخيل
فقداه فيحزن لأجله ، أو يتفكر في ما اعتراه من العلل والأسقام واختلال
أمر المعاش وسوء الانتظام ، أو يذهب وهمه الى حساب المعاملين أو جواب
المعاندين وتصوير إهلاك الأعداء بالانواع المختلفة من دون تأثير وفائدة .

(ومنها) ما يرجع الى التطير ، وربما بلغ حدّاً يتخيل كثيراً من
الأمور الاتفاقية الدالة على وقوع مكروه بنفسه أو بما يتعلق به ، ويضطرب
بذلك ، وإن لم تكن مشهورة بذلك عند الناس ، وربما حدثت في القوة
الوهمية خباثة وشيطنة تذهب غالباً الى ما يؤذيه ويكرهه ولا يذهب الى ما يبرئنه

ويسره ، فيتخيل ذهاب أمواله وأولاده وابتلاءه بالامراض والاسقام ووصول المكروه من الغير ومغلوبيته من عدوه ، وربما حصل لنفسه نوع اذعان لهذه التخيلات لمغلوبة العاقلة للواهمة ، فيعتريه نوع اضطراب وانكسار وقلة ما يذهب مثل هذه القوة الوهمية فيما يشاء ويريد من تخيل الغلبة وحصول التوسعة في الاموال والأولاد ، بحيث يحصل لنفسه نوع اذعان لها ، فتنبسط وتهتز . وهذا شر الوسوس وأردؤها وربما كان المنشأ لبعضها نوع اختلال في الدماغ . وجميع الأنواع المذكورة بأقسامها مفسدة للنفس يحدث فيها نوع ذبول وانكسار ويصدها عما خلقت لأجله (ومنها) ما يرجع الى التفاؤل ، وهذا ليس مذموماً وقد ورد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه يحب التفاؤل وكثيراً ما يتفأل ببعض الامور (ومنها) الوسواس في العقائد بحيث لا يؤدي الى الشك المزيل لليقين ، فإنه قاذح في الايمان كما تقدم . ومرادنا بالوسوسة وحديث النفس في العقائد هنا ما لا يضر بالايمان ولا يؤخذ به كما يأتي .

(تذييب) قد ظهر مما ذكر أن أكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له ، أو في مستقبل لا بد وان يحصل منه ما هو مقدر ، وكيف كان هو تضيق لوقته إذ آله العبد قلبه وبضاعته عمره ، فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله أو عن فكر يستفيد معرفة بالله ، ليستفيد بالمعرفة بحاله ، فهو مقبون . وهذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مع أن الغالب ليس كذلك ، بل يتفكر في وجوه الخيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال ينازع في الباطن كل من فعل فعلاً مخالفاً لغرضه ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالفه في رأيه ، بل يقدر المخالفة من اخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ، ثم يتفكر في كيفية زجرهم وقهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفتهم فلا يزال في شغل دائم مضيق لدينه ودنياه .

فصل

المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس

قد عرفت أن الوسواس أثر الشيطان الخناس ، والالهام عمل الملائكة الكرام ، ولا ريب في أن كل نفس في بدو فطرتها قابلة لأثر كل منهما على التساوي وإنما يترجح أحدهما بمتابعة الهوى وملازمة الورع والتقوى ، فإذا مالت النفس الى مقتضى شهوة أو غضب وجد الشيطان مجالاً فيدخل بالوسوسة ، وإذا انصرفت الى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل فيدخل الملك بالالهام ، فلا يزال التطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس ، لهيولانية وجودها وقابليتها للأمرين بتوسط قوتيهما العقلية والوهمية ، الى ان يغلب أحد الجندين ويسخر مملكة النفس ويستوطن فيها ، وحينئذ يكون اجتياز الثاني على سبيل الاختلاس ، وحصول الغلبة إنما هو بغلبة الهوى أو التقوى ، فان غلب عليها الهوى وخاضت فيه صارت مرعى الشيطان ومرتعته وكانت من حزبه ، وان غلب عليها الورع والتقوى صارت مستقر الملك ومهبطه ودخلت في جنده قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (خلق الله الإنس ثلاثة أصفاف : صنف كاللهاثم ، قال الله تعالى (لَمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا) « ١ » وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف كالملائكة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله) .

ولا ريب في أن أكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وملكوها

ويتصرفون فيها بضروب الوسوس الداعية الى إيثار العاجلة وأطراح الآجلة .
والسر فيه أن سلطنة الشيطان سارية في لحم الانسان ودمه ومحيطه بمجامع قلبه
وبدنه ، كما أن الشهوات ممتزجة بجميع ذلك ومن هنا قال رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم: (إن الشيطان لي يجري من بني آدم مجرى الدم) وقال الله سبحانه
حكاية عن لسان العين : (لَا قُودَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا يَنْصَحُهُمْ
مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) « ١ »
فانخلاص من أيدي الشياطين يحتاج الى مجاهدة عظيمة ورياضة شاقة فمن لم يقم
في مقام المجاهدة كانت نفسه هدفاً لسهام وساوسهم وداخلة في احزابهم .

فصل

تسويلات الشيطان ووساوسه

١- كانت طرق الباطل كثيرة وطريق الحق واحدة ، فالأبواب المفتوحة
للشيطان الى القلب كثيرة ، وباب الملائكة واحدة ، ولذا روي أن النبي
صلى الله عليه وآله وسلم « خطَّ يوماً لأصحابه خطاً وقال : (هذا سبيل الله)
ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله فقال : (هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان
يدعو اليه) ثم تلا قوله سبحانه : (إِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا
تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) « ٢ » .
ثم لسهولة ميل النفس الى الباطل وعسر انقيادها للحق تكون الطرق

« ١ » الأعراف الآية ١٥ - ١٦ .

« ٢ » الأنعام الآية ١٥٤ .

المؤدية الى الباطل التي هي أبواب الشيطان جليّة ظاهرة ، فكانت أبواب الشيطان مفتوحة أبداً ، والطرق المؤدية الى الحق التي هي باب الملائكة خفيّة، فكان باب الملائكة مسدوداً دائماً ، فما أصعب بالمسكين ابن آدم أن يسدّ هذه الأبواب الكثيرة الظاهرة المفتوحة ، ويفتح باباً واحداً خفياً مسدوداً ، على أن اللعين ربما يلبس بين طريقي الحق والباطل ويعرض الشر في موضع الخير ، بحيث يظنّ أنه لمّة الملك وإلهامه ، لا وسوسة الشيطان وإغوائه ، فبهلك ويضلّ من حيث لا يعلم ، كما يلقي في قلب العالم أن الناس لكثرة غفلتهم أشرفوا على الهلاك ، وهم من الجهل موتى ، ومن الغفلة هلكى ، أما لك رحمة على عباد الله ؟ أما تريد الثواب والسعادة في العقبى ؟ فما بك لا تنبهم عن رقدة الغفلات بوعظك ، ولا تنقذهم من الهلاك الأبدي بنصحك ! وقد منّ الله عليك بقلب بصير وعلم كثير ولسان ذلق ولهجة مقبولة ، فكيف تخفي نسم الله تعالى ولا تظهرها ، فلا يزال يوسوسه بأمثال ذلك ويثبتها في لوح نفسه ، الى أن يسخره بلطائف الحيل ويشغل بالوعظ ، فيدعوه الى التزين والتصنع والتحسين بتحسين اللفظ ، والسرور بتملق الجماعة ، والفرح بمدحهم إياه ، والانسياط بتواضعهم لديه واتكسارهم بين يديه ، ولا يزال في اثناء الوعظ يقرر في قلبه شوائب الرياء وقبول العامة ولذّة الجاه وحب الرياسة والتعزز بالعلم والفصاحة والنظر الى الخلق بعين الحقارة ، فيهدي الناس ويضل نفسه ويعمر يومه ويخرب أمسه ويخالف الله ، ويظن أنه في طاعته ، ويعصيه ، وبحسب أنه في عبادته ، فيدخل في جملة من قال الله فيهم : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنَّهم يُحْسِنُونَ

صنعاً) «١» ويكون ممن قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم : (إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم) و (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) ، فلا نجاة من مصائد الشيطان ومكائده إلا ببصيرة باطنة نورانية وقوة قدسية ربانية ، كما لا نجاة للمسافر الحيران في بادية كثيرة الطرق غامضة المسلك في ليلة مظلمة إلا بعين بصيرة صحيحة وطلوع شمس مشرقة نيرة .

فصل

العلام الفارقة بين الالهام والوسوسة

من تمكن من معرفة الخير والشر سهل عليه التفرقة بين الالهام والوسوسة ، وقد قيل إن إلهام الملك ووسوسة الشيطان يقع في النفوس على وجوه وعلامات : (احدها) كالعلم واليقين الحاصلين من جانب يمين النفس . وتقابله الشهوة والهوى الحاصلان من جانب شمالها (وثانيها) كالنظر الى آيات الآفاق والأنفس على سبيل النظام والإحكام المزيل للشكوك والالهام والحصل للمعرفة والحكمة في القوة العاقلة التي هي جانب الايمن من النفس . ويقابله النظر اليها على سبيل الاشتباه والغفلة والاعراض عنها الناشئة منها الشبه والوساوس في الواهمة والمتخيلة التي على الجانب الايسر منها . فان الآيات المحكمات بمنزلة الملائكة المقدسة من العقول والنفوس الكلية لأنها مبادئ العلوم اليقينية . والمتشابهات الوهميات بمنزلة الشياطين والنفوس الوهامية ، لأنها مبادئ المقدمات السفسطية (وثالثها) كطاعة الرسول المختار والأئمة

الاطهار في مقابلة اهل الجحود والانكار وارباب التعطيل والتشبيه من الكفار .
 فكل من سلك سبيل الهداية فهو بمنزلة الملائكة المقدسين الملهمين للخير ،
 ومن سلك سبيل الضلال فهو بمنزلة الشياطين المغوين بالشور . (ورابعها)
 كتحصيل العلوم والادراكات التي هي في الموضوعات العالية والاعيان الشريفة
 كالعلم بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والبعث وقيام الساعة ومثول الخلائق
 بين يدي الله تعالى وحضور الملائكة والنبين والشهداء والصالحين ، في مقابلة
 تحصيل العلوم والادراكات التي من باب الحيل والخديعة والسفسطة والتأمل
 في امور الدنيا الغير الخارجة عن دار المحسوسات ، فان الأول يشبه الملائكة
 الروحانية وجنود الرحمن الذين هم سكان عالم الملكوت السماوي ، والثاني يشبه
 الابالسة المطرودة عن باب الله الممنوعة من ولوج السموات ، المحبوسة في الظلمات ،
 المحرومة في الدنيا عن الارتقاء ، والمحجوبة في الآخرة عن دار النعيم .

فصل

علاج الوسواس

الوسواس إن كانت بواعث الشرور والمعاصي ، فالعلاج في دفعها ان
 يتذكر سوء عاقبة العصيان ووخامة خاتمته في الدنيا والآخرة ، ويتذكر عظيم حق
 الله وجسيم ثوابه وعقابه ، ويتذكر أن الصبر عما تدعو اليه هذه الوسواس
 أسهل من الصبر على نار لو قدفت شرارة منها الى الارض أحرقت نبتها وجحادها ،
 فاذا تذكر هذه الامور وعرف حقيقتها بنور المعرفة والايمان حبس عنه الشيطان ،
 وقطع عنه وسواسه ، إذ لا يمكن أن ينسكب عليه هذه الامور المنة ، إذ يقينه
 الحاصل من قواطع البرهان يمنع عن ذلك ويخفيه ، بحيث يرجع هارباً خائباً

فان التهاب نيران « ١ » البراهين بمنزلة رجوم للشياطين ، فاذا قوبلت بها وسواسهم فرت فرار الحمار من الأسد .

وان كانت مختلجة بالبال بلا ارادة واختيار ، من دون أن تكون مبادئ الأفعال ، فقطعها بالكلية في غاية الصعوبة والاشكال ، وقد اعترف اطباء النفوس بأنها الداء العضال ويتعسر دفعه بالمرّة ، وربما قيل بتعذره ، ولكن الحق امكانه لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (من صلى ركعتين لم تحدث نفسه فيها بشيء غفرله ما تقدم من ذنبه وما تأخر) ولولا امكانه لم يتصور ذلك . والسرف في صعوبة قطعها بالكلية أن للشيطان جندين جند يطير وجند يسير ، والواهمة جنده الطيار ، والشهوة جنده السيار ، لأن غالب ما خلقنا منه هي النار التي خلق منها الشيطان ، فالمناسبة اقتضت تسلطه عليهما وتبعيتهما له . ثم لما كانت النار بذاتها مقتضية للحركة ، إذ لا تتصور نار مشتعلة لا تتحرك ، بل لا تزال تتحرك بطبيعتها ، فشان كل من الشيطان والقوتين أن يتحرك ولا يسكن ، إلا أن الشيطان لما خلق من النار الصرفة من دون امتزاج شيء آخر بها فهو دائم الحركة والتحرك للقوتين بالوسوسة والهيجان ، والقوتان لما امتزج بغالب مادتهما أعني النار شيء من الطين لم تكونا بمثابة ما خلق من صرف النار في الحركة ، إلا أنهما استعدتا لقبول الحركة منه ، فلا يزال الشيطان ينفخ فيهما ويحركهما بالوسوسة والهيجان ويطير ويجول فيهما ، ثم الشهوة لكون النارية فيها أقل فسكونها ممكن ، فيحتمل أن يكف تسلط الشيطان عن الإنسان فيها فيسكن بالكلية عن الهيجان . وأما الواهمة فلا يمكن أن يقطع تسلطه عنها ، فيمتنع قطع وسواسه عن الإنسان ، إذ لو أمكن قطعه أيضاً

« ١ » وفي نسخة الخطية هكذا : (فان نيران البراهين) .

بالمرة لصار اللعين منقاداً للانسان مسخراً له ، واثقياده له هو سجوده له ، إذ روح السجود وحقيقته هو الاتقياد والاطاعة ، ووضع الجبهة حالته وعلامته ، وكيف يتصور أن يسجد الملعون لأولاد آدم عليه السلام مع عدم سجوده لأبيهم واستكباره من أن يطعن عن حركته ساجداً له معداً بقوله : (خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ) « ١ » فلا يمكن أن يتواضع لهم بالكف عن الوسوسة ، بل هو من المنظرين لاغوائهم الى يوم الدين ، فلا يتخلص منه أحد إلا من أصبح وهمومه هم واحد فيكون قلبه مشغولاً بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالاً فيه ، ومثله من المخلصين الداخلين في الاستثناء « ٢ » عن سلطنة هذا اللعين ، فلا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء في القدر ، فانك إن أردت أن تخلي القدر عن الهواء من غير أن تشغله بمثل الماء فقد طمعت في غير مطمع ، بل بقدر ما يدخل فيه الماء يخلو عن الهواء ، فكذلك القلب إذا كان مشغولاً بفكر مهم في الدين يمكن أن يخلو من جولان هذا اللعين ، وأما لو غفل عن الله ولو في لحظة ، فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، كما قال سبحانه : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) « ٣ » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إِنْ اللَّهَ يَبْغِضُ الشَّابَّ الْفَارِغَ » لأن الشاب إذا تعطل عن عمل مباح يشغل باطنه لا بد أن يدخل في قلبه الشيطان ويعيش فيه ويبيض ويفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من

« ١ » الاعراف الآية ١٢ .

« ٢ » إشارة الى قوله تعالى : [قَالَ رَبِّ اغْوَيْتَنِي لِأُزِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ] الحجر الآية ٤٠ .

« ٣ » الزخرف الآية ٣٥ .

توالد الحيوانات لأن الشيطان طبعه من النار والشهوة في نفس الشاب ، كالحلفاء « ١ » اليابسة فاذا وجدها كثر تولده ، وتولدت النار من النار ولم تنقطع أصلاً .

فظهر أن وسواس الخناس لا يزال يجاذب قلب كل انسان من جانب الى جانب ، ولا علاج له إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً ، والفرار عن الأهل والمال والولد والجاه والرفقاء ، ثم الاعتزال الى زواية وجعل الهموم هماً واحداً هو الله ، وهذا أيضاً غير كاف ما لم يكن له مجال في الفكر وسير في الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله ، فان استيلاء ذلك على القلب واشتغاله به يدفع مجاذبة الشيطان ووسواسه ، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من الصلوات والاذكار والأدعية والقراءة ، ويحتاج مع ذلك الى تكاليف القلب الحضور ، اذ الأوراد الظاهرة لا تستغرق القلب ، بل التفكير بالباطن هو الذي يستغرقه ، وإذا فعل كل ذلك لم يسلم له من الاوقات إلا بعضها ، إذ لا يخلو في بعضها عن حوادث تتجدد وتثقله عن الفكر والذكر كمرض أو خوف أو ايذاء وطغيان ، ولو من مخالطة بعض لا يستغني عنه في الاستعانة في بعض اسباب المعيشة .

فصل

ما يتم به علاج الوسواس

لو أمكن العلاج في القطع الكلي للوسواس فأنما يتم بأمور ثلاثة :

« ١ » الحلفاء نبت اطرافه محددة كأنها سعف النخل والخصوص يذبت في مقايض المياه . الواحدة [حلقة وحلفاء] .

(الاول) سدّ الأبواب العظيمة للشيطان في القلب ، وهي الشهوة والغضب والحرص والحسد والعداوة والعجب والحقد والكبر والطمع والبخل والخفة والجبن وحبّ الحطام الدنيوي الدائر والشوق الى التزين بالثياب الفاخرة والعجلة في الأمر وخوف الفاقة والفقر والتعصّب لغير الحق وسوء الظن بالخالق والخلق، وغير ذلك من رؤس ذمائم الصفات ورذائل الملكات ، فإنها ابواب عظيمة للشيطان ، فاذا وجد بعضها مفتوحاً يدخل منه في القلب بالوساوس المتعلقة به ، وإذا سدّت لم يكن له اليه سبيل إلا على طريق الاختلاس والاجتياز .

« الثاني » عمارة القلب باضدادها من فضائل الاخلاق وشرائف الأوصاف ، والملازمة للورع والتقوى ، والمواظبة على عبادة ربه الأعلى .

« الثالث » كثرة الذكر بالقلب واللسان ، فاذا قلعت عن القلب اصول ذمائم الصفات المذكورة التي هي بمنزلة الأبواب العظيمة للشيطان ، زالت عنه وجوه سلطنته وتصرفاته ، سوى خطراته واجتيازاته ، والذكر يمنعها ويقطع تسلطه وتصرفه بالكلية ، ولو لم يسدّ أبوابه أولاً لم ينفع مجرد الذكر اللساني في إزالتها ، اذ حقيقة الذكر لا يتمكن في القلب إلا بعد تخلّيته عن الرذائل وتخليته بالفضائل ، ولولاها لم يظهر على القلب سلطانه ، بل كان مجرد حديث نفس لا يندفع به كيد الشيطان وتسلطه ، فإن ممثّل الشيطان ممثّل كلب جائع وممثّل هذه الصفات المذمومة ممثّل لحم أو خبز أو غيرها من مشتهيات الكلب ، ومثّل الذكر ممثّل قولك له اخساً . ولا ريب في أن الكلب اذا قرب اليك ولم يكن عندك شيء من مشتهياته فهو ينزجر عنك بمجرد قولك اخساً ، وان كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد هذا القول ما لم يصل الى مطلوبه فالقلب الخالي عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر ، وأما القلب المملوء منه

فيدفع الذكر الى حواشيه ، ولا يستقر في سويدائه ، لاستقرار الشيطان فيه .
وايضا الذكر بمنزلة الغذاء المقوي ، فكما لا تنفع الاغذية المقوية ما لم ينقّ
البدن عن الاخلاط الفاسدة ومواد الامراض الحادثة ، كذلك لا ينفع الذكر
ما لم يطهر القلب عن الاخلاق الذميمة التي هي مواد مرض الوسواس ، فالذكر
إنما ينفع للقلب اذا كان مطهراً عن شوائب الهوى ومنوذاً بانوار الورع
والتقوى ، كما قال سبحانه : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) «١» وقال سبحانه : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ
لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ) «٢» ولو كان مجرد الذكر مطرداً للشيطان لكان كل
احد حاضر القلب في الصلاة ولم يخطر بباله فيها الوسواس الباطلة والهواجس
الفاسدة ، إذ منتهى كل ذكر وعبادة إنما هو في الصلاة ، مع أن من راقب قلبه
يجد أن خطور الخواطر في صلاته أكثر من سائر الأوقات ، وربما لا يتذكر
ما نسيه من فضول الدنيا إلا في صلاته ، بل يزدحم عندها جنود الشياطين على
قلبه ويصير مضطراً لجولانهم ، ويقلبونه شمالاً ويميناً ، بحيث لا يجد فيه
إيماناً ولا يقيناً ، ويجاذبونه الى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين ،
 ويمرون به في أودية الدنيا ومهاالكها ، ومع ذلك كله لا تظن أن الذكر
لا ينفع في القلوب الغافلة أصلاً ، فإن الأمر ليس كذلك إذ للذكر عند أهله
أربع مراتب كلها تنفع الذكرين إلا أن لبدنه وروحه والغرض الاصلي من
ذلك المرتبة الأخيرة :

(الاولى) الاساني فقط .

«١» الاعراف الآية : ٢٠٠

«٢» ق الآية : ٣٦

(الثانية) اللساني والقلبي مع عدم تمكنه من القلب ، بحيث احتاج القلب الى مراقبته حتى يحضر مع الذكر ، ولو خلى وطبعه استرسل في أودية الخواطر .

(الثالثة) القلبي الذي تمكن من القلب واستولى عليه ، بحيث لم يمكن صرفه عنه بسهولة ، بل احتاج ذلك الى سعي وتكاتف ، كما احتيج في الثانية اليهما في قراره معه ودوامه عليه .

(الرابعة) القلبي الذي يتمكن المذكور من القلب بحيث أمحى عند الذكر ، فلا يلتفت القلب الى نفسه ولا الى الذكر ، بل يستغرق بشراشه في المذكور ، وأهل هذه المرتبة يجعلون الالتفات الى الذكر حجابا شاغلاً ، وهذه المرتبة هي المطلوبة بالذات ، والبواقي مع اختلاف مراتبها مطلوبة بالعرض ، لكونها طرقاً الى ما هو المطلوب بالذات .

فصل

ما يتوقف عليه قطع الوسوس

السّر في توقف قطع الوسوس بالكلية على التصفية والتخلية أولاً ، ثم المواظبة على ذكر الله ، أن بعد حصول هذه الأمور للنفس تحصل لقوتها العاقلة ملكة الاستيلاء والاستعلاء على القوى الشهوية والغضبية والوهمية ، فلا تتأثر عنها وتؤثر فيها على وفق المصلحة ، فتتمكن من ضبط الواهمة والمتخيلة بحيث لو ارادت صرفهما عن الوسوس لأمكنها ذلك ، ولم تتمكن القوتان من الذهاب في أودية الخواطر بدون رأيها ، وإذا حصلت للنفس هذه الملكة وتوجهت الى ضبطها

كلما أردنا الخروج عن الاتقياد والذهاب في أودية الوسوس وتكرّمها هذا الضبط حصل لها ثبات الاتقياد بحيث لم يحدث فيها خاطر سوء مطلقاً ، بل لم يخطر فيها إلا خواطر الخير من خزائن الغيب ، وحينئذ تستقرّ النفس على مقام الاطمئنان وتنسدّ عنها أبواب الشيطان وتفتح فيها أبواب الملائكة ويصير مستقرها ومستودعها ، فتستضاء بشروق الأنوار القدسية من مشكاة الربوبية ويشملها خطاب : (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) « ١ » ، ومثل هذه النفس أحسن النفوس وأشرفها ، وتقابلها النفس المنكوسة الملوثة من الخبائث الملوثة بأنواع الدماغم والذائل ، وهي التي انفتحت فيها أبواب الشيطان وانسدّت منها أبواب الملائكة ، ويتصاعد منها دخان مظلم اليها ، فتملأ جوانبها ويطغى نور اليقين ويضعف سلطان الايمان ، حتى تحمد أنواره بالكلية ، ولا يخطر فيها خاطر خير أبداً ، وتكون دائماً محل الوسوس الشيطانية ، ومثلها لا يرجع الى الخير أبداً ، وعلامتها عدم تأثرها من النصائح والمواعظ ، ولو اسمعت الحق عميت عن الفهم وصمّت عن السمع وإلى مثلها أشير بقوله سبحانه : (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) « ٢ » وبقوله تعالى : (خَسِمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) « ٣ » وبقوله سبحانه : (إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) « ٤ » وبقوله تعالى : (سَوَاءٌ

« ١ » الفجر الآية ٢٧ - ٢٨ .

« ٢ » الفرقان الآية ٤٥ .

« ٣ » البقرة الآية ٦ .

« ٤ » الفرقان الآية ٤٦ .

عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (« ١ ») وبقوله عز وجل :
(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (« ٢ ») .

وبين هاتين النفسين نفس متوسطة في السعادة والشقاوة ، ولها مراتب مختلفة في اتصافها بالفضائل والردائل بحسب الكم والكيف والزمان ، فيختلف فيها فتح أبواب الملائكة والشياطين بالجهات المذكورة ، فتارة يبتدىء فيها خاطر الهوى فيدعوها الى الشر ، وتارة يبتدىء فيها خاطر الايمان فيبعثها على الخير ، ومثلها معركة تطارد جندي الشياطين والملائكة وتجاذبهما ، فتارة يصول الملك على الشيطان فيطرده ، وتارة يحمل الشيطان على الملك فيغلبه ، ولا تزال متجاذبة بين الحزبين مترددة بين الجندين ، الى أن تصل الى ما خلقت لأجله لسابق القضاء والقدر . ثم النفس الاولى في غاية السدرة ، وهي نفوس الكمل من المؤمنين الموحدين ، والثانية في نهاية الكثرة وهي نفوس الكفار بأسرهم ، والثالثة نفوس أكثر المسلمين ، ولها مراتب شتى ودرجات لا تحصى ولها عرض عريض ، فيتصل أحد طرفيه بالنفس الاولى ، وآخرها بالثانية .

فصل

حديث النفس لا مؤاخذه عليه

قد عرفت أن الوسواس بأقسامها مشتركة في احوال ظلمة وكدر في النفس إلا أن مجرد الخواطر ، أي (حديث النفس) وما يتولد عنه بلا اختيار ،

« ١ » البقرة الآية ٥ . ويس الآية ٩ .

« ٢ » يس الآية ٦ .

كالميل وهيجان الرغبة ، لا مؤاخذة عليهما ، ولا يكتب بهما معصية ، لعدم دخولهما تحت الاختيار ، فالمؤاخذة عليهما ظلم ، والنهي عنهما تكليف بما لا يطاق . والاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل هذا فيؤاخذه به ، لكونه اختيارياً . وكذا الهمم بالفعل والعزم عليه ، إلا أنه إن لم يفعل مع الهمم خوفاً من الله وندم عنه كتبت له حسنة ، وإن لم يفعل لما منع منعه لا تخوف الله سبحانه كتبت عليه سيئة .

والدليل على هذا التفصيل : أما على عدم المؤاخذة على مجرد الخطأ ، فما روي في الكافي « أنه جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال يا رسول الله هلكت ، فقال له : هل أتاك الخبيث فقال لك من خلقك ؟ فقلت الله تعالى ، فقال لك الله من خلقه ؟ ، فقال له أي والذي بعثك بالحق لكان كذا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ذاك والله محض الايمان » . ومثله ما روي أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله نافقت فقال : (والله ما نافقت ! ولو نافقت ما أتيتني تعلمني ما الذي رابك ، أظن أن العدو الحاضر أنك ، فقال من خلقك ، فقلت الله تعالى خلقني ، فقال لك من خلق الله ، فقال أي والذي بعثك بالحق لكان كذا ، فقال إن الشيطان أنا كم من قبل الأعمال فلم يقو عليكم فأتانا كم من هذا الوجه لكي يستزلكم ، فإذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده) وقريب منه ما روي أن رجلاً كتب الى ابي جعفر عليه السلام يشكو اليه لما يخطر على باله ، فأجابه في بعض كلامه : (إن الله إن شاء تبستك فلا يجعل لأبليس عليك طريقاً . قد شكى قوم الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما يعرض لهم لأن تهوى بهم الريح أو يقطعوا أحب اليهم من أن يتكلموا به ، فقال رسول الله أتجدون ذلك ، قالوا نعم ، قال

والذي نفسي بيدك إن ذلك لصريح الإيمان ، فإذا وجدتموه فقولوا آمنا بالله ورسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله) وسئل الصادق عليه السلام عن الوسوسة وإن كثرت فقال : « لا شيء فيها تقول لا إلا لله الله » وعن جميل بن دراج قال قلت للصادق عليه السلام : إنه يقع في قلبي أمر عظيم فقال : « قل لا إله إلا الله » ، قال جميل فكلمنا وقع في قلبي قلت لا إله إلا الله فيذهب عني .

ومما يدل على عدم المؤاخنة عليه وعلى الميل وهيجان الرغبة إذا لم يكونا داخلين تحت الاختيار ما روي : « إنه لما نزل قوله تعالى : (إِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) (١ » جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا كُذِّبْنَا مَا لَا نَطِيقُ إِنْ أَحَدُنَا لِيَحْدِثَ نَفْسَهُ بِمَا لَا يَحِبُّ أَنْ يَثْبُتَ فِي قَلْبِهِ ، ثُمَّ يَحَاسِبُ بِذَلِكَ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اعلِّمكم تقولون كما قال بنو إسرائيل سمعنا وعصينا ، قولوا سمعنا وأطعنا ، فقالوا سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (٢ » وما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله سبحانه : (إِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) : « إن هذه الآية عرضت على الأنبياء والأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها وقبلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرضها على أمته فقبلوها ، فلما رأى الله عز وجل منهم القبول على أنهم لا يطيقونها ، قال : أما إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها وقد عرضتها على الأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها وقبلتها أمتك ، فحتى علي أن أرفعها عن أمتك ، وقال عز من قائل لا يكلف الله نفساً إلا وُسْعَهَا » وما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (وضع

« ١ » البقرة الآية ٢٨٤ .

« ٢ » البقرة الآية ٢٨٦ .

عن امتي تسع خصال الخطأ والنسيان وما لا يعلمونه وما لا يطيقونه وما اضطروا عليه وما استكروها عليه والطيرة والوسوسة في التفكير في الخلق والحسد ما لم يظهر باسان أو يد) وما روي أنه سئل الصادق عليه السلام عن رجل يجيء منه الشيء على حد الغضب يؤاخذه الله تعالى فقال عليه السلام (إن الله تعالى أكرم من أن يستغلق على عبده) والمراد من الغضب فيه الغضب الذي سلب الاختيار. وبالجملة القطع حاصل بعدم المؤاخنة والمعصية على ما لا يدخل تحت الاختيار من الخواطر والميل وهيجان الرغبة ، إذ النهي عنها مع عدم كونها اختيارية تكليف بما لا تطاق ، وإن لم ينفك عن أحداث خبائث في النفس .

وأما «١» على أنه يكتب سيئة على الاعتقاد والهمم بالفعل والتصميم عليه مع تركه لما لا خوف من الله ، فهو ان كلا من الاعتقاد والهمم بالمعصية فعل من الأفعال الاختيارية للقلب وقد ثبت في الشريعة ترتب الثواب والعقاب على فعل القلب إذا كان اختيارياً ، قال الله سبحانه : (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) «٢» وقال سبحانه : (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَأَلْزَمَ الْيُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) «٣» وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما يحشر الناس على نيّاتهم » وقال صلى الله عليه وآله : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » ، قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال : « لأنه أراد قتل صاحبه » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لكل امرئ ما نوى » . والآثار الواردة في ترتب العقاب على الهمم بالمعصية كثيرة ، وإطلاقها محمول على

« ١ » أي وأما الدليل على أنه يكتب سيئة

« ٢ » بني اسرائيل الاية ٣٨ .

« ٣ » البقرة الاية ٢٢٥ .

غير صورة الترك خوفاً من الله ، لما يأتي من أنه في هذه الصورة تكتب بها حسنة ، وكيف لا يؤخذ على أعمال القلوب مع ان المؤاخنة على الملكات الردية من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وغيرها قطعي الثبوت من الشرع ، مع كونها أفعالا قلبية ، وقد ثبت في الشريعة أن من وطأ امرأة ظاناً أنها اجنبية كان عاصياً وان كانت زوجته .

وأما على أنه يكتب حسنة على الترك بعد الهم خوفاً من الله ، فماروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « قالت الملائكة ربّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر ، فقال راقبوه فإن عملها فاكذبوها عليه بمثلها ، وإن تركها فاكذبوها له حسنة إنما تركها لأجلي » وماروي عن الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام « أن الله تعالى جعل لآدم في ذريته من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ومن همّ بحسنة وعملها كتبت له عشراً ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ومن همّ بها وعملها كتبت عليه سيئة » وقوله « لم يكتب عليه » محمول على صورة عدم العمل خوفاً من الله ، لما تقدم من أنه إن لم يعملها لمانع غير خوف الله كتبت عليه سيئة ، وماروي عن الصادق عليه السلام أنه قال : « ما من مؤمن إلا وله ذنب يهجره زمانا ثم يلمّ به وذلك قوله « إِلَّا اللَّهُمَّ » (١) » وقال : « واللهم الرجل يلمّ بالذنب فيستغفر الله منه » وقد وردت بهذا المضمون اخبار أخر .

وصل

الخاطر المحمود والتفكر

قد عرفت أن ضد الوسوسة الخاطر المحمود المستحسن شرعاً وعقلاً ، لأن القلب إذا كان مشغولاً بشيء لا يمكن أن يشغله شيء آخر ، فإذا كان مشغولاً بشيء من الخواطر المحمودة لا سبيل للخواطر المذمومة إليه ، وربما كان الغفلة التي هي ضد النية تقابل لكل من الوسوسة والخاطر المحمود ، إذ عند الغفلة لا يتحقق شيء منها ، إلا أن خلوا القلب عن كل نية وخاطر بحيث يكون ساذجاً في غاية التدبر ، على أن الظاهر أن مرادهم من الغفلة خلوا الذهن من القصد الباعث وإن كان مشغولاً بالوساوس الباطلة كما يأتي تحقيقه .

ثم الخاطر المحمود إن كان قصداً ونية لفعل جميل معين كان متعلقاً بالقوة التي يتعلق هذا الفعل بها ، وإلا كان راجعاً إما إلى الذكر القلبي أو إلى التدبر في العلوم والمعارف والتفكر في عجائب صنع الله وغرائب عظيمته ، أو إلى التدبر الإجمالي الكلي فيما يقرب العبد إلى الله سبحانه أو ما يبعده عنه تعالى ، وليس وراء ذلك خاطر محمود متعلق بالدين أو غير ذلك من الخواطر المذمومة المتعلقة بالدنيا .

وإذا عرفت ذلك فاعلم أنه من معالجات مرض الوسواس معرفة شرافة ضده الذي هو الخاطر المحمود ، ليعينه على المواظبة عليه الموجبة لدفع الوسواس . وفضيلة الخواطر المحمودة الباعثة على الأفعال الجميلة يأتي ذكرها في باب النية ، وربما يعلم من بيان فضيلة نفس هذه الأفعال أيضاً كما يأتي ذكرها في باب النية ،

وفضيلة الذكر القلبي يعلم في باب مطلق الذكر .

أما بيان شرافة التفكير وبعض مجاريه من افعال الله تعالى والاشارة الى كيفية التفكير فيها وفيما يقرب العبد الى الله تعالى وفيما يبعده عنه ، فلنشر الى مجمل منه هنا لتعلقه بالقوة النظرية فنقول :

التفكر هو سير الباطن من المبادي الى المقاصد ، والمبادي هي آيات الآفاق والأنفس ، والمقصد هو الوصول الى معرفة موجدتها ومبدعها والعلم بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة ، ولا يمكن لأحد أن يترقى من حضيض النقصان الى أوج الكمال إلا بهذا السير ، وهو مفتاح الاسرار ومشكاة الانوار ومنشأ الاعتبار ومبدأ الاستبصار وشبكة المعارف الحقيقية ومصيدة الحقائق اليقينية ، وهو اجنحة النفس للطيران الى وكرها القدسي ، ومطية الروح للمسافرة الى وطنها الاصلي ، وبه تنكشف ظلمة الجهل واستاره ، وتنجلي أنوار العلم وأسراره ، ولذا ورد عليه الحث والمدح في الآيات والأخبار كقوله سبحانه : (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) «١» وقوله تعالى (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) «٢» وقوله تعالى (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) «٣» وقوله تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ) «٤» وقوله تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

«١» الروم الآية ٧

«٢» الاعراف الآية ١٨٤

«٣» الحشر الآية ٢

«٤» العنكبوت الآية ١٩

وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (« ١ ») وقوله تعالى (وَفِي الْأَرْضِ
آيَاتٍ لِّلْمُوقِنِينَ : وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (« ٢ ») وقوله تعالى (الَّذِينَ
يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ) (« ٣ ») وقول رسول الله صلى الله عليه وآله سلم : (التفكر حياة
قلب البصير) ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (فكرة ساعة خير من عبادة سنة)
ولا ينال منزلة التفكر إلا من خصّه الله عزّ وجلّ بنور التوحيد والمعرفة ،
وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (أفضل العبادة إيمان التفكر في الله وفي
قدرته) (« ٤ ») ومراده من التفكر في الله التفكر في قدرته وصنعه وفي عجائب
أفعاله ومخلوقاته وغرائب آثاره ومبدعاته ، لا التفكر في ذاته ، لكونه
ممنوعاً عنه في الاخبار ، ومعللاً بأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل ،
وقد ورد : (إياكم والتفكر في الله ، ولكن إذا اردتم ان تنظروا الى عظمته
فانظروا الى عظيم خلقه) واشتهر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال
(تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره) وقول
أمير المؤمنين عليه السلام (التفكر يدعو الى البر والعمل به) وقوله عليه السلام
(نبّه بالتفكر قلبك وجاف عن الليل جنبك واتق الله ربك) وقول الباقر
عليه السلام (باجالة الفكر يستدر الرأي المعشب) وقول الصادق عليه السلام
(الفكر مرآة الحسنات وكفارة السيئات وضياء للقلوب وفسحة للخلق)

« ١ » آل عمران الآية ١٨٧

« ٢ » الذاريات الآية ٢٠-٢١

« ٣ » آل عمران الآية ١٨٨

« ٤ » رواها النكافي في باب التفكر عن أبي عبد الله عليه السلام كما هنا .

واصابة في صلاح المعاد واطلاع على العواقب واستزادة في العلم وهي خصلة لا يعبد الله
بمثلها) وقول الرضا عليه السلام (ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم ، إنما
العبادة التفكير في أمر الله عز وجل)

تكملة

مجاري التفكير في المخلوقات

الموجودات بأسرها مجاري التفكير ، ومطارح النظر إذ كلما في الوجود سوى واجب
الوجود فهو من رشحات وجوده ، وآثار فيضه وجوده ، وكل موجود ومخلوق من
جوهر أو عرض مجرد أو مادي ، فلكي أو عنصري بسيط أو مركب ، فعل الله
وصنعه ، وما من ذرة من ذرات العالم إلا وفيها ضروب من عجائب حكمته ،
وغرائب عظمتة ، بحيث لو تشتمر عقلاء الأقطار وحكام الأمصار مدى الأعصار
لاستنباطها انقضت أعمارهم دون الوقوف على عشر عشيرها وقليل من كثيرها .
ثم إن الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصله فلا يمكننا التفكير فيه ،
والى ما يعرف أصله ومجمله من دون معرفة تفاصيله ، فيمكننا التفكير في تفاصيله لئلا نزيد
لنا معرفة بوضوح بصرته بخالقه ، وهو إلى ما لا يدرك بحس البصر ويسمى بالملكوت ، كالملائكة
والجن والشياطين وعوالم العقول والنفوس المجردة ، ولها اجناس وطبقات
لا يحيط بها إلا موجدها ، وإلى ما يدرك به وله اجناس ثلاثة : عالم السموات
المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها في طلوعها وغروبها ، وعالم الأرض
المحسوسة ببجارتها وجبالها ووهادها وتلالها ومعادنها وانهارها ونباتها وأشجارها
وحيوانها وجمادها ، وعالم الجو المدرك بسحبه وغيومه وأمطاره وثلوجه وشبهه
وبروقه ورياحه ورجوده ، وكل من هذه الاجناس الثلاثة ينقسم إلى أنواع ،

ويتشعب كل نوع الى اقسام واصناف غير متناهية ، مختلفة في الصفات والهيئات والاوزان والآثار والخواص والمعاني الظاهرة والباطنة ، وليس شيء منها إلا وموجده هو الله سبحانه ، وفي وجوده وحر كته وسكونه حَكَم ومصالح لا تحصى .

وكل ذلك مجاري التفكير والتدبر لتحصيل المعرفة والبصيرة بخالقها الحكيم وموجدها القيوم العليم ، إذ كلها شواهد عدل وبنات صدق على وحدانيته وحكمته وكمال كبريائه وعظمته ، فمن قدّم قدّم حقيقته ودار عالم الوجود وفتح عين بصيرته ، وشاهد مملكة ربه الودود ، لظهر له في كل ذرة من ذرات الخلق عجائب حكمة وغرائب قدرة بهر منها عتله ووهمه وحسر دونها لبته وفهمه .

ثم لا ريب في أن طبقات العوالم المنتظمة المرتبة على النحو الأصح والنهج الأحسن ، بأمر موجدها الحكيم ومدبرها العليم ، مبتدأة في الصدور من الأشرف فالأشرف ، حتى ينتهي الى أسفل العوالم وأخسّها ، وهو عالم الأرض بما فيه ، وكل عالم أسفل لا قدر له بالنسبة الى ما فوقه ، فلا قدر للأرض بالنظر الى عالم الجو ولا للجو بالقياس الى عالم السموات ، ولا للسموات بالنسبة الى عالم المثال ، ولا للمثال بالنظر الى عالم الملكوت ، ولا للملكوت بالقياس الى الجبروت ، ولا للجميع بالنسبة الى ما لا سبيل لنا الى دركه تفصيلاً واجمالاً من عوالم الألوهية ، كما ظهر لعلماء الطبيعة وأهل الرصد والهندسة ووضح لأرباب المكاشفة والعرفان وأصحاب المشاهدة والعيان .

ثم أخسّ العوالم الذي عرفت حاله أعني الأرض ، لا قدر لما على ظهرها من الحيوان والنبات والجماد ، بالنظر الى نفسها ، ولذا يفسد من ادنى تغير لها جل

معليها، ولكل جنس مما عليها أنواع وأقسام وأصناف غير متناهية، وأضعف أنواع الحيوان البعوضة والنحل وأشرف أنواعه الانسان، فنحن نشير الى نبذة يسيرة من الحكم والعجائب المودعة فيها، وكيفية التفكير فيها ليقاس عليها البواقي اجمالاً، فإن بيان مجاري التفكير بأسرها في حيز الحال، وما يمكن منه خارج عن حيلة الضبط والتدوين، ولذا ترى أن البارعين من الحكماء والفائقين من أجلة العرفاء بذلوا وسعهم في بيان مجاري التفكير ومطارحه وشرح مجال النظر ومسارحه، فسطروا فيه الأساطير وملاً وأمنه الطوامير، وخاضوا في غمرات بحار الأفكار، وغاصوا في تيار لجج الأنظار، ومع ذلك لم يعودوا بالنظر الى ما هو الواقع إلا صفر اليدين ورجعوا آخر الأمر (بخفي حنين)، ونحن لو تعرضنا لشرح ما يمكن لنا دركه من الحكم والغرائب المودعة في عضو واحد من أعضائها على التفصيل لخرجنا عن وضع الكتاب، وارتكبنا ما يمل الناظرين من الاطناب، فنشير اجمالاً الى بعض ما فيها من الحكم والعجائب، تنبيهاً للطالبين على كيفية التفكير في الصنائع الإلهية فنقول :

أما (البعوض) فانظر كيف خلقه الله على صغر قدره على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطوماً كخرطوميه وخلق له مع صغره جميع الأعضاء التي خلقها للفيل بزيادة جناحين قسّم أعضائه الظاهرة فأثبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه، وشق سمعه وبصره، ودبر في بطنه أعضاء الغذاء وركّب فيها من القوى الغذائية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في الحيوانات العظيمة كما يأتي في الانسان. ثم هداه الى غذائه الذي هو دم الانسان وغيره من الحيوانات، فأثبت له آلة الطيران الى الانسان، وخلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس، وهداه الى الامتصاص من مسام

بشرة الانسان حتى يضع خرطوميه في واحد من مسامه ويفرز فيه ويمص الدم ويتجرعه ، وخلق خرطوميه مع دقته مجوفاً حتى يجري فيه الدم الصافي الرقيق وينتهي الى باطنه وينتشر في معدته وفي سائر اعضائه ، وعرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب ، وخلق له السمع الذي يسمع به حفيف حركة اليد مع كونها بعيدة منه ، فيترك المص ويهرب ، وإذا سكنت اليد عاد ، وخلق له حدقتين حتى يبصر مواضع غذائه فيقتصده مع صغر حجم وجهه ، ولما كانت حدقة كل حيوان صغيرة بحيث لا يحتمل الأجفان لصغره ، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار ، خلق للبعوض والذباب وغيرها من الحيوانات الصغيرة يدين لمسح بهما حدقتيه ويظهرهما عن الغبار والقذى ، او لا ترى الذباب أنه على الدوام لمسح حدقتيه بيديه . وأما الانسان وغيره من الحيوانات العظيمة خلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر واطرافها حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميها الى اطراف الاهداب ، فهذه لمعة يسيرة من عجائب صنع الله فيه ، وفيها من العجائب الظاهرة والباطنة ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الاحاطة بكنهها عجزوا عن حقيقتها .

أما (النحل) فانظر كيف أوحى الله تعالى اليها حتى اتخذت (من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون) « ١ » واستخرج من لعبها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء ، وانظر في عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنهار واجتنابها عن النجاسات والأقذار ، وفي طاعتها وانقيادها لواحد من جملتهم ، وأكبرهم شخصاً ، وهو أميرهم ، وانظر كيف علم الله أميرهم أن يحكم بالعدل والانصاف بينهم ، حتى أنه يقتل على باب النفذ كل

ما وقع منها على نجاسة . ثم انظر الى بناء بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الاشكال المسدس ، فلا يبنى مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً ، بل اختار المسدس لخاصية يقصر عن دركها أفهام المهندسين ، وهو أن أوسع الاشكال وأجودها المستدير ، ثم ما يقرب منه ، فإن المربع تخرج منه زوايا ضايعة ، وشكل النحل مستدير مستطيل ، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ، ولو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضايعة ، لأن الاشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراسة ، ولا شكل في الاشكال ذوات الزوايا يقرب في الوسعة والاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس ، فهذه خاصية هذا الشكل ، فانظر كيف علم الله النحل مع صغر جرمها لطفاً بها وعنايةً بوجودها ليهنأ عيشها ، فسبحانه ما أعظم شأنه . وما ذكرناه قدر يسير من عجائب الحكمة المودعة فيها وما فيها من العجائب الظاهرة والباطنة مما لا يمكن الاحاطة به .

وأما (الانسان) فنقول : لا ريب في أن اول كل انسان قطرة من ماء قدرة لو خاليت بنفسها لانتنها الهواء وأفسدها ، وكانت متفرقة في جميع اجزاء بدن الذكر ، فألقى الله بلطائف حكمته محبة بينه وبين الأنثى وقادها بسلاسل الشهوة الى الاجتماع ، واستخرج هذه النطفة المنتنة بحركة الوقاع ، وأعطى لآلة الرجل قوة دافعة ، ولرحم الأنثى قوة جاذبة ، حتى جذبتها من قم الاحليل الى نفسها وامتزجت بمني الأنثى بحيث صارتا واحدة ، واستقرت في الرحم ، وجعل مبدأ عقد الصورة في مني الذكر ، ومبدأ انعقادها في مني الأنثى ، فهما بالنظر الى الجنين كالأنفحة واللين بالقياس الى الجبن ، والحق إن لكل من المنيين القوة العاقلة والمنعقدة ، إلا أن الاولى في الذكوري والثانية في الانثوي اقوى ،

والإلم يتحداً شيئاً واحداً ، ولم ينعقد الذكوري حتى يصير جزءاً من الولد ، فلو كان مزاج الأنثى ذكورياً كما في النساء الشريفة النفوس القوية القوى ، وكان مزاج كبدها حاراً ، كان المني المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من المنفصل عن كليتها اليسرى ، فاذا اجتمعا في الرحم ، وكان مزاج الرحم قوياً في الإمساك والجنب ، قام المنفصل عن الكلية اليمنى مقام مني الذكر في شدة قوة العقد ، والمنفصل من اليسرى مقام مني الأنثى في قوة الانعقاد فيختلق الولد وبهذا تتصح ولادة مريم البتول عليها السلام حيث تمثل لها روح القدس بشراً سوياً حسن الصورة ، فمع تحقق ما ذكر لها تأيدت به أي بروح القدس ، وسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ، وتغير مزاجها ومدّ جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني فصارت أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس .

ثم ابتداء خلق الجنين في استقرار المائين في الرحم ، وشبهه بالعجين إذا ألصق بالنور ، فغيره الله تعالى سبحانه عن حاله قليلاً ، كالبدن إذا نبت من الأرض ، فصارت نطفة ، فاستجلب دم الحيض من أعماق العروق إليها ، حتى ظهرت فيها نقط دموية منه وصارت علقة ، ثم أظهر فيها حمرة ظاهرة ، حتى صار شبيهاً بالدم الجامد ، وهيج فيها ريحاً حارة فصارت مضغة ، ثم أظهر فيها رسوم الأعضاء وشكلها وصورها ، فأحسن تصويرها ، فقسم أجزائها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة من العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم والشحم .

ثم ركب الأعضاء الظاهرة والباطنة من اللحم والعروق والأعصاب ، فدور الرأس ، وشق البصر والسمع والفم والأنف وسائر المنافذ ، ومدّ اليد والرجل وقسم رؤسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل ، وخلق كل واحد من القلب والدماغ والكبد والطحال والمعدة والرئة والرحم والمثانة والأمعاء وغيرها من

الأعضاء على شكل مخصوص ، وجعل لكل واحد منها عملاً معيناً وفعلًا مخصوصاً ، وجميع ذلك يحصل للجنين وهو في ظلمة الأحشاء محبوس وفي دم الحيض مغموس ، منضم في صرة ، كنفاه على خديه ، ومرفقاه على حقويه ، جمعت ركبته على صدره ، وذقنه على رأس ركبتيه ، وهو كشبه نائم سرته متصلة بسرة أمه يمتص منها الغذاء ، ووجهه الى وجهها إن كان أنثى وإلى ظهرها إن كان ذكراً ، فتتوارد عليه تلك النقوش العجيبة والتصويرات الغريبة من غير خبر منها له وللرحم ، ولا للأب والأم ، ولا يرى داخل النطفة أو الرحم ولا خارجها نقاش يصل اليه أثر نقشه ، فكأن الجنين بلسان حاله ينادي قلوب العارفين بنغات تهيبها وترقصها : تصوروني في ظلمة الأحشاء مغموساً بدم الحيض ، كيف يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش اجفاني وحدقتي ويصور المصور خدي وشفتي ، ولا يزال يظهر عليّ نقش بعد نقش وصورة بعد صورة ، ولا أرى نقاشاً ولا مصوراً ، أو لا تتمتعون من هذا النقاش الذي لا يحتاج الى تماس ومزاولة ولا يفتقر الى آلة ومباشرة ، أو لا تنتقلون من عجيب صنعه الى عظيم قدرته وجسيم عظمته ، أو ليس لكم أعين بها تبصرون أو قلوب بها تفقهون ، فكيف تنظرون الى تكون أعضائي وعجائبي ولا تعتبرون .

فانظر الآن يا حبيبي في نبذ من العجائب والحكم المودعة في بعض من هذه الأعضاء ، فتأمل في (العظام) التي هي أجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة وأحكمها وصلبها في الرحم بين المياه ، مع أن صلابة المائع في الماء محال عادة ، وجعلها قواماً ودعامة للبدن ، ولذا صلبها وأحكمها ، لئلا تنكسر عند الحركات العنيفة ، وقدرها مقادير مختلفة وشكلها على أشكال

متفاوتة ، ففيها صغير وكبير وطويل وقصير ومستقيم ومستدير ودقيق وعريض
ومجوف ومضمت ، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة . ولما كان الانسان
محتاجاً الى الحركة ، تارة بجملة بدنه ، وتارة ببعض اعضائه ، لم يخلقه من عظم
واحد ، بل جعل له عظاماً كثيرة بينهما مفاصل ، حتى تيسر له الحركة بجملة بدنه وببعض
اعضائه ، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، وما لم تكن
فيه فائدة سوى كونه عماداً للبدن خلقه مصمتاً ، وإن جعل فيه المسام والخلل التي
لا بد منها ، وما يحتاج اليه للحركة ايضاً ، زاد في تجويفه ليكون أخف ، وجعل
تجويفه في الوسط واحداً لئلا يحتاج في وصول الغذاء اليه الى التجاويف والخلل
المتفرقة ، فيصير رخواً ، بل صلبه مع تجويفه ، لئلا ينكسر عند الحركات العنيفة
وما كانت الحاجة فيه الى الوثاقة أشد جعل تجويفه أقل ، وما كان الاحتياج
فيه الى الخفة أكثر جعل تجويفه أزيد ، وجمع غذاءه وهو المخ في حشوه ليغذوه
ويرطبه دائماً ، لئلا يتفتت بتجفيف الحركة .

ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد العظمين
وأصقها بالآخر ، كالرباط ، وخلق في أحدهما زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً
غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد ، ليدخل فيها وينطبق عليها ، ولذلك لو
أراد الانسان أن يحرك جزءاً من بدنه دون سائر اعضائه لم يتعسر عليه ، ولولا
المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم وسط بين العظام الصلبة واللحوم الرخوة (الفضارييف) وهي من
العظم ألين ومن اللحم أصلب ، ليحسن اتصال الصلب باللين ، فلا يتأذى منه
خصوصاً عند الضربة والضغط ، وليحسن به مجاورة المفاصل المتحركة ، فلا
تتراص لصلابتها .

ثم انظريا أخي في (العروق) وما فيها من العجائب والحكم ، فانها خلقت على نوعين : (احدهما) الشرايين وهي العروق الضوارب المتحركة ومنبتها القلب . ولما كان القلب ينبوع الحياة ومنبع الروح والحرارة الغريزية خلقت هذه العروق مبتدأة منه منتشرة في سائر الأعضاء لا يصلال الروح والحياة منه اليها ، ولها حركتان انقباضية ، يقبض بها الأبخرة الدخانية عن القلب ، وانبساطية يجذب بها صافي النسيم اليه ، ليستريح ، ولولا هذا القبض والجذب لاختنق القلب بالبخار الدخاني ، وخلقت ذات صفاتين لئلا تنشق بقوة حركتها ولئلا يتحلل ما فيها من الروح ، وجعل الصفاق الداخل أصلب لأنه الملاقي لقوة الحرارة الغريزية ومصادمة حركة الروح ، فأوجب الحكمة الإلهية زيادة إحكامها حفظاً لها عن الانشقاق ، لقوة حركة الروح ، وتقويةً لحل الحرارة الغريزية ، لئلا يتحلل شيء منها بتحلل محلها . وواحد من هذه الشرايين ، ويسمى الشريان الوريدي ، لما كان حاملاً للغذاء الرية لأن غذاءها من القلب ، فيغوص فيها ويصير شعباً ، فخلق لذلك ذا صفاق واحد لئلا يزاحم بصلابته الرية لرخاوتها ولينها ، مع عدم مصادمة لحمها له عند الحركة لكثرة لينه ورخاوته . فلم تكن حاجة الى زيادة استحكامه ، على أن الرية تحتاج الى الغذاء على سبيل الترشع بسرعة وسهولة وكثرة الصلابة منافية لذلك . (وثانيهما) العروق الساكنة وتسمى الأوردة ، وشأنها جذب الغذاء من المعدة الى الكبد ومنه الى سائر الأعضاء ، وهي ذات صفاق واحد لأنها ساكنة ، فلا يخشى انشقاقها . وجعل واحد منها ويسمى الوريد الشرياني ذا صفاتين لنفوذ في التجويف الأيمن من القلب ، فكانت اللازم زيادة وثاقته ، لئلا يعتريه انشقاق بقوة حركة القلب وصلابته ، وهو الذي يأتي بغذاء الرية الى القلب واذا خلص عن القلب وجاوزه

يأخذ الشريان الوريدي منه الغذاء وينهب به الى الرية .

فانظر يا أخي الى عجيب حكمة ربك فان حامل غذاء الرية ما دام نافذاً في القلب ومصادماً لحركته خلق صلباً ذا صفاقين ، واذا خلص عنه الى الرية التي لا تتحمل الصلب جعل رخواً ذا صفاق واحد ، فسبحانه ما اجل شأنه وأعظم برهانه .

ثم تفكر أيها المتفكر في (الرأس) وعجيب خلقه ، حيث ركبته من عظام مختلفة الأشكال والصور ، وألف بعضها الى بعض حتى استوت كرة كما تراه ، وجعله مجمع الحواس ، ولذا جعله مستديراً لأن المستدير أبعد من الآفات بالقياس الى ذي الزاوية ، وأعظم مساحة منه مع تساوي احاطتها ، وجعل استدارته الى طول لأن منابت الأعصاب الدماغية موضوعة في الطول فلم يتسع منبتها لازدحم ، وانضغطت وألف قحفه « ١ » من ستة أعظم اثنان بمنزلة السقف واربعة بمثابة الجدران ، ووصل بعضها ببعض بالدروز والشؤون ، وجعل الجدران أصلب من الياقوخ الذي هو السقف ، لأن الصدمات عليها أكثر ، وتخلخل الياقوخ مما لا بد منه لخروج الأبخرة المتحللة (وعدم ثقله على الدماغ) « ٢ » وفائدة الدروز أن تخرج منها الأبخرة المتحللة في الدماغ لتلا يؤدي مكثها الى الصداع وغيره من الأمراض الدماغية ، وجعل أصلب الجدران مؤخرها لانه غائب عن البصر فلا يحرسه فاحتاج الى زيادة وثاقة .

« ١ » القحف : العظم فوق الدماغ وما اتفقت من الجمجمة فبان .

قال في القاموس : « ولا يدعى قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء »

« ٢ » هذه الجملة مطابقة لنسختنا الخطية والمطبوعة امكنها غير موجودة

في النسخة الخطية الأخرى .

وخلق فيها الدماغ ليناً دسماً لتنطبع فيه المحسوسات بسهولة ولتكون الأعصاب النابتة منه لزجة لئلا تنكسر ، وجعل مزاجه رطباً بارداً لتنفع القوى المودعة فيه عن مدركاتها ، ولئلا يشتعل بالحرارة الحاصلة عن الحركات الفكرية ، وجعل مقدمه الذي هو منبت الأعصاب الحسية ألين من مؤخره الذي هو منبت أعصاب الحركة ، لأن الحركة لا تحصل إلا بالقوة والقوة إنما تحصل بالصلابة . ثم جال الدماغ بغشائين (أحدهما) رقيق لين ملاصق لجوهره (وثانيهما) غليظ صلب ملاصق للقحف ، وهو مثقب بشقب كثيرة لاندفاع الفضول منه وانشعبت منه شعب دقاق تصعد من دروز القحف الى ظاهره ، ليتشبث بها هذا الغشاء بالقحف ولا ينفصل عنه ، وجعل بين جزئي الدماغ المتقدم والمؤخر حجاباً لطيفاً ليحجب عن مماسة الالين بالأصلب فيتأذى منه ، وخلق تحت الدماغ بين الغشاء الغليظ والعظم نسيجة « ١ » شبيهة بالشباك ، وقد تكونت من الشرايين الصاعدة من القلب والكبد الى الدماغ ، وقد فرشت هذه الشبكة تحت الدماغ ، ليرد فيها الدم الشرياني والروح ويتشبه بالمزاج الدماغي بعد النضج ، ثم يتخلص الى الدماغ على التدريج ، ولولاه لم يصلح الدم الكبدي والروح القلبي لكثرة حرارتهما لتغذية الدماغ ، ولم يناسبها جوهره ، وجعل الفرج التي بين فروع هذه الشريانات محشوة بلحم غددي لئلا تبقى خالية وتعتمد عليه تلك الفروع وتبقى على أوضاعها .

ثم لما كان الدماغ مبدأ الحس والحركة ، ولم يكن لسائر الأعضاء حس وحركة بذاتها ، وكان اللازم ايصالها منه اليهما ، ولم يكن ذلك ممكناً بدون واسطة في الايصال ، فخلق (الأعصاب) من جوهره ووصلها منه الى سائر

الأعضاء من العظام وغيرها ، ليفيدها الدماغ بتوسطها حساً وحركة وليشد ويتقوى بها اللحم والبدن . وأيضاً لم يجعلها متصلة بالعظم مفردة ، بل بعد اختلاطها باللحم والرباط لئلا يتأذى من صلابته .

ثم لما كان نزول جميع الأعصاب التي يحتاج إليها من الدماغ موجباً لثقل الرأس وعظمه خَلَقَ الله من جوهر الدماغ أشبه شيء به وهو (النخاع) . وجعل في أسفل القحف ثقباً وأخرجه منها . وخصه بالعنق والصلب ، وأخرج منه كثيراً من الأعصاب المحتاج إليها إلى الأعضاء ، فالدماغ بمنزلة العين والذنبوع للحس والحركة ، والنخاع بمثابة النهر العظيم الجاري منه ، والأعصاب كالجداول . والمنبع ألين من النهر والنهر ألين من الجداول .

ثم انظر يا حبيبي كيف خلق (العين) وفتحها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ورتب لها سبع طبقات وثلاث رطوبات كل منها على شكل خاص ولون مخصوص ، لو تغير شيء منها عما عليه لاختل أمر الابصار ، وتأمل كيف أظهر في حديقها التي بمقدار العدسة صورة السماء مع اتساع اكشافها وتباعد اقطارها . وحماها بالاجفان ليسترها ويحفظها ويصقلها وجعلها وقاية لها يدفع بها الأقداء عنها ، ويمنعها عن وصول الغبار والدخان والشعاع إليها عند انطباقها ، وجعل الجفن الأسفل أصغر من الأعلى لأن الأعلى يستر الحدقة تارة ويكشفها أخرى لتحركه ، وأما الأسفل فغير متحرك ، فلو زيد على هذا القدر يستر شيئاً من الحدقة دائماً ويجمع فيه الفضول ولا تسيل .

ثم زين الاجفان (بالاهداب) لينع من الحدقة بعض الاشياء التي لا يمتنعها الاجفان مع انفتاح العين ، كما ترى عند هبوب الرياح التي يأتي بالاقداء ، فيفتح العين ادنى فتح وتتصل الاهداف الفوقاية بالسقلانية فيحصل شبه قبلك

ينظر من ورائه فتحصل الرؤية مع دفع القذاء .

ثم انظر كيف شق (الاذن) واودعها ما يحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وجعل ثقبها محاطة بصدفة مرتفعة لئلا تتأذى من البرد والحر وغيرهما مما يؤذي ، وليجتمع فيها الهواء المتحرك من الاصوات فينفذ فيها ويحرك الهواء الذي في داخلها ويموجه ، كما ترى من دوائر الماء إذا وقع فيه شيء ، حتى يصل الى العصبية المفروشة على الصماخ التي فيها قوة السمع ، فيدرك الصوت ، وجعل في منفذها تجويفات واعوجاجات كثيرة لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقها ، فيتنبه صاحبها اذا قصده دابة مؤذية فيدفع شرها ، وخلق فيها جرماً نتناً عفناً لتنفّر عنه الدواب المؤذية ولا تدخلها .

ثم تأمل كيف زين الوجه (بالحاجبين) وحسنهما بدقة الشعر واستقواس الشكل .

وزين وجه الرجل (بالاحية) ووجه المرأة بعدمها والمتأمل يعرف ان الاحية زين للرجل وشين للمرأة ، وهذا من عجائب الحكمة .

وزين الوجه برفع (الانف) من وسطه وحسن شكله وفتح منخريه ، وأودع فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطامعه وأغذيته ، وليستنشق الهواء الطيب الصافي ، ويدفع الهواء الحار الدخاني ، ترويحاً لقلبه ، وجعل له منخرين لتميل الفضلات النازلة من الدماغ غالباً الى أحدهما ، ويبقى الآخر مفتوحاً فلا تسد طرق الاستنشاق بأسرها .

ثم انظر الى (الفم) وعجائبه والى اللسان وغرائبه ، فانه سبحانه لعظيم قدرته وحكمته فتح الفم ، وأودعه اللسان وجعله ناطقاً معرباً عما في القلب ومكنه من التسكّم باللغات المتخالفة وتقطيع الاصوات واخراج الحروف المتباينة ، وجعل له

قدرة على الحركة في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها ، وخلق (الفكين) وركب فيهما الأسنان لتكون آلة للطحن والقطع والكسر ، فأحكم أصولها وحسن لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب ، كالدر المنظومة ، مختلفة الاشكال باختلاف الأغراض والمقاصد ، متفاوتة الأوضاع بتفاوت الغايات والفوائد . ولما كانت الطعام يحتاج تارة الى الكسر وتارة الى القطع وأخرى الى الطحن ، فقسم الأضراس الى عريضة طواحن كالأضراس ، والى حادة قواطع كالرباعيات ، والى ما يصلح للكسر كالانياب . والأضراس التي في الفك الأعلى لما كانت معلقة جعل أصولها ثلاثة أو أربعة ، والتي في الفك الأسفل اكتفى في أصولها باثنين أو ثلاثة لعدم الاحتياج ، وجعل لسائر الأسنان أصلاً واحداً لعدم ثقل فيها . ثم جعل مفصل (الفكين) متخللاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرّحى ، وهو ثابت لا يتحرك فيتم الطحن بذلك . فانظر في عجب صنع الله في هذه الرّحى ، حيث يدور الأسفل منها على الأعلى على خلاف سائر الأرجية ، لدوران الأعلى منها على الأسفل ، والحكمة في تحرك الأسفل دون الأعلى أن الأعلى مجمع الدماغ والحواس فتحركه كان موجباً لأذيتها واضطرابها ، وأيضاً هو مفصل الرأس والعنق فلو تحرك لم يستحكم مع أن الوثاقه فيه لازمة . ثم لما كان مضغ الطعام محتاجاً الى تحركه فيما تحت الأسنان ، فاعطى الله سبحانه قدرة اللسان على أن يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط الى الأسنان بحسب الحاجة . ولما كان الطعام يابساً فلم يمكن ابتلاعه إلا بنوع رطوبة ، فخلق تحت اللسان عيناً جارية يفيض منها اللعاب وينصب بقدر الحاجة ، حتى يعجن به الطعام ويمزجه على ابتلاعه .

ثم تفكر كيف خلق (الحناجر) وهياها لخروج الاصوات وجعلها مختلفة الاشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والطول والقصر وصلابة الجوهر ورخاوته ، حتى اختلفت بها الاصوات فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر به بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع اصوات آحاد الناس بمجرد سماعها في الظلمة والغيبة .

ثم مد (العنق) وجعله مركباً للرأس وركبته من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تجويفات وزيادات ونقصان ، لينطبق البعض على البعض ، ولما كان اكثر منفعه في الحركة جعل مفاصله سلسلة ، ولم يجعل زوائدها المفصلية كبيرة كزوائد فقرات الصلب ، لتكون حركاته أسرع ، وتدارك تلك السلسلة بأعصاب وعضلات كثيرة محيطة به .

ثم انظر الى عجائب (المعدة) وآلاتها التي يتم بها الاكل ، فجعل سطح الفم متصلاً بفم المعدة بحيث كأنهما سطح واحد ، حتى يحصل أولاً نوع انهضام بالمضغ ، ثم هياً (المري) « ١ » والخنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تفتح لاختد الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يهوى الطعام من دهليز المري الى المعدة ، واذا ورد عليها لا يصلح لأن يصير عظماً ولحمًا ودماً على هذه الهيئة ، بل لا بد ان ينطبخ انطباخاً تاماً تتشابه أجزاءه ، فخلق الله المعدة على هيئة قدر يقع فيه الطعام وتنغلق عليه الابواب ، وخلق فيها حرارة صالحة للطبخ ، ومع ذلك جعلها محاطة من جوانبها الأربعة بالحرارة المنبجسة من الكبد والطحال والثرث ولحم الصلب ، فمن هذه الحرارة ينطبخ الطعام في المعدة وينهضم ،

« ١ » هو الخرطوم المتصل بالأوداج الأربعة الى الخنجرة .

حتى يصير كيلوساً أي جوهرًا سيالاً يشبه ماء الكشك (١) الشخين
ثم خلق الله بعظيم حكمته ورأفته لا يصل صفوما طبخ في المعدة إلى الكبد
قسمين من العروق : (أحدهما) العروق المخلوقة في تحت المعدة المتصلة بالمعاء
المسماة بماساريقا (٢) ، وجعل لها فوهات كثيرة لينصب لطيف المطبوخ فيها
(وثانيهما) العرق المسمى بباب الكبد النافذ فيه بعد تفرقه بعروق شعرية ليفية
منتشرة في أجزائه ، وجعل الماساريقا متصلة بباب الكبد ، فاذا انصب خالص
الكيلوس (٣) في الماساريقا يوصله إلى باب الكبد ، وينصب منه إلى العروق
الليفية المتفرقة في جوهر الكبد ، فتستولي قوة الكبد على هذا الكيلوس ، بحيث
يلاقي كلُّه كلُّه ، ولذا يصير فعله فيه أشد وأسرع ، فيمتصه ويجذبه إلى نفسه
فيطبخه ويفيده الحرارة والحمة ، حتى ينصبغ بلون الدم ، ومن هذا الطبخ يحصل
شيء كالرغوة وهي الصفراء ، وشيء كاللودي وهو السوداء ، وشيء كالبياض
البيض وهو البلغم ، وهو كما يتكون من هذا الطبخ يتكون من الطبخ الأول
أيضاً ، وقد يصير شيء من هذا البلغم إلى الكبد مع عصارة الطعام ، ويبقى
المتصفي من هذه الجملة دماً ناضجاً ذا رطوبة مائية منتشرة في العروق الشعرية ،
فلو بقيت الصفراء والسوداء والبلغم والمائية مختلطة بالدم ولم تنفصل عنه لفسد
مزاج البدن ، فخلق الله بحكمته الكليتين والمرارة والطحال وجعل لكل منهما
عناقاً ممدوداً في الكبد ، وجعل عنق الآخرين داخلاً في تجويف الكبد ، ولم يجعل عنق
الكليتين داخلاً في تجويفه ، بل جعلهما متصلين بالعروق الطالعة من حدة

(١) ماء الكشك هو ماء الشعر .

(٢) أي العروق تحت المعدة المتصلة بالمعاء . والكلمة يونانية .

(٣) كلمة يونانية المراد منه هو الطعام المطبوخ في المعدة طبخاً ناضجاً

الكبد حتى يجذبها مائيتها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد ، إذ لو اجتذبت قبل ذلك لخلطت ولم تخرج بسهولة عن العروق الدقيقة الشعرية .

ثم إذا انجذبت المائية من جانب محذب الكبد من طريق العروق الطالعة منه الى الكليتين حملت مع نفسها من الدم ما يكون صالحاً كفاً وكيفاً لغذائهما ، فتغذ وان الدسومة والدموية من تلك المائية ، ويندفع باقيها الى المثانة ، ومنها الى الاحليل . وأما (المرارة) فتأخذ الرغوة الصفراوية من محذب الكبد بعنقها الذي اتصل بالكبد ، وتقذفها من منفذ آخر لها الى الأمعاء ، ليأذعها بحدتها فتحركها على دفع الأثقال التي بقيت من الكيلوس بعد ذهاب صفوه الى الكبد فينضغط حتى تندفع منها الأثقال وبخروجها تخرج تلك الرغوة الصفراوية ، وصفرتها لذلك . وأما (الطحال) فيأخذ بعنقه المتصل بمحذب الكبد منه الرسوب السوداوي ويحمله حتى يكتسب قبضاً وحموضة ، ثم يرسل منه في كل يوم شيئاً الى فم المعدة لتتنبه بالجوع ، فيحرك الشهوة بمحوضته وقبضه ، ثم يخرج بخروج النفل ايضاً . وأما (الدم) فيتوجه الى الأعضاء ويتوزع عليها في شعب العروق الأجوف العظيم النابت من محذب الكبد ، فيسلك في الأوردة المتشعبة منه في جداول ثم في سواقي الجداول ، ثم في روافع السواقي ، ثم في العروق الشعرية الليفية ، ثم يترشح من فوهاتها في الأعضاء بتقدير خالق الأرض والسما .

ومما ذكر ظهر أنه لو حدث بواحد من المرارة والطحال والكليتين آفة فسد الدم وحصلت امراض الخلط الذي يجذبه من الكبد ، فلو عرضت آفة بالمرارة حدثت الأمراض الصفراوية ، ولو حلت آفة بالطحال حصلت امراض سوداوية ، ولو لم تندفع المائية الى البكى بعروض آفة لها حصل مرض الاستسقاء .

واما البلغم فما يتكون في الكبد أو يصير اليه مع عصارة الطعام انهضم

فيه وصار دماً ، وما بقي منه في الأمعاء ، ولم ينحدر الى الكبد انفصل بمرة الصفراء التي شأنها تنقية الأمعاء من الفضول بحرقها وحثها وسيلانها ، ومن البلغم ما يبقى في البدن لاحتياجه اليه في حركة المفاصل وترطيب الأمعاء ، ومنه ما يخرج من الفم بالقيء والبصاق أو ينحدر من الرأس الى الفم ويخرج منه بالتنخّص .

ثم انظر يا أخي في (القلب) وعجائبه حيث خلقه جسماً صنوبرياً وجعله منبعاً لروح الحياة ، ولذا خلقه صلباً ليكون محفوظاً من الواردات ، وجعل هذا الروح جرمًا حاراً لطيفاً نورانياً شفافاً ، وجعله مطية للنفس وقواها ، وأناط به حياة الانسان وبقائه ، فيبقى ببقائه ويفنى بفنائه ، فكل عضو يفيض عليه من سلطان نوره يكون حياً ، وإلا كان ميتاً ، ولذا لو حصل بعضو سدة مانعة من نفوذه فيه بطل حسه وحركته . ويتوزع هذا الروح من القلب الذي هو منبعه الى سائر الأعضاء العالية والسافلة ، بواسطة سفراء الشرايين والأوردة .

فما يصعد منه الى الدماغ بأيدي خوادم الشرايين ويعتدل بكسب البرودة من جوهر الدماغ ثم يفيض على الأعضاء المدركة والمتحركة منبثاً في جميع البدن ، يسمى (روحاً نفسانياً) . وما ينزل بصحابة أمعاء الأوردة الى الكبد الذي هو مبدأ القوى النباتية ، ومنه يتفرق الى سائر الأعضاء يسمى (روحاً طبيعياً) .

وقد خلق الله سبحانه هذا الروح من لطائف الأمشاج الأربعة ، كما خلق الأعضاء من كوائنها . وهذا الروح مثاله جرم نار السراج والقلب الذي محله كالسرجة له ، والدم الأسود الذي في باطن القلب ويتكوّن هذا البخار اللطيف منه بمنزلة الفتيلة له ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة في جميع أجزاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت ، وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ ، فسراج الروح ايضاً ينطفئ مهما انقطع غذاؤه ، وكما أن الفتيلة قد تحترق وتصدر رماداً بحيث

لا تقبل الزيت ، فكذلك الدم الأسود الذي في باطن القلب قد يحترق بحيث لا يقبل الغذاء الذي تبقى الروح به ، كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تشبث النار به ، وكما أن السراج ينطفئ تارة بسبب من داخل كما ذكرنا وتارة بسبب من خارج كهبوب ريح أو إطفاء انسان ، فكذلك إنطفاء الروح تارة يكون بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج كالقتل ، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده كذلك إنطفاء الروح هو منتهى وقت وجود الانسان ، وهو أجله الذي أجل له في أم الكتاب . وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله كذلك الروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقت أنواره التي كان يستفيد منها الروح ، وهي أنوار الاحساسات والقدرة والارادات وسائر ما يجمعها معنى الحياة .

ثم انظر يا حبيبي إن كنت من أهل اليقظة في (اليدين) وحكمتها حيث طوّلها لتمتد إلى المقاصد ، وعرض الكف ووضع عليها الأصابع الخمس ، وقسم كل اصبع بثلاث أنامل ، وجعل الابهام في جانب والبواقي في جانب ، ليدور عليها . ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بُعد الابهام من الأربع وترتيبها في صف واحد وتفاوتها في الطول والقصر ، على أن يكون هذا الوجه أزين وأصلح منه أو مثله وشبهه في الزينة والمصلحة لم يقدروا عليه ، إذ بهذا الترتيب صلحت للقبض والاعطاء ، فإن بسطتها كانت لك طبقاً تضع عليها ما تريد ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن بشرتها ثم ضممتها كانت آلة للقبض ، وإن ضممتها ضمناً غير تام كانت لك مغرفة ، وإن وضعت الابهام على السبابة كانت لك مخرقة ، وإن بسطت الكف مع اتصال الأصابع كانت لك مجرفة ،

وإن بطت الكف وجمعت عليها الأصابع كانت لك محزنة ، الى غير ذلك من المنافع .

ثم خلق (الأظفار) على رؤسها زينة للأنامل وعاداً لها من ورأئها ، حتى لا تنفت ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل ، وإيحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الانسان وحديث به حكمة لكان أضعف الخلق وأعجزهم ، ثم هدى (اليدين) الى موضع الحلك حتى تمتد اليه ولو في حالة النوم والغفلة من غير حاجة الى فحص وطلب ، ولو استعان بغيره لم يفتقر على موضع الحلك .

ثم خلق (الرجلين) مركبتين من الفخذ والساق والقدم ، كل منها على شكل خاص وتركيب خاص ليتحرك بهما الانسان الى أي موضع أراد ، ولو تغير شيء من الشكل أو الوضع أو التركيب في جزء من أجزائهما لاختل أمر الحركة ، ووضع عليهما جملة البدن وجعلهما دعامة وأساساً له وحاملين لثقله ، مع خفتهما وصغر جثتهما بالنسبة اليه ، إذ حسن التركيب وسهولة الحمل والحركة في مثل هذا الخلق لا يتصور بدون ذلك . فانظر في عجب حكمة ربك حيث جعل الأخرى والأدنى والأصغر أساساً وحاملاً للأثقل والأغلظ والأكبر ، مع أن كل بناء يكون أساسه أكبر وأغلظ مما يبنى عليه ، وكل حامل يكون أعظم جثة من المحمول ، فسبحانه من خالق لا نهاية لمجائب حكمته وغرائب قدرته .

ثم خاق جميع ذلك في النطفة في جوف الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف عنها الغطاء وامتد اليها البصر ، لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر على شيء أشبهاً بشيء ، ولا يرى المصور ولا آله ، فسبحانه من مصور فاعل عظيم عرفت في مصنوعه من دون احتياج الى مباشرة آله ولا افتقار الى مساعدة غيره .

تذنيب

ثم تأمل أيها المتأمل في عجائب حكم ربك إنه لما كبر الصبي وضاق عنه الرحم كيف هده السبيل الى الخروج حتى تنكس وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق كأنه عاقل بصير ، ولما خرج وكان محتاجاً الى الغذاء ولم يحتمل بدنه الاغذية الكثيفة لئنه ورخاوته خلق له الابن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرث والدم ، خالصاً سائغاً ، وخلق الثديين وجمع فيهما هذا اللبن ، وأنبت منهما الحلمة على قدر ما ينطبق فم الصبي ، وهداه الى التقامها وفتح فيها ثقباً ضيقة جداً ، حتى لا يخرج اللبن إلا بعد المص تدريجاً ، لأن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثم هده الى الامتصاص حتى يستخرج من مثل هذا المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ، وأخذ رخلق الأسنان الى تمام الحولين ، لانه لا يحتاج فيهما اليها لتغذيته باللبن ، وما دام مغتنيا به لما كان في دماغه رطوبة كثيرة سلط عليه البكاء ، لتسيل به تلك الرطوبة ، فلا تنزل الى بصره أو الى غيره من أعضائه فتفسده ، ثم لما كبر ولم يوافق اللبن السخيف وافقر الى الاغذية الغليظة المحتاجة الى المضغ والطحن أنبت له الأسنان عند الحاجة من دون تقديم وتأخير ، وحنن عليه قلوب الوالدين بالقيام على تربيته وتكفل حاله مادام عاجزاً عن تدبير نفسه .

ثم رزقه الادراك والفهم والقدرة والعقل على التدريج حتى بلغ ما بلغ وأودع في نفسه الجردّة وقواها الباطنة أسراراً عجيبة تحير طوامح العقول وتدهش بها نواجب الأنظار والفهوم . فالنظر الى قوة الخيال بعرضتها الغير المنقسمة

كيف تطوي السماء والأرض وتتحرك من المغرب الى المشرق في آن واحد .
والى قوة الوهم كيف تستنبط كثرة المعاني الجزئية في لحظة واحدة ، وتأخذها
من حواقي الأشياء . والى المتخيلة كيف تركب بعضها البعض وتأخذ منها ما فيه
الصالح والرشاد في أمر المعاش والمعاد .

ثم انظر في عجائب النفس وعالمها من إحاطتها بالبدن كله وتديرها له مع
نزهها عن صقع المكان واتصافها بالعلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية ،
وتمكنها من الاحاطة على حقائق الأشياء بأسرها ، وتصرفها في الملك والمملوك
بقوتها العقلية والعملية ، ومع ذلك عاجزة عن معرفة ذاتها وحقيقتها ، ومن تطوراتها
في الأطوار المختلفة وتقلبها في النشآت المتباينة وترقياتها بحسب درجاتها ومقاماتها
من لدن تعلقها بالنظفة القدرة الى صيرورتها علماً ربانياً محيطاً بحقائق الأشياء
متصلاً بالمملوكات الأعلى ، ومن اجتماع عوالم السباع والبهائم والملائكة والشياطين
فيه « ١ » واطاعة جميع الموجودات له حتى السباع تخضع لديه والطيور تخضع أجنحة
الذل بين يديه ، ويستخدم الجن ويسخر الكواكب وروحانيتها ، ومن عجائب
عالمه الطبع الموزون والصوت الحسن ، وعلمه بصناعة الموسيقى ، واستنباطه
انواع الصنائع العجيبة والحرف الغريبة .

ومنها أمر الرؤيا واخباره بالمغيبات لاتصاله بالجواهر الروحانية وتأثيره في
مواد الأكوان بنزع صورة وإلباس اخرى ، فيؤثر بانقطاعه الى الله في
استحالة الهواء الى الغيم ونزول الأمطار ، وإزالة انواع الأمراض ، وإهلاك قوم
وإنجائهم ، وتمكنه من فعل أو تحريك يخرج عن وسع مثله ، وإمساكه عن

« ١ » تذكير الضمير هنا وفيما يأتي بإدبار الانسان ، وتقديم مثله

القوت مدة غير معتادة ، واقتداره على اظهار بدنه المثالي في مواضع مختلفة في وقت واحد ، واحضاره ما يريد من الطعام والملابس ، ومصاحبته مع الملائكة وأخذ العلوم منهم . فانظريا أخي إن كنت من أهل اليقظة الى قدرة ربك العظيم حيث أودع جميع ذلك فيما عرفت حاله من النطفة السخيفة القدرة ، وهذه النطفة هي التي قد تصير ملكاً شديد الهمة والبطش مسخراً للربع المسكون، بحيث ينوط به انتظام النوع واختلاله، وقد يصير بحيث تظهر منه خوارق العادات وغرائب المعجزات في عالم الارض، وقد يتعدى الى عالم الافلاك، فينشق القمر ويرد الشمس. وليت شعري ان الناس كيف يتعجبون من صيرورة الميت حياً، مع انه جثته كانت موجودة وإنما أفيض عليه مجرد حسّ وحركة، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء قدرة الى المراتب التي عرفتھا . وليس المنشأ لذلك إلا كثرة مشاهدتهم وتكرر ملاحظتهم له، مع أن هذا لا يدفع العجب والغرابة، لو نظروا بعين البصيرة، إذ منشأهما إما عظم الصنع وحسن الابداع ، فهما في بلوغ النطفة الى المراتب المذكورة أقوى وأشد من احياء ميت ، أو دلالة هذا الصنع والفعل على صانع حكيم وفاعل عليم ، فلا ريب أيضاً في أن دلالة الاول على ذلك أشد من دلالة الثاني عليه ، إذ كل من رزق أدنى حظ من البصيرة يعلم ان بلوغ قطرة ماء قدرة الى المراتب المذكورة ليس إلا من قدرة قادر حكيم وصنع صانع عليم ، أو من حدوث الفعل من دون مشاهدة سبب مباشر ، فهذا في امر النطفة اظهر، وعلى أي تقدير كان يكون التعجب والغرابة في بلوغ النطفة السخيفة القدرة الى المراتب المذكورة أشد وأحرى من التعجب في احياء ميت أو ابراء أكه أو ابرص أو تكلم حيوان أو نبات أو جماد أو غير ذلك من خوارق العادات وغرائب المعجزات ، فالنظر الذي لا يقتضي منه العجب إنما هو نظرة حمقاء

لم ينشأ عن حقيقة الروية والاتقان ولم يصدر عن ذي قلب يتعظف . وبالجملية الحكم والعجائب المودعة في النشأة الانسانية اكثر من أن تحصى ، وإنما اشرنا الى نبذة قليلة منها تبصرة لمن استبصر وتنبيها على كيفية التفكير في سائر مجاري الفكر والنظر ، قال الامام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « إن الصورة الانسانية أكبر حجة لله على خلقه ، وهي الكتاب الذي كتبه بيده ، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته ، وهي مجموع صور العالمين ، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ ، وهي الشاهد على كل غائب ، وهي الحجة على كل جاحد وهي الطريق المستقيم الى كل خير وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار »

* * *

وإذ عرفت نبذة من عجائب نفسك وبدنك ، فقس عليه عجائب الارض التي هي مقرك بوهادها وتلاها وسهلها وجبالها واشجارها وانهارها وبحارها وازهارها وبراريها وعمارها ومدنها وامصارها ومعادنها وجمادها وحيوانها ونباتها ، فإن كل ما نظرت اليه منها لو تأملت له لو جدته مشتملا على غرائب حكم لا تعد وعجائب مصالح لا تحدد ، ولرايته آية باهرة على عظمة مبدعه وحجة قاطعة على جلالة موجدته .

فانظر أولا الى : (رواسي الجبال) وشوامخ الصم الصلاب ، كيف أحكم بها جوانب الأرض وأودع المياه تحتها ، فانفجرت من هذه الاحجار اليابسة والتربة الكدرة مياه عذبة صافية ، وأودع فيها الجواهر النفيسة العالية وهدى الناس الى استخراجها واستعمالها فيما ينبغي . وخلق في الارض معادن يحتاج اليها نوع الانسان ، ولو فقد واحدا منها لم يتم انتظامه ، ولم يترك معورة لم يكن في قربها هذه المعادن ، وجعل ما يكون الاحتياج اليه أشد وأكثر

أعمّ وجوداً وأقرب مسافة كالمالح ومثله .

ثم انظر الى (انواع النبات) بكثرتها واختلافها في الاشكال والألوان والطعوم والروائح والخواص والمنافع ، فهذا يغذي ، وهذا يقوي ، وهذا يقتل ، وهذا يحيي ، وهذا يسخن ، وهذا يبرد ، وهذا يجفف ، وهذا يرطب ، وهذا يسور ، وهذا ينوم ، وهذا يحزن ، وهذا يفرح ، الى غير ذلك من المنافع المختلفة والفوائد المتباينة مع اشتراكها في السقي من ماء واحد والخروج من أرض واحدة (فان قلت) اختلافها لاختلاف بذورها (قلنا) متى كانت في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ، ومتى كانت في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة ، وانظر الى كل شجر ونبت إذا أنزل عليها الماء كيف يهتز ويربو ويخضر وينمو بجميع اجزائه من الاصول والأغصان والأوراق والأثمار على نسبة واحدة ، من غير زيادة لجزء على آخر لوصول الماء اليها على نسبة واحدة وقسمته عليها بالسوية ، فمن هذا القاسم العدل في فعل ما ليس له شعور ولا إدراك ؟ فتباً لأقوام يسندون هذه الحكم المتقنة الظاهرة والمصالح المحكمة الباهرة الى ما لا خبر له بوجوده وذاته ولا بأفعاله وصفاته .

ثم انظر الى (أنواع الحيوانات) وأصنافها وكثرتها واختلافها : من الطيور والوحوش والسباع والبهائم ، كيف هدى الله كل واحد منها الى ترتيب المنزل وتحصيل القوت ، وجعل ما لا يتم معاش الانسان بدونه من الأنعام والبهائم مأثوساً به غير متوحش عنه وغيره وحشياً عنه غير ألف به ، وجعل في كل منها من عجائب الحكم وغرائب المصالح ما تتعجب منه العقول فمن ذا الذي يقدر أن يحيط بعجائب خلق العنكبوت والنحلة بل البقعة والنملة ، وغرائب أفعالها مع كونها من طيفار الحيوانات ، من وضع منازلها وجمع أقواتها وإدخالها لنفسها ، وهدايتها

الى حوائجها ، فأني مهندس يقدر على رسم بيوت النحل والعنكبوت على هذا التناسب الهندسي ، وانظر كيف جعل العنكبوت بيته شبكة ليصيد بها البق والذباب . وبالجملّة كل شخص من الحيوان أودع فيه من العجائب ما لا يمكن وصفه وكل أحدنا يدرك قدر ما يصل اليه فهمه .

ثم انتقل من عالم الأرض الى (عالم البحر) وعجائبه من الحيوانات والجواهر والنفائس ، فإن العجائب المودعة فيه أضعاف عجائب الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعته ، وكل حيوان يوجد في الأرض يوجد فيه ، وفيه حيوانات آخر ليس لها نظير في البر أصلاً ، وقد يوجد فيه من الحيوانات ما عظمه بقدر جزيرة عظيمة ، وكثيراً ما ينزل الركبان عليه فيتحرك . ومن عجائبه خلق اللؤلؤ في صدفه تحت الماء ، وإنبات المرجان من صمّ الصخور تحته ، مع كونه على هيئة شجرة نابتة نامية . وقس عليه الغير وسائر النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه . وبالجملّة عجائب البحر أضعاف عجائب البر ، وقد صنّف جماعة فيها مجلدات من الكتب ومع ذلك لم يأتوا إلا باليسير ، ولم يذكروا إلا قليلاً من كثير .

ثم انتقل الى (عالم الجو) وعجائبه من السحب والغيوم والأمطار والثلوج والشهب والبروق والصواعق والرعود ، فانظر الى السحاب الخفيف مع رخاوته كيف يحمل الماء الثقيل ويسكن في جو صاف لا يتحرك ، إلا أن يأذن الله سبحانه في ارساله الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي شاء وأراد ، فينزل قطرات منفصلة لا تدرك قطرة منها أخرى ، ولا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة ، وعين كل قطرة لجزء من الأرض أو قوتاً لحيوان معين . ولو كنت يا حبيبي ذا قلب لشاهدت في كل قطرة خطأ إلهياً مكتوباً

بقلم إلهي إنه يصيب الجزء الفلاني من الأرض أورزق للحيوان الفلاني في
الموضع الفلاني .

* * *

ثم ارفع رأسك الى هذا (السقف الأخضر) قائلاً سبحانه ما خلقت
هذا باطلاً ، وانظر الى هذه الاجرام النورية وعجائبها ، واصرف برهة من
وقتك في الفحص عن حقائق غرائبها : من الشمس واضاعتها عالم الأكوان ،
والقمر واختلاف تشكلاته في الزيادة والنقصان ، وسائر الأنجم الدائرة ،
والكواكب الثابتة والسائرة ، واختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها وأوضاعها
وتفاوت مشارقها ومغاربها ، وتباين منازلها ومواضعها ، واجتماعها واتصالها ،
وتفرقها وانفصالها ، وظلوعها وافولها ، وكسوفها وخسوفها ، وانتظام حركاتها
واتساق دوراتها ، وحسن وضعها وترتيبها ، وعجيب نضدها وترصيعها ، بحيث
حصل من كيفية نضدها ووضعها صور جميع الحيوانات من العقرب والحمل والثور
والجدي والانسان والحوت والسرطان ، بل صور غير الحيوان من السنبلة
والميزان والقوس والدلو وغير ذلك ، حتى ما من صورة في الأرض إلا ولها
تمثال في السماء ، أیظن عاقل أن وضع هذه الكواكب على هذه الصورة واختلاف
بعضها في اللون ، ككمودة زحل ، وحمرة المريخ ، وقلب العقرب ، وصفرة عطارد ،
ورصاصية الزهرة والمشتري ، بمجرد الاتفاق وليس لخالقها في ذلك حكمة ومصالحة ،
فما أشد جهلاً وحمّةً من توهم ذلك .

ثم انظر الى حركة (الشمس) يسير فلکها وإتمامها الدور بهذا السير
في سنة ، وبه تقرب من وسط السماء وتبعد عنه ، ويسير آخر تطلع وتغرب في
كل يوم ، وتتم الدور بيوم وليلة ، فلولا سيرها الأول الموجب لفاية قربها الى

وسط السماء مدة ، وغاية بعدها عنه تارة ، وتوسطها بين الغائتين مرتين ، لم تحصل
الفصول الأربعة الموجبة لنشو النباتات والثمار ونضجها وبلوغها الى غاياتها المطلوبة ،
ولولا سيرها الثاني لم يختلف الليل والنهار ، فلم يتميز وقت المعاش عن وقت
الاستراحة ، ولم تعرف المواقيت من الشهور والأعوام والساعات والأيام .
وتأمل في أنه لو لم تكن السموات مستديرة وحركاتها دورية لم يتم شيء من
النوائد والحكم المطلوبة من الحركة والزمان وما ارتبط بها من امور العالم السفلي .
ثم انظر الى عظم اقدار هذه الأجرام السماوية ، حتى لا قدر لجميع العوالم
السفلية من الأرض والبحار وعالم الجو بالنسبة اليها ، فلا يمكن ان يقال جميع
ذلك بالنسبة اليها ، بل بالنسبة الى فلك الشمس فقط ، مثلاً ، كنسبة قطرة الى
البحر المحيط ، وقد قال المهندسون إن جرم كوكب الشمس فقط مائة ونيّف
وستون ضعف الأرض بجميعها ، بل قال بعضهم أكثر من ذلك ، ومع ذلك يتنوا
ان نحن فلك المريخ ثلاثة أمثال غلظ فلك الشمس ، مع ما فيه من أفلاك الزهرة
وعطارد والقمر والعناصر الأربعة ، ثم أصغر كوكب تراه في السماء هو مثل
جميع الأرض ثماني مرات ، وأكبرها ينتهي الى قريب من مائة وعشرين
مثلاً للأرض .

ثم انظر مع هذا العظم الى سرعة حركتها وخفتها ، فإن شدة سرعة
حركاتها مما لا يمكن دركها ، إلا انك لا تشك في أن كل جزء من الفلك في لحظة
يسيرة يسير مقدار عرض كوكب ، والزمان من طلوع أول جزء من كوكب الى
تمامه في غاية القلة . وقد علمت أن هذا الكوكب إما مثل الأرض مائة ونيّف
وستين مرة أو أكثر أو مائة وعشرين مرة أو مائة مرة ، والأقل قدراً أن
يكون مثلها ثماني مرات ، فقد دار كل جزء من الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض

مائة وسبعين مرة أو مائة وعشرين مرة . وقد عبر روح الأئمين عليه السلام عن سرعة حركة الفلك ، إذ قال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : « هل زالت الشمس » ؟ قال : لا . نعم ، فقال له : « كيف تقول لا . نعم » فقال : من حيث قلت : لا ، الى أن قلت نعم ، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام .

فتيقظ يا أخي من نوم الطبيعة ، وتأمل من الذي حرك هذه الأجسام الثقيلة العظيمة بهذه الحركة السريعة الخفيفة وأدخل صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين بصغرها ، وتفكر من ذا الذي سخرها وأدار رحلها ، قل : (بسم الله مجربها ومرسيها) ولو نظرت اليها بين البصيرة لعلمت انها عباد طائعون خاضعون وعشاق إلهسيون والهون ، وبإشارة من ربهم الى يوم القيامة راقصون دائرون .

وبالجملة لو نظرت بعين العبرة في ذرات الوجود لا تجد ذرة من ملكوت السموات والارض إلا وفيها غرائب حكمة يكلّ البيان عن وصفها ، ولو كان لك قلب وألقيت السمع وأنت شهيد ، لعلمت أن جميع ذرات الكائنات شواهد ظاهرة وآيات متظافرة على عظمة ربك الأعلى ، وما من ذرة إلا وهي بلسان حالها ناطقة وعن جلالة بارئها مفصحة ، قائمة لأصحاب الشهود بحركاتها وسكناتها، ومنادية لأرباب القلوب بنغماتها: أوما تنظرون الى خلقي وتكويني وتصويري وتركبي واختلاف صفاتي وحالاتي ونحوتي في اطواري وتقلباتي ؟ أولا تشاهدون كثرة فوائدي ومنافعي وغرائب حكمي ومصالحني ؟ أنظنون أي تكوّنات بنفسي أخلقني أحد من جنسي ؟ أوما تستحيون تنظرون في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فتجزمون أنها صنعة آدمي يريد عالم ومتكلم قادر ، ثم تنظرون الى

عجائب الخطوط الالهية المرقومة على صفحات وجهي والعجائب الربانية المودعة في باطني وظاهري ، ومع ذلك عن عظمة ربي غافلون وعن علمه وحكمته ذاهلون !

تتميم

قد دريت اجمالاً أن التفكير النافع محصور بين التفكير في صفات الله وعجائب أفعاله ، والتفكير في ما يقرب العبد الى الله ليفعله ، وفيما يبعده عنه ليركه . وغير ذلك من الأفكار ليس نافعاً ولا متعلقاً بالدين . مثال ذلك أن حال السائر الى الله الطالب للقائه ، كحال العاشق المستمتر ، فكما أن تفكره لا يتجاوز عن التفكير في معشوقه وجماله وفي صفاته وأفعاله وفي أفعال نفسه التي تقربه منه وتحببه اليه ليتصف بها ، أو التي تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزه عنها ، ولو تفكر في غير ذلك كان ناقص العشق ، كذلك المحب الخالص لله ينبغي ان ينحصر فكره في الله وفي صفاته وأفعاله وفيما يقربه منه ويحببه اليه أو يبعده عنه ، ولو تفكر في غير ذلك كان كاذباً فيما يدعيه من الشوق والحب. ثم التفكير في ذات الله بل في بعض صفاته مما لا يجوز ، وقد منعت الشريعة لأقدام الافهام ، أو مرمى لسهام الأوهام ، فطرح النظر اليه يورث اختلاط الذهن والحيرة ، وجولان الفكر فيه يوجب اضطراب العقل والدهشة . وبعض الصديقيين المتجردين عن جلباب البدن لو اطاقوا اليه مد البصر فأنما هو كالبرق الخاطف ، ولو تجاوزوا عن ذلك لاحترقوا من سباحات وجهه . وحال الصديقيين في ذلك كحال الاساذ في النظر الى الشمس ، فإنه وإن قدر على مد

البصر اليها إلا أن ادامته يورث الضعف والعمش ، بل لا مشابهة بين الحالين ، وأما هو مجرد تقريب وتفهم فإن المناسبة بين نور الشمس ونور البصر في الجملة ثابتة ، وأين مثل هذه المناسبة بين نور البصر ونور الانوار القاهر على كل نور بالاحاطة والغلبة ، وما من نور إلا وهو منبجس من نوره ومترشح عن ظهوره ، فكل نور في مرتبة نوره زائل ، وكل ظهور في جنب ظهوره وشروقه مضطرب باطل .

ولما كان التفكير في ذاته تعالى مذمومًا فإن محصر التفكير المدوح في التفكير في عجائب صنعه وبدائع خلقه وقد تقدم ، وفي ما يقرب العبد الى الله من الفضائل الخلقية والطاعات العضوية ، وما يبعد عنه من الملكات الباطنة والمعاصي الظاهرة . وهذه الملكات والافعال هي المعبر عنها بالمنجيات والمهلكات والطاعات والسيئات التي تذكر في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الأخلاق ، والمراد بالتفكير فيها ههنا أن يتفكر العبد في كل يوم وليلة في وقت واحد أو أوقات متعددة في أخلاقه الباطنة وأعماله الظاهرة ، ويتفحص عن حال قلبه وأعضائه ، فإن وجد قلبه مستقيمًا على جادة العدالة متصفًا بجميع الفضائل الخلقية ومجتنبًا عن الرذائل الباطنة ، ووجد أعضائه ملازمة للطاعات والعبادات المتعلقة بها تاركة للمعاصي المنسوبة اليها ، فليشكر الله على عظيم توفيقه ، وإن وجد في قلبه شيئًا من الرذائل أو رآه خاليًا عن بعض الفضائل ، فليبادر الى العلاج بالتوانين المقررة بعد التفكير في سوء خاتمته وادائه الى مقت الله وهلاكه ، وكذلك إن عثر بالتفكير على صدور معصية أو ترك طاعة منه فليتداركه بالندم والتوبة وقضاء تلك الطاعة .

ولا ريب في أن هذا القسم من التفكير له مجال متسع والقدر الضروري في

منه يستغرق اليوم بليته ، والاستقصاء فيه خارج عن حيطه شهر وسنة ، إذ
اللازم منه أن يتفكر في كل يوم وليلة في كل واحد من الملكات المهلكة من
البخل والكبر والعجب والرياء والحقد والحسد والجبن وشدة الغضب والحرص
والطمع وشره الطعام والوقاع وحب المال وحب الجاه والنفاق وسوء الظن
والغفلة والغرور ، وغير ذلك ، وينظر بنور الفكرة والبصيرة في زوايا قلبه ،
ويتفقد منها هذه الصفات ، فان وجدها بطنه خالية عنها ، فليتكبر في كيفية
امتحان القلب والاستشهاد بالعلامات الدالة على البراءة اليقينية ، فان النفس
قد تلبس الأمر على صاحبها ، فان ادعت البراءة من الكبر ، فينبغي أن
يتمتع بحمل قربة ماء أو حزمة حطب في السوق ، فان ادعت البراءة من
الغضب فليجرب باقاعها في معرض اهانة السفهاء ، وهكذا فليمتحن في
غيرها من الصفات بالامتحانات التي كان الاولون والسلف الصالحون يجربون
بها انفسهم ، حتى يطمئن بانقطاع اصولها وفروعها من قلبه ، ولو وجد بالامتحان
أو تصريح المشاهدة والعيان شيئاً منها في قلبه ، فليتكبر في كيفية الخلاص
من المعالجة بالصد أو بالموعظة والنصيحة والتوبيخ والملامة ، أو ملازمة
اولي الأخلاق الفاضلة ومجالسة أصحاب الورع والتقوى ، أو بالرياضة والمجاهدة
وغير ذلك ، فان نفع شيء منها في الازالة بالسهولة فليحمد الله على ذلك ،
وإلا فليواظب على هذه المعالجات وتكررها حتى يوفقه الله للخلاص
بمتضى وعده .

ثم يتفكر في كل واحد من الفضائل المنجية كاليقين والتوكل والصبر
على البلاء والرضا بالقضاء والشكر على النعماء واعتدال الخوف والرجاء والشجاعة
والسخاء والزهد والورع والإخلاص في العمل وستر العيوب والندم على

الذنوب وحسن الخلق مع الخلق وجب الله والخشوع له ، وغير ذلك ، فان وجد قلبه متصرفاً بالجميع فليجرب بالعلامات حتى يطمئن من تلبيس النفس كما علمت طريقه ، وإن وجد قلبه خالياً من شيء منها فليتفكر في طريق تحصيله كما أشير اليه . ثم يتوجه الى كل واحد من أعضائه ويتفكر في المعاصي المتعلقة به ، مثل أن ينظر في لسانه ويتفكر في أنه هل صدر منه شيء من الغيبة أو الكذب أو الفحش أو فضول الكلام أو النجاسة أو الثناء على النفس أو غير ذلك ، ثم ينظر في سمعه ويتفكر في أنه هل سمع شيئاً من ذلك ، ثم ينظر في بطنه هل عصي الله باكل حرام أو شبهة أو كثرة مانعة عن صفاء النفس وغير ذلك ، وهكذا يفعل في كل عضو عضو .

ثم يتفكر في الطاعات المتعلقة بكل واحد منها وفيما خلق هذا العضو لأجله من الفرائض والنوافل ، فإن وجد بعد التفكير عدم صدور شيء من المعاصي عن شيء منها واثباتها بالطاعات المفروضة عليها بأسرها وبالنوافل المرغوبة اليها بقدر اليسر والاستطاعة ، فليحمد الله على ذلك ، وإن عثر على صدور شيء من المعاصي أو ترك شيء من الفرائض ، فليتفكر أولاً في الأسباب الباعثة على ذلك من الاشتغال بفضول الدنيا أو مصاحبة أقران السوء أو غير ذلك ، فليبادر الى قطع السبب ، ثم التدارك بالتوبة والندم ، لئلا يكون غده مثل يومه . وهذا القدر من التفكير في كل يوم وليلة لازم لكل دين معتقد بالنشأة الآخرة ، وقد كان ذلك عادة وديناً لسلفنا المتقين في صبيحة كل يوم أو عشية كل ليلة ، بل كانت لهم جريدة يكتبون فيها رؤس المهلكات والمنجيات ويعرضون في كل يوم وليلة صفاتهم عليها ، ومهما أطاعوا بقطع رذيلة أو الاتصاف بفضيلة يخطون عليها في الجريدة ، ويدعون الشكر فيها ، ثم يقبلون على البواقي ، وهكذا

يفعلون حتى بخطوا على الجميع ، ومن كان أقل مرتبة منهم من الصالحاء ربما يثبتون في جريبتهم بعض المعاصي الظاهرة من أكل الحرام والشبهة وإطلاق اللسان والكذب والغيبة والمراء والنميمة والمداهنة مع الخلق بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك ، ويفعلون بمثل ما مر .

وبالجملة كان اخواننا السالفون وسلفنا الصالحون لا ينفكون عن هذا النوع من التفكير ويرونه من لوازم الايمان بالحساب ، فاف علينا حيث تركنا بهم التأسي والقذوة ، وخضنا في غمرات الغفلة ، ولعمري انهم لو رأونا الحكماء بكفرا وعدم ايماننا بيوم الحساب ، كيف واعمالنا لا تشابه أعمال من يؤمن بالجنة والنار . فان من خاف شيئاً هرب منه ومن رجاشيناً طلبه ، ونحن ندعي الخوف من النار ونعلم ان الهرب منها بترك المعاصي ومع ذلك منهمكون فيها ، وندعي الشوق الى الجنة ونعلم ان الوصول اليها بكثرة الطاعات ومع ذلك مقصرون في فعلها .

ثم هذا النوع من التفكير إنما هو تفكير العلماء والصالحين ، وأما تفكير الصديقين ، فأجل من ذلك ، لأنهم مستغرقون في لجة الحب والانس منقطعون بشرائهم الى جناب القدس ، ففكرهم مقصور على جلال الله وجماله وقلبيهم مستهتر به ، بحيث فنى عن نفسه ونسي صفاته واحواله ، فحالهم أبداً كحال العشاق المستهترين عند لقاء المعشوق ، ولا تظن ان هذا التفكير بل أدنى مراتب التلذذ بالتفكير في عظمة الله وجلاله ممكن الحصول بدون الانفكاك عن جميع الرذائل المملكة والاتصاف بجميع الفضائل المنجية ، فإن حال المتفكر في جلال الله وعظمته مع اتصافه بالاخلاق الرذيلة ، كحال العاشق الذي خلى بمحبوبه ، لو كان نحت ثيابه حياث وقارب تلذغه مرة بعد اخرى ، فتمنعه عن لذة

المشاهدة والانس ، ولا يتم ابتهاجه إلا باخراجها عن ثيابه ، ولا ريب أن الملكات الرذيلة كلها كالحيات والعقارب مؤذيات ومشوشات ، ومن كان له أدنى معرفة وتوجه الى مناجاة ربه وكان في نفسه شيء منها يجد أنه كيف يشوشه ويصدّه عن الابتهاج ، ثم إن لدغ هذه الصفات لا يظهر ظهوراً بيّناً للمهمكين في علائق الطبيعة ، وبعد مفارقة النفس عن البدن يشتد ألم لدغها بحيث يزيد على ألم لدغ الحيات والعقارب بمراتب شتى .

نصيحة

تتقظ يا حبيبي من نوم الغفلة ، وتفكر اليوم لغدك ، قبل ان تنشبُ مخالبُ الموت في جسدك ولا تنفك قوتك العاقلة عن التفكير في صفاتك وأحوالك . واعلم على سبيل القطع واليقين أن كل ما في نفسك من فضيلة أو رذيلة وكل ما يصدر عنك من طاعة أو معصية يكون بازائه جزاء عند رحلتك عن هذه الدار الفانية ، واسمع قول سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو كنت ذا قلب لكفاك إيقاظاً وتنبهاً ، حيث قال : « إن روح القدس نفث في روعي : أحب ما أحببت فإنك مفارقه ، وعش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به » ولعمري أنك إن كنت مؤمناً بالمبدأ والمعاد لكفاك هذا الكلام واعظاً وحائلاً بينك وبين الالتفات الى الدنيا وأهلها . وبالجملة ينبغي للمؤمن ألا يخلو في كل يوم وليلة عن التفكير في صفاته وأفعاله ، وإذا صرف برهة من وقته في هذا التفكير وبرهة أخرى في التفكير في عجائب قدرة ربه ، وصار ذلك معتاداً له حصل لنفسه كمال قوتها العقلية والعملية ، وخلصت عن الوسوس الشيطانية

والخواطر النفسانية وفقنا الله بعظيم فضله للوصول الى ما خلقنا لأجله
(ومنها) أي ومن ردائل القوة العاقلة استنباط وجود : —

المكر والحيل

لوصول الى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة . واعلم أن المكر والحيلة
والخدعة والنكر والدهاء ألفاظ مترادفة ، وهي في اللغة قد تطلق على شدة الفطنة
وأرباب المعقول يطلقونها على استنباط بعض الامور من المآخذ الخفية البعيدة
على ما تجاوز عن مقتضى استقامة القرينة ولذا جعلوها ضدًا للذكاء وسرعة الفهم .
والعرف خصصها باستنباط هذه الامور إذا كانت موجبة لاصابة مكروه الى الغير
من حيث لا يعلم ، وربما فسر بذلك في اللغة ايضاً ، وهذا المعنى هو المراد هنا .
ولتركيبه من اصابة المكروه الى الغير ومن التلبس عليه يكون ضده
استنباط الامور المؤدية الى الخيرية ، والنصيحة لكل مسلم ، واستواء
العلانية للسريّة .

ثم فرق المكر ومرادفاته عن التلبس والغش والغدر وامثالها ، إما باعتبار
خفاء المقدمات وبعدها فيها دونها ، أو بتخصيص الاولى بنفس استنباط الامور
المذكورة والثانية بارتكابها ، ولذا عدت الاولى من ردائل القوة الوهمية
أو العاقلة للغدر المذكور ، والثانية من ردائل الشهوية ، وربما كان استعمالها على
الترادف واطلق كل منهما على ما تطلق عليه الاخرى .

هذا والمكر مراتب شتى ودرجات لا تحصى من حيث المظهر والخفاء ،
فربما لم يكن فيه كثير دقة وخفاء فبشعر به من له أدنى شعور ، وربما كان في

غاية الغموض والخفاء بحيث لم يتفطن به الأذكياء . ومن حيث الموارد والمواضع كالباعث لظهور المحبة والصداقة والطمئنان عاقل ، ثم التهجم عليه بالايذاء والمكروه ، والباعث لظهور الأمانة والديانة وتسليم الناس أموالهم ونفائسهم اليه على سبيل الوديعة أو المشاركة أو المعاملة ، ثم أخذها وسرقها على نحو آخر من وجوه المكر . والباعث لظهور ورعه وعدالته واتخاذ الناس آياه إماماً أو أميراً فيفسد عليهم باطناً دينهم ودنياهم . وقس على ذلك غيره من الموارد والمواضع . ثم المكر من المهلكات العظيمة لأنه اظهر صفات الشيطان ، والمتصف به أعظم جنوده ، ومعصيته أشد من معصية إصابة المكروه الى الغير في العلانية إذ المطلع بارادة الغير ايذاءه يحتاط ويحافظ نفسه عنه ، فربما دفع أذيته ، وأما الغافل فليس في مقام الاحتياط لظنه أن هذا المكثار الحميل محب وناصح له . فيصل اليه ضرره وكيد في لباس الصداقة والمحبة . فمن احضر طعاماً مسموماً عند الغير مريداً إهلاكه فهو أخبث نفساً وأشد معصية ممن شهر سيفه علانية مريداً قتله ، إذ الثاني اظهر ما في بطنه وأعلم هذا الغير بارادته ، فيجزم بأنه عدو محارب له فيتعرض لصرف شره ومنع ضرره فربما يتمكن من دفعه ، وأما الأول فظاهره في مقام الاحسان وباطنه في مقام الايذاء والعدوان ، والغافل المسكين لاخبر له عن خباثة باطنه ، فيقطع بأنه يحسن اليه ، فلا يكون معه في مقام الدفع والاحتياط ، بل في مقام المحبة والوداد ، فيقتله وهو يعلم أنه يحسن اليه ، ويهلكه وهو في مقام الخجل منه .

وبالجملة هذه الرذيلة اخبت الرذائل واشدها معصية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ليس منّا من ماكر مسلماً) وقال امير المؤمنين عليه السلام : « لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس » وكان

عليه السلام كثيراً ما يتنفس الصعداء ويقول : « واويلاه يمكرون بي ويعلمون
أني بمكرهم عالم وأعرف منهم بوجوه المكر ، ولكنني أعلم أن المكر والخديعة
في النار فأصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما ارتكبوا » .

وطريق علاجه بعد اليقظة أن يتأمل في سوء خاتمته ووخامة عاقبته وفي
تأديته الى النار ومجاورة الشياطين والأشرار ، ويتذكر أن وبال كل مكر وحيلة
يرجع في الدنيا الى صاحبه ، كما نطقت به الآيات والأخبار وشهدت به التجربة
والاعتبار ، ثم يتذكر فوائد ضد المكر ومحامده ، اعني استنباط ما يوجب
النصيحة والخيرية للمسلمين وموافقة ظاهره لباطنه في أفعاله وأقواله ، كما يأتي في
محله ، وبعد ذلك لو كان عاقلاً مشفقاً على نفسه لاجتنب عنه كل الاجتناب ،
وينبغي أن يقدم التروّي في كل فعل يصدر عنه لئلا يكون له فيه مكر وحيلة ،
وإذا عثر على فعل يتضمنه فليتركه معاتباً لنفسه ، وإذا تكرّر منه ذلك تزول عن
نفسه اصول المكر وفروعه بالسكينة بعون الله وتوفيقه .

المقام الثاني

فيما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج

- التهور والجن والشجاعة - الخوف - الخوف المذموم وأقسامه -
- الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته - بم يتحقق الخوف - الخوف من الله
- أفضل الفضائل - الخوف اذا جاوز حده كان مذموماً - طرق تحصيل
- الخوف الممدوح - خوف سوء الخاتمة وأسبابه - الفرق بين الاطمئنان
- والأمن من مكر الله - التلازم بين الخوف والرجاء - مواقع الخوف
- والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر - العمل على الرجاء اعلى منه على
- الخوف - مداواة الناس بالخوف والرجاء على اختلاف امراضهم - صغر
- النفس وكبرها وصلابتها - الثبات - دناءة الهمة وعلوها - الغيرة
- والحمية وعدمهما - الغيرة على الدين والحريم والأولاد - العجلة -
- الاناة والتوقف والوقار والسكينة - سوء الظن - حسن الظن -
- الغضب - الافراط والتفريط والاعتدال في قوته - ذم الغضب -
- امكان ازالة الغضب وطرق علاجه - فضيلة الحلم وكظم الغيظ -
- الانتقام والعفو - العنف والرفق - فضيلة الرفق - المداواة -
- سوء الخلق بالمعنى الاخص - طرق اكتساب حسن الخلق - الحقد -
- العداوة الظاهرة - الضرب والفحش واللعن والطعن - العجب -
- ذمه - آفاته - علاجه اجمالاً وتفصيلاً - انكسار النفس -
- الكبر - ذمه - التكبر على الله والناس - درجات الكبر - علاجه
- علماً وعملاً - التواضع - الذلة - الافتخار - البغي -
- تزكية النفس - العصبية - كتمان الحق - الانصاف والاستقامة
- على الحق - القساوة .

فنعول أما جنسا. رذائلها (١) « فأحدهما » :

النزور

كما علم ، وهو من طرف الافراط أي الاقدام على ما لا ينبغي والخوض في ما يمنعه العقل والشرع من الممالك والخاوف ، ولا ريب في أنه من المهلكات في الدنيا والآخرة ، ويدل على ذمه كل ما ورد في وجوب محافظة النفس وفي المنع عن إلقائها في الممالك ، كقوله تعالى : « وَلَا تُدْخِلُوا بُيُوتَكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » (٢) وغير ذلك من الآيات والأخبار . والحق أن من لا يحافظ نفسه عما يحكم العقل بلزوم المحافظة عنه فهو غير خال عن شائبة من الجنون ، وكيف يستحق اسم العقل من ألقى نفسه من الجبال الشاهقة ولم يبال بالسيوف الشاهرة أو وقع (٣) في الشطوط الغامرة الجارية ولم يحذر من السباع الضارية . كيف ومن ألقى نفسه فيما يظن به العطب ، فبلك ، كان قاتل نفسه بحكم الشريعة ، وهو يوجب الهلاك الأبدي والشقاوة السرمدية .

وعلاجه بعد تذكر مفسده في الدنيا والآخرة أن يقدم التروتي في كل

(١) أي القوة الغضبية

(٢) البقرة الآية ١٩١

(٣) كذا في النسختين ولعل الصحيح أوقع نفسه

فعل يريد الخوض فيه ، فإن جوزّه العقل والشرع ولم يحكما بالحذر عنه ارتكبه وإلا تركه ولم يقدم عليه . وربما احتاج في معالجته أن يلزم نفسه الحذر والاجتناب عن بعض ما يحكم العقل بعدم الحذر عنه ، حتى يقع في طرف التفريط ، وإذا علم من نفسه زوال التهور تركه وأخذ بالوسط الذي هو الشجاعة .
« وتأنيهما »

الجبن

وهو سكون النفس عن الحركة الى الانتقام أو غيره ، مع كونها أولى ، والغضب إفراط في تلك الحركة ، فله ضدية للغضب باعتبار ، وللتهور باعتبار آخر ، وعلى الاعتبارين هو في طرف التفريط من الميلاكت المظيمة ، ويلزمه من الأضرار الذميمة مهانة النفس والذلة وسوء العيش وطمع الناس فيما يملكه وقلة ثباته في الأمور والكسل وحب الراحة ، وهو يوجب الحرمان عن السعادات بأسرها ، وتمكين الظالمين من الظلم عليه وتحمله للفضائح في نفسه وأهله ، واستماع القبيح من الشتم والتنف ، وعدم مبالاته بما يوجب الفضيحة والعار وتعطيل مقاصده ومهمات ، ولذلك ورد في ذمه من الشريعة ما ورد . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرتد إلى أذل العمر » .

وعلاجه بعد تنبيه نفسه على قصاتها وهلاكها ان يحرك الدواعي الغضبية فيما يحل به الجبن ، فان القوة الغضبية موجودة في كل احد ، ولكنها تضعف وتنهش في بعض الناس فيحدث فيهم الجبن ، وإذا حزّك رهبة جت على

التواتر تقوى وتزيد ، كما أن النار الضعيفة تتوقد وتلهب بالتحريك المتواتر .
وقد نقل عن الحكماء أنهم يلقون أنفسهم في المخاطر الشديدة والخواف
العظيمة دفعاً لهذه الرذيلة ، ومما ينفع من المعالجات أن يكلف نفسه على الخاصة
مع من يأمن غوائله ، تحريكا لقوة الغضب ، وإذا وجد من نفسه حصول
ملكة الشجاعة فليحافظ نفسه لئلا يتجاوز ويقع في طرف الافراط .

وصل

« الشجاعة »

قد عرفت أن ضدّ هذين الجنسيتين هو (الشجاعة) ، فتذكر مدحها
وشراقبها ، وكلف نفسك المواظبة على آثارها ولوازمها ، حتى يصير ما تكلفته
طبعاً وملكة ، فترتفع عنك آثار الضدين بالكلية ، وقد عرفت أن الشجاعة
طاعة قوة الغضب للعاقلة في الأقدام على الأمور الهائلة وعدم اضطرابها بالخوض
في ما يفتنيه رأيها . ولا ريب في أنها اشرف الملكات النفسية وأفضل
الصفات الكمالية ، والفائد لها بريء عن الفحلية والرجولية وهو بالحقيقة من
النسوان دون الرجال ، وقد وصف الله خيار الصحابة بها في قوله : (أشداءُ
على الكفار) « ١ » وأمر الله نبيه بها بقوله : (وأغلظ عليهم) « ٢ »
إذ الشدة والغلظة من لوازمها وآثارها ، والأخبار مصرحة باتصاف المؤمن بها .
قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمن : « نفسه أصلب من الصلد »

« ١ » الفتح الآية ٢٩

« ٢ » التوبة الآية ٧٤

وقال الصادق عليه السلام : « المؤمن أصلب من الجبل إذ الجبل يستفل » (١) منه
والمؤمن لا يستفل من دينه »

* * *

وأما الانواع ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية فمهما :

الخوف

وهو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال مشكوك
الوقوع ، فلو علم أو ظن حصوله سمي توقعه انتظار مكروه ، وكان تألمه أشد
من الخوف ، وكلامنا في كليهما . وفرقه عن الجبن على ما قررناه من حدتها
ظاهر ، فإن الجبن هو سكون النفس عما يستحسن شرعاً وعقلاً من الحركة الى
الانتقام أو شيء آخر ، وهذا السكون قد يتحقق من غير حدوث التألم الذي هو
الخوف ، مثلاً من لا يجترئ على الدخول في السفينة أو النوم في البيت وحده
أو التعرض لدفع من يظلمه ويتعرض له يمكن اتصافه بالسكون المذكور مع عدم
تألمه بالفعل ، فمثله جبان وليس بخائف ، ومن كان له ملكة الحركة الى
الانتقام وغيره من الأفعال التي يجوزها الشرع والعقل ربما حصل له التألم المذكور
من توقع حدوث بعض المكروه كما اذا أمر السلطان بقتله فمثله خائف
وليس بجبان .

ثم الخوف على نوعين (أحدهما) مذموم بجميع أقسامه وهو الذي
لم يكن من الله ولا من صفاته المتمتضية للهبة والرعب ولا من معاصي العبد

« ١ » استفل الشيء أخذ منه أدنى جزء كعشره .

وجنباياته ، بل يكون لغير ذلك من الأمور التي يأتي تفصيلها ، وهذا النوع من ردائل قوة الغضب من طرف التفريط ومن نتائج الجبن ، و (ثانيها) محمود وهو الذي يكون من الله ومن عظمته ومن خطأ العبد وجنبايته ، وهو من فضائل القوة الغضبية ، إذ العاقلة تأمر به وتحسنه ، فهو حاصل من اتقيادها لها . ولنفصل القول في أقسام النوعين وبيان العلاج في إزالة أقسام الأول ونحصل الثاني :

فصل

« الخوف المذموم وأقسامه »

لنوع الأول أقسام يقبحها العقل بأسرها ولا يجوزها ، فلا ينبغي للعاقل أن يتطرقها الى نفسه . بيان ذلك ان باءث هذا الخوف يتصور على أقسام :

(الأول) أن يكون أمراً ضروريا لآزم الوقوع ولم يكن دفعه في مقدرة البشر ، ولا ريب في أن الخوف من مثله خطأ محض ، ولا يترتب عليه فائدة سوى تعجيل عتوبة بصدّه عن تدبير مصالحه الدنيوية والدينية والعقل لا يتطرق على نفسه مثل ذلك ، بل يسلي نفسه ويرضيها بما هو كائن ادراكاً لراحة العاجل وسعادة الآجل .

(الثاني) أن يكون أمر ممكناً لم يجزم بشيء من طرفيه ، ولم يكن لهذا الشخص مدخلة في وقوعه ولا بوقوعه ، ولا ريب في أن الجزم بوقوع مثله والتألم لأجله خلاف مقتضى العقل ، بل اللازم إبقاؤه على إمكانه من دون

جزم بمحصله ، ف (لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) « ١ » وهذا القسم مع مشاركته للأول في استلزامه تعجيل العقوبة بلا سبب ، لعدم مدخليته لاختياره فيه ، يمتاز عنه بعدم الجزم بوقوعه ، فهو بعدم الخوف أولى منه .

(الثالث) أن يكون أمراً ممكناً فاعله هذا الشخص وهو ناشئ عن سوء اختياره ، فعلاجه ألا يرتكبه ولا يقدم على فعل يخاف من سوء عاقبته فانه إما فعل غير قبيح من شأنه التأدي الى ما يضره ، ولا ريب في أن ارتكابه مثله خلاف حكم العقل ، ولو ظهر التأدي بعد إيقاعه فيكون من الثاني ، أو فعل قبيح لو ظهر أوجب الفضيحة والمؤاخذه ، وإما فعله ظناً منه أنه لا يظهر ، ثم يخاف من الظهور والمؤاخذه ، ولا ريب في أن هذا الظن ناشئ عن الجهل ، إذ كل فعل يصدر عن كل فاعل ولو خفية يمكن أن يظهر ، وإذا ظهر يمكن إيجابه للفضيحة والمؤاخذه ، والعقل العالم بطبيعة الممكن لا يرتكب مثله ، فباعت الخوف في الثاني هو الحكم على الممكن بالوجوب ، وفي هذا الحكم عليه بالامتناع ، ولو حكم عليه بما يقتضي ذاته أمن من الخوفين .

(الرابع) أن يكون مما تتوحش منه الطباع بلا داع عقلي ولا باعث نفس امري ، كالميت والجن وأمثالهما (لا سيما في الليل مع وحدته ، ولا ريب في أن هذا ناشئ عن قصور العقل ومقهوريته عن الواهمة فليحرك القوة الغضبية ويهيئها لتغلب به العاقلة على الوهم ، وربما ينفع إلزام نفسه على الوحدة في الليالي المظلمة والصبر عليها حتى يزول عنه هذا الخوف على التدريج .

ثم لما كان خوف الموت أشد أقسام هذا النوع وأعما فلنشئ الى علاجه بخصوصه : فنقول : باعث خوف الموت بمقتضى أموراً .

(الأول) تصوّر فناء ذاته بالكيفية وصيرورته عدماً محضاً بالموت ، ولا ريب في كونه ناشئاً عن محض الجهل ، إذا الموت ليس إلا قطع علاقة النفس عن بدنه وهي باقية أبداً كما دلت عليه القواطع العقلية والشواهد الذوقية والظواهر السمعية ، ولعل ما تقدم يكفي لإثبات هذا المطلوب . ومع قطع النظر عن ذلك نقول : كيف يجوز لمن له أدنى بصيرة أن يجتمع عظماء نوع الانسان بمخالفهم كأهل الوحي والالهام وأساطين الحكمة والعرفان على محض الكذب وصرف الباطل ، فمن تأمل أدنى تأمل يتخلص من هذا الخوف .

(الثاني) تصوّر إيجابه ألماً جسيماً لا يتحمل مثله ولم يدرك في الحياة شبهه ، وهذا أيضاً من الخيالات الفاسدة ، فإن الألم فرع الحياة ، والألم الجسماني ما دامت الحياة لا يكون أشد مما رآه كل انسان في حياته من الأوجاع وقطع الاتصال ، وبعد زوال الحياة لا معنى لوجوده ، إذ كل جسماني إدراكه بواسطة الحياة ، وبعد انقطاعها لا إدراك ، فلا ألم .

(الثالث) تصوّر عروض نقصان لأجله ، وهو أيضاً غفلة عن حقيقة الموت والانسان ، إذ من علم حقيقتيهما يعلم أن الموت متمم الانسانية وآثارها ، والمائة جزء لحد الانسان ، ولذا قال أوائل الحكماء : (الانسان حي ناطق مائة) وحد الشيء يوجب كماله لا نقصانه ، فبالموت تحصل التمامية دون النقصان (نشيد كه هركه بمردي أو تمام شد) « ١ » فالانسان الكامل يشترك الى الموت ، لاقتضائه تماميته وكماله وخروجه عن ظلمة الطبيعة ومجاورة الأشرار الى عالم الأنوار ومرافقة الأخيار من العقول القادسة والنفوس الطاهرة ، واي

« ١ » هذه الجملة من الكلمات الحكيمية القصيرة ، ومعناها : إنما سمعت :

بأن كل من مات صار انساناً كاملاً .

عاقِل لا يرجح الحياة العقلية والابتهاجات الحقيقية على الحياة الموحشة الميولانية المشوبة بأنواع الآلام والمصائب واصناف الأسقام والنوائب .

فيأحييني تيمتظ من نوم الغفلة وسكر الطبيعة ، واستمع النصيحة ممن هو أحوَج منك الى النصيحة : حرك الشوق الكامن في جوهر ذاتك الى عالمك الحقيقي ومقرِّك الأصلي وانسلخ عن القشورات الميولانية وانفض عن روحك القدسي ما لزقه من الكدورات الجسمانية ، وطهر نفسك الزكية عن ادناس دار الغرور وارجاس عالم الزور ، واكسر قفصك الترابي الظلماني وطر بجناح همتك الى وكرك القدسي النوراني وارفع عن حضيض الجهل والنقصان الى اوج العزة والعرفان ، وخلص نفسك عن مضيق سجن الناسوت وسيرها في قضاء قدس اللاهوت ، فما بالك نسيت عهود الحمي ورضيت بمصاحبة من لا ثبات له ولا وفاء !

زد سحر طائر قدسم زسر سدره صغير كه در اين دامكه حادثه آرام مگير (١)
(الرابع) صعوبة قطع علاقته من الأولاد والأموال والمناصب والاحباب

(١) هذا البيت للشاعر الفارسي الفيلسوف الشهير حافظ الشيرازي ، وهو من أبيات العرفان . وأراد [بالسحر] على سبيل الرمز وقت استكمال النفس وتنميتها ، و [بالطائر القدسي] ما يرمز اليه العرفاء المسمى عندهم ايضاً [البيضاني] وهو أحد العقول المجردة الذي بصفيره يوقظ الراقدين في مراتد الظلمات ، وبصوته يذب الغافلين عن تذكر الآيات ، و [بالسدر] سدرة المنتهى المقصود منها منتهى قوس الصعود في سلسلة المهكئات .

وحاصل معنى البيت المطابق : قد صفر الطائر القدسي المنسوب الي من على السدر في السحر ، ويقول في صفيره : لا تستقر في المصيدة الخفيفة (وهي الدنيا وعوالم السفليات) والمراد أن يذهب عنها الى عالم المجردات النوراني حرّاً طليقاً .

ومعلوم أن هذا ليس خوفاً من الموت في نفسه ، بل هو حزن على مفارقة بعض الزخارف الفانية ، وعلاجه أن يتذكر أن الأمور الفانية مما لا يليق بالعاقل أن يرتبط بها قلبه ، وكيف يحب العاقل خسائس عالم الطبيعة ويطمئن إليها ، مع علمه بأنه عن قريب يفارقها ، فاللازم أن يخرج حب الدنيا وأهلها عن قلبه ليتخلص من هذا الألم .

(الخامس) تصوّر سرور الأعداء وشماتتهم بموته ، وهذا وسوسة شيطانية صادرة عن محض التوهم ، إذ مسرة الأعداء أو شماتتهم لا توجب ضرراً في إيمانه ودينه ولا ألماً في روحه وجسمه ، على أن ذلك لا يختص بالموت إذ العدو يشمت ويفرح بما يرد عليه في حال الحياة أيضاً من البلاء والحن ، فمن كره ذلك فليجتهد في قطع العداوة وإزالتها بالمعاملات المقررة للحقد والحسد .

(السادس) تصوّر تضييع الأولاد والعيال وهلاك الأعوان والأوصياء ، وهذا أيضاً من الوسوس الباطلة الشيطانية والخواطر الفاسدة النفسانية ، إذ ذلك يوجب ظن منشئية لا استكمال الغير وعزته ، ومدخلية في قوته وثروته ، وذلك ناشئ من جهل بالله وبفضائه وقدره ، إذ فيضه الأقدس اقتضى إيصال كل ذرة من ذرات العالم إلى ما يليق بها وإبلاغها إلى ما خلقت لأجله ، وليس لأحد أن يغير ذلك أو يبدله . ولذا ترى أكثر الأفاضل يجتهدون في تربية أولادهم ولا ينجح سعيهم أصلاً ، وتشاهد غير واحد من الأغنياء يخلصون لأولادهم أموالاً كثيرة وتخرج عن أيديهم في مدة قليلة ، وترى كثيراً من أيتام الأطفال لا تربية لهم ولا مال ومع ذلك يبلغون بالترية الأزلية مدارج الكمال أو يحصلون ما لا يحصر له من الأموال . والغالب أن الأيتام الذين ذهب عنهم الآباء في حالة الصبي تكون تربيته في الآخرة والدنيا أكثر من الأولاد الذين

نشؤا في حجر الآباء . والتجربة شاهدة بأن من اطمأن من اولاده بمال يخلفه لهم أو ذي قوة يفوض اليه امورهم اعتراهم بعده الفقر والفاقة والذلة والمهانة ، وربما صار ذلك سبباً لهلاكهم وانقراضهم . ومن فوض امورهم الى رب الأرباب وخالق العباد ازداد لهم بعده عزاً وقوة وكثرة وثروة . فاللائق بالعقلاء أن يفوضوا امور الأولاد وغيرهم من الأقارب والأقارب الى من خلقتهم ورباهم ويوكاهم الى موجدهم ومولاهم وهو نعم المولى ونعم الوكيل . وقد ظهر أن الخوف من الموت لأجل البواعث المذكورة لا وجه له .

ثم ينبغي للعاقل أن يتفكر في أن كل كائن فاسد ألبتة ، كما تقرر في الحكمة ، وهو من الكائنات ، والفساد ضروري له ، فمن أراد وجود بدنه أراد فسادَه اللازم له ، فتمني دوام الحياة من الخيالات الممتنعة ، والعاقل لا يحوم حولها ولا يتمنى مثلها ، بل يعلم يقيناً أن ما يوجد في النظام الكلي هو الأصلح الأكل وتغييره ينافي الحكمة والخيرية ، فيرضى بما هو واقع على نفسه وغيره من غير ألم وكدورة . ثم من يتمنى طول عمره فقصوده منه إن كان حب للذات الجسمية وامتداد زمانها ، فليعلم أن الشيب إذا أدركه ضعفت الأعضاء واختلت القوى وزالت عنه الصحة التي هي عمدة لذاته فضلاً عن غيرها ، فلا يلتذ بالأكل والجماع وسائر اللذات الحسية ، ولا يخلو لحظة عن مرض وألم ، وتراجع جميع أحواله ، فتبدل قوته بالضعف وعزّه بالذل ، وكذا سائر أحواله ، كما اشير اليه في الكتاب الإلهي بقوله تعالى : « وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » (١) ، ومع ذلك لا يخلو كل يوم من مفارقة حبيب أو شقيق ومهاجرة قريب أو رفيق ، وربما ابتلي بأنواع المصيبات وتهجم عليه الفقر والفاقة

والنكبات ، وطالب العمر في الحقيقة طالب هذه الزحمات . وإن كان مقصوده منه اكتساب الفضائل العلمية والعملية ، فلا ريب في أن تحصيل الكمالات بعد أوان الشيخوخة في غاية الصعوبة ، فمن لم يحصل الفضائل الخلقية الى أن أدركه الشيب ، واستحكمت فيه الملكات المهلكة من الجهل وغيره ، فأتى يمكنه بعد ذلك إزالتها وتبديلها بمقابلاتها ، إذ رفع ما رسخ في النفس مع الشيخوخة التي لا يمتد معها على الرياضات والمجاهدات غير ممكن ، ولذا ورد في الآثار « أن الرجل إذا بلغ أربعين سنة ولم يرجع الى الخير جاء الشيطان ومسح على وجهه وقال بأبي وجه من لا يفلح أبداً » . على أن الطالب للسعادة ينبغي أن يكون مقصودا لهم في كل حال على تحصيلها ، ومن جعلها دفع طول الأمل والرضا بما قدر له من طول العمر وقصره ، ويكون سعيه أبداً في تحصيل الكمالات بتدريج الامكان والتخلص عن مزاحمة الزمان والمكان ، وفتح علاقته من الدنيا وزخارفها الفانية ، والميل الى الحياة والذات الباقية والاهتمام في كسب الابتهاجات العقلية والاتصال التام بالحضرة الالهية ، حتى يتخلص عن سجن الطبيعة ويرتقي الى ارج عالم الحقيقة ، فيتفق له الموت الارادي الموجب للحياة الطبيعية ، كما قال (معلم الأشراف) : « مت بالارادة تحي بالطبيعة » ، فينتقل الى مقعد صدق هو مستقر الصديقين ، ويصل الى جوار رب العالمين ، وحينئذ يشاق للموت ولا يبالي بتقديمه وتأخيريه ، ولا يركن الى ظلمات البرزخ الذي هو منزل الأشقياء والفجار ومسكن الشياطين والأشرار ، ولا يتمنى الحياة الفانية أصلاً ، وينطق بلسان الحال :

خرم آن روز كزین منزل ویران بروم

راحت جان طلبم وز پی جانان بروم

بهوای لب او ذره صفت رقص کنان

تا لب چشمه خورشید درخشان بروم «١»

(السابع) تصوّر العذاب الجسماني والروحاني المترتب على ذمائم الأعمال وقبائح الأفعال ، ولا ريب في أن الخوف من ذلك ممدوح ، وهو معدود من أقسام النوع الثاني ، إلا أن البقاء عليه وعدم السعي في ما يدفعه من ترك الخطيئات وكسب الطاعات جهل وبطالة ، إذ هذا الخوف ناشئ من سوء الاختيار ، وقد بعث الله الرسل وأوصيائهم لاستخلاص الناس عنه ، فعلاجه ترك المماصي وتحصيل معالي الأخلاق ، ومعلوم أن المنهمك في المماصي مع خوفه من العذاب كالملقي نفسه في البحر أو النار مع خوفه من الغرق والحرق ، ولا ريب في أن إزاة هذا الخوف باختياره ، فليترك المماصي ويجتهد في كسب وظائف الطاعات ليتخلص عنه ، واهتمام أكابر الدين من الأنبياء والمرسلين والحكماء والصدّيقين في وظائف الطاعات وصبرهم على مشاق العبادات ومجاهدتهم مع جنود الشياطين إنما هو لدفع هذا الخوف عن نفوسهم ، فهو في الحقيقة ناشئ منك ومن سوء اختيارك ، فبادر إلى تقليده بالمراظبة على صوالح الأعمال وفضائل

«١» البيتان للشاعر النعمان سرف [حافظ الشيرازي] . ومعنى الأول :

(إن سروري يكون في يوم الرحيل من هذه الدار الخربة طلباً لراحة نفسي ولقاء الحبيب) . ويقصد بحبيبه الحق الأول وراحة نفسه النعيم الأبدي وبالرحيل عن الدار الخربة انتقال نفسه من بدنه بالموت .

ومعنى البيت الثاني : [اني لشرقي الى لقاء الحبيب أهتز استأزاز الذرة

في ضوء الشمس لكي اصل الى لقاء عين الشمس المتوهجة] ويقصد بعين الشمس خالق الكائنات .

الأفعال ، وقد يأتي أن هذا الخوف هو سوط الله الباعث على العمل ، ومعه لو كان مفراطاً فليعالج بأسباب الرجاء ، وبدونه فلا بد أن يكون حتى يبعثه عليه ، على أنه مع عظم جرمه وقصور باعه عن تداركه فلا ينبغي أن يئس من روح الله ، فلعل واسع الرحمة السابقة على الغضب يدركه بسابقة من القضاء والقدر .

فصل

« الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته »

وللنوع الثاني من الخوف أقسام : (الأول) أن يكون من الله سبحانه ومن عظمته وكبريائه وهذا هو المسمى بالخشية والرغبة في عرف أرباب القلوب ، (الثاني) من جنابة العبد باقتراحه المعاصي ، (الثالث) أن يكون منها جميعاً . و كلما ازدادت المعرفة بجلال الله وعظمته وتعالیه وبعيوب نفسه وجنایاته ، ازداد الخوف ، إذ ادراك القدرة القاهرة والعظمة الباهرة والقوة القوية والعزة المديدة يوجب الاضطراب والدهشة ، ولا ريب في أن عظمة الله وقدرته ، سائر صفاته الجلالية والجمالية غير متناهية شدة وقوة ، ويظهر منها على كل نفس ما يطيقه ويستعده ، وأتى لاحد من أولي المدارك أن يحيط بصفاته على ما هي عليه ، فإن المدارك عن إدراك غير المتناهي قاصرة ، نعم لبعض المدارك العالية أن يدركه على الأجمال ، مع أن ما يظهر للعقل من صفاته ليس هو من حقيقة صفاته ، بل هو غاية ما تنادى اليه عقولهم ويتصور كمالاً ، ولو ظهر قدر ذرة من حقيقة بعض صفاته لأقوى العقول وأعلى المدارك ، لا حرق من سبحت وجهه وتفرقت أجزاءه من نور ربه ، ولو انكشف من بعضها الغطاء

لزهقت النفوس وتطعت القلوب ، فغاية ما للمدارك العالية من العقول والنفوس
القادسة ، أن يتصور عدم تناهيهما في الشدة والقوة وكونها في السكال والبهاء
غاية ما يمكن ويتصور ويحتمله ظرف الواقع ونفس الأمر ، كما هو الشأن في ذاته
سبحانه ، وإدراك هذه الغاية أيضاً يختلف باختلاف علو المدارك فمن كان في
الدرك أقوى وأقدم كان بربه أعرف ومن كان به أعرف كان منه أخوف ، ولذا
قال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) « ١ » وقال سيد الرسل :
« أنا أخوفكم من الله » وقد قرع سمعك حكايات خرف زمرة المرسلين ومن
بعدهم من فرق الأولياء والعارفين ، وعروض الغشيات المتواترة في كل ليلة
لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام .

وهذا مقتضى كمال المعرفة الموجب لشدة الخوف إذ كمال المعرفة يوجب
احتراق القلب ، فيفيض أثر الحرقه من القلب الى البدن بالنحول والصفار
والغشية والبكاء - وإلى الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً
لما فرط في جنب الله ، ومن لم يجتهد في ترك المعاصي وكسب الطاعات فليس
على شيء من الخوف ، ولذا قيل ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، بل
من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه ، وقال بعض الحكماء : « من خاف شيئاً
هرب منه ومن خاف الله هرب إليه » وقال بعض العرفاء : « لا يكون العبد
خائفاً حتى ينزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام » - وإلى
الصفات بقمع الشهوات وتكدر الذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة
كما يصير العبد مكروهاً عند من يشتميه إذا عرف كونه مسوماً ، فتحترق
الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والنلّة والخشوع.

والاستكانة ، وتفارقه ذمائم الصفات ويصير مستوعب الهمم بخوفه والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذه النفس في الخطرات والكلمات ، ويشغل ظاهره وباطنه بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره ، كما أن من وقع في محالب ضاري السبع يكون مشغول الهمم به ولا شغل له بغيره . وهذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، كما جرى عليه جماعة من الصحابة والتابعين ومن يحدوهم من السلف الصالحين .

فقدوة المجاهدة والمحاسبة بحسب شدة الخوف الذي هو حرقرة القلب وتألمه ، وهو بحسب قوة المعرفة بجلال الله وعظمته وسائر صفاته وأفعاله ، وبميوّب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال .

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يكف عن المحظرات، ويُسمى الكف منها (ورعاً) ، فإن زادت قوته كف عن الشبهات ، ويسمى ذلك (تقوى) ، إذ التقوى أن يترك ما يريد إلى ما لا يريه ، وقد يحمله على ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، وهو الصدق في التقوى ، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة ، وصار ممن لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنه يفارقها ، ولا يصرف إلى غير الله كفناً من أنفاسه فهو (الصدق) ، ويسمى صاحبه (صديقاً) ، فيدخل في الصدق التقوى ، وفي التقوى الورع ، وفي الورع العفة ، لأنها عبارة عن الامتناع من مقتضى الشهوات .

فاذن يؤثر الخوف في الجوارح بالكف والإقدام .

فصل

« بـم يتحقق الخوف »

إعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار ، أو مكروهاً لافضائه الى المكروه في ذاته كالمعاصي المفضية الى المكروه لذاته في الآخرة ، ولا بد لكل خائف أن يتمثل في نفسه مكروه من أحد القسمين ، ويقوى انتظاره في قلبه حتى يتألم قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ويختلف مقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة . فالذين يغلب على قلوبهم خوف المكروه لذاته ، فإما أن يكون خوفهم من سكرات الموت وشدته وسؤال النكيرين وغلظته ، أو عذاب القبر ووحدته وهول المطلع ووحشته ، أو من الموقف بين يدي الله وهيبته والحياء من كشف سريرته ، أو من الحساب ودقته والصراط وحدته ، أو من النار وأهوالها والجحيم وأغلالها أو الحرمان من دار النعيم وعدم وصوله الى الملك المقيم ، أو من نقصان درجاته في العليين وعدم مجاورته المترين ، أو من الله سبحانه بأن يخاف جلاله وعظمته والبعد والحجاب منه ويرجو القرب منه ، وهذا أعلاها رتبة ، وهو خوف أرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والعالمين بلذة الوصال وألم البعد والفراق والمطلعين على سرّ قوله : (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) « ١ » وقوله : (وَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ) « ٢ » وقيل ذلك خوف

« ١ » آل عمران الآية ٢٧

« ٢ » آل عمران الآية ٩٧

العابدين والزاهدين وكافة العاملين .

وأما الذين غلب على قلوبهم خوف المكروه لغيره ، فلما يكون خوفهم من الموت قبل التوبة ، أو تقضيها قبل انقضاء المدة ، أو من ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله ، أو تخليته مع حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله ، أو من الميل عن الاستقامة ، أو الى اتباع الشهوات المألوفة استيلاء للعادة ، أو تبديل رقة القلب الى القساوة ، أو تبعات الناس عنده من الغش والعداوة ، أو من الاشتغال عن الله بغيره ، أو حدوث ما يحدث في بقية عمره ، أو من البطر والاستدراج بتواتر النعم ، أو انكشاف غوائل طاعته حتى يبدو له من الله ما لم يعلم ، أو من الاغترار بالدنيا وزخارفها الفانية ، أو تعجيل العقوبة بالدنيا واقتضاحه بالعلانية ، أو من اطلاع الله على سريره وهو عنه غافل وتوجهه الى غيره وهو اليه ناظر ، أو من الختم له عند الموت بسوء الخاتمة ، أو مما سبق له في الأزل من السابقة ، وهذه كلها مخاوف العارفين .

ولكل واحد منها خصوص فائدة هو الحذر عما يفضي الى الخوف ، فالخائف من تبعات الناس يجتهد في براءة ذمته عنها ، ومن استيلاء العادة يواظب على فطام نفسه عنها ، ومن اطلاع الله على سريره يشتغل بتطهير قلبه عن الوسوس ، وهكذا في بقية الأقسام .

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف سوء الخاتمة وهو الذي قطع قلوب العارفين ، إذ الأمر فيه مخطر كما يأتي ، وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ويترتب عليها بعد تخلل أسباب كثيرة ، ولذا قال العارف الأنصاري : « الناس يخافون من اليوم الآخر وأنا أخاف من اليوم الأول » فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في

في أم الكتاب ، واليه اشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنبر ، حيث رفع يده اليمنى قابضاً على كفه ، ثم قال : « أتدرون أيها الناس ما في كفي » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم الى يوم القيامة » ، ثم رفع يده اليسرى وقال : « أيها الناس اتدرون ما في كفي » قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : « أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم الى يوم القيامة » ثم قال : « حَكَمَ الله وَعَدَلَ ، حَكَمَ الله « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (١) » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « يسلك بالسعيد في طريق الأشتياء حتى يقول الناس ما اشبهه بهم بل هو منهم ، ثم تتداركه السعادة ، وقد يسلك بالشقي طريق السعداء حتى يقول الناس ما اشبهه بهم ، بل هو منهم ، ثم يتداركه الشقاء . إن من كتبه الله سعيداً وإن لم يبق من الدنيا إلا فواق ناقة ختم له بالسعادة » (٢) .

فصل

الخوف من الله أفضل الفضائل

الخوف منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، وهو أفضل الفضائل النفسانية ، إذ فضيلة الشيء بقدر إعانته على السعادة ، ولا سعادة كسعادة لقاء الله والقرب منه ، ولا وصول اليها إلا بتحصيل محبته والانس به ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الانس إلا

(١) الشورى الآية ٦

(٢) هذا الحديث مروي في اصول الكافي في باب السعادة والشقاوة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام

بالحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الفكر والذكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقلع ذلك إلا بقمع لذاتها وشهواتها ، وأقوى ما تنقمع به الشهوة هو نار الخوف ، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فاذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ويكف من المعاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما مر .

وقيل : من أنس بالله وملك الحق قلبه وبلغ مقام الرضا وصار مشاهداً لجمال الحق لم يبق له الخوف ، بل يتبدل خوفه بالأمن ، كما يدل عليه قوله سبحانه : « أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » (١) إذ لا يبقى له التفات الى المستقبل ولا كراهية من مكروه ولا رغبة الى محبوب ، فلا يبقى له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى منهما ، نعم لا يخلو عن الخشية أي الرهبة من الله ومن عظمت هيبته وإذا صار متجلياً بنظر الوحدة لم يبق فيه أثر من الخشية ايضاً ، لأنه من لوازم التكبر وقد زال . ولذا قيل : « الخوف حجاب بين الله وبين العبد » وقيل ايضاً : « إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها محل لخوف ولا رجاء » وقيل ايضاً : « المحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في دوام الشهود الذي هو غاية المقامات » .

وأنت خبير بأن هذه الأقوال مما لا التفات لنا اليها ، فلنرجع الى ما كنّا بصدد من بيان فضيلة الخوف ، فنقول الآيات والأخبار الدالة عليه أكثر من أن تحصى ، وقد جمع الله للخائفين العلم والهدى والرحمة والرضوان ، وهي مجامع مقاسات أهل الجنان ، فقال : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (٢)

١ الأنعام الآية ٨٢

٢ الفاطر الآية ٣٥

وقال : « هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » (١) وقال : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » (٢) وكثير من الآيات مصرحة بكون الخوف من لوازم الايمان ، كقوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » (٣) وقوله : « وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٤) ومدح الخائفين بالتذكر في قوله : « سَيَذَكِّرُنَا مَنْ يَخْشَى » (٥) ووعدهم الجنة وجنتين ، بقوله : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَمَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » (٦) وقوله : « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ » (٧) وفي الخبر القدسي وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمعه آمنين ، فاذا أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة وإذا خافني في الدنيا أمنت يوم القيامة وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « رأس الحكمة مخافة الله » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء » (٨) وقال لابن مسعود : « إن

(١) الاعراف الآية ١٥٣

(٢) البينة الآية ٨

(٣) الأنفال الآية ٢

(٤) آل عمران الآية ١٦٩

(٥) الأعلى الآية ١١

(٦) النازعات الآية ٤٠ - ٤١

(٧) الرحمن الآية ٤٦

٨ روي الحديث في اصول الكافي في باب الخوف والرجاء عن

الصادق عليه السلام .

أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً » .

وعن ليث بن أبي سليم قال : « سمعت رجلاً من الأنصار يقول بينما رسول الله مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر ، إذ جاء رجل فنزع ثيابه ، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء يكوي ظهره مرة وبطنه مرة وجهته مرة ، ويقول : يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك ، ورسول الله ينظر إليه ما يصنع ثم إن الرجل لبس ثيابه ، ثم أقبل فأومى إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيده ودعاء ، فقال له : يا عبد الله رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه ، فما حملك على ما صنعت ؟ . فقال الرجل حملني على ذلك مخافة الله ، فقلت لنفسي يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقد خنت ربك حق مخافته وإن ربك ليباهي بك أهل السماء ، ثم قال لأصحابه يا معشر من حضر ادنوا من صاحبكم حتى يدعو لكم ، فدنا منه فدعاهم ، وقال : (اللهم اجمع أمرنا على الهدى واجعل التقوى زادنا والجنة مأبنا) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : (ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله ثم يصيب شيئاً من حر وجهه إلا حرمه الله على النار) ، وقال : « إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياهم كما يتحات من الشجر ورقها » ، وقال : « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع » ، وقال سيد الساجدين في بعض أدعيته : « سبحانك عجيباً لمن عرفك كيف لا يخافك » وقال الباقر عليه السلام : « صلى أمير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق فلما انصرف وعظهم ،

فبكى وابكاهم من خوف الله ، ثم قال اما والله لقد عهدت اقواماً على عهد خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنهم ليصبحون ويمسون شعناً غير اخصاً بين اعينهم كركب البعير يبيتون لرهبهم سجداً وقياماً يراوحون بين أقدامهم وجباههم يناجون ربهم في فكك رقابهم من النار ، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون ، وفي رواية أخرى : وكأن زفير النار في آذانهم إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر كأنما القوم باتوا غافلين ، ثم قال عليه السلام : « فمارئي عليه السلام بعد ذلك ضاحكاً حتى قبض » ، وقال الصادق عليه السلام : « من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سحت نفسه عن الدنيا » ، وقال عليه السلام . « إن من العبادة شدة الخوف من الله تعالى يقول « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقال : « فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشْنِي » (١) وقال : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً » (٢) وقال : إن حب الشرف والذكر لا يكونان في قاب الخائف الراهب ، وقال عليه السلام : « المؤمن بين مخافتين ذنب قد مضى ما يدري ما صنع الله فيه وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك ، فهو لا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه إلا الخوف » ، وقال عليه السلام : (خف الله كأنك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك) ، وإن كنت ترى أنه لا يراك ، فقد كفرت ، وإن كنت تعلم أنه يراك ، ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك) ، وقال عليه السلام : (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو) ، وقال عليه السلام : « فما حفظ من خطب النبي صلى الله

(١) المائدة الآية ٤٨

(٢) الطلاق الآية ٦

عليه وآله وسلم انه قال : « أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ، ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر وفي الحياة قبل الممات ، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار الا الجنة أو النار » .

ثم الأخبار الواردة في فضل العلم والتقوى والورع والبكاء والرجاء تدل على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به تعلق السبب او تعلق المسبب ، إذ العلم سبب الخوف والتقوى والورع يحصلان منه ويترتبان عليه كما ظهر مما سبق ، والبكاء ثمرته ولازمه ، والرجاء يلزمه ويصاحبه ، إذ كل من رجا محبوباً فلا بد أن يخاف فوته ، اذ لو لم يخف فوته لم يحبه ، فلا ينفك أحدهما عن الآخر ، وإن جاز غلبة أحدهما على الآخر ، اذ من شرطها تعلقها بالمشكوك ، لأن المعلوم لا يرجى ولا يخاف ، فالمحبوب المشكوك فيه تقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يؤلمه وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان ، نعم أحد طرفي الشك قد يترجح بحضور بعض الاسباب ويسمى ذلك ظناً ومقابله وهماً ، فإذا ظن وجود المحبوب قوي الرجاء وضعف الخوف بالاضافة اليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال الله سبحانه : « يَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً » « ١ » قال : « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً » « ٢ » وقد ظهر أن ما يدل على فضل الخمسة يدل على فضيلته ، وكذا ما ورد في ذم

(١) الأنبياء الآية ٩٠

(٢) السجدة الآية ١٦

الآمن من مكر الله يدل على فضيلته ، لأنه ضده وذم الشيء مدح لضده الذي ينفيه ، ومما يدل على فضيلته ما ثبت بالتواتر من كثرة خوف الملائكة والأنبياء وأئمة الهدى عليهم السلام كخوف جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش وغيرهم من الملائكة المهيمنين والمسلمين ، وكخوف نبينا وإبراهيم وموسى وعيسى وداود ويحيى وغيرهم وخوف أمير المؤمنين وسيدنا ساجدين وسائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام ، وحكاية خوف كل منهم في كتب المحدثين من ذكره وفي زبرهم مسطورة ، فليرجع اليها من أراد ومن الله العصمة والسداد .

فصل

« الخوف اذا جاوز حده كان مذموماً »

اعلم ان الخوف ممدوح الى حد فان جاوزه كان مذموماً ، وبيان ذلك أن الخوف سوط الله الذي يسوق به العباد الى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب اليه تعالى ولذة الحبة والانس به ، وكما أن السوط الذي تساق به البهيمة ويأدب به الصبي له حد في الاعتدال لو قصر عنه لم يكن نافعا في السوق والتأديب ، ولو تجاوز عنه في المقدار أو الكيفية أو المبالغة في الضرب كان مذموماً لأدائه الى إهلاك الدابة والصبي ، فكذلك الخوف الذي هو سوط الله لسوق عباده له حد في الاعتدال والوسط ، وهو ما يوصل الى المطلوب ، فان كان قاصراً عنه كان قليل الجدوى وكان كقضييب ضعيف يضرب به دابة قوية فلا يسوقها الى المتصد ، ومثل هذا الخوف يجري مجرى رقة النساء عند سماع شيء محزن يورث فيهن البسك ، وبمجرد انقطاعه يرجعن الى حالهن الاولى ،

او مجرى خوف بعض الناس عند مشاهدة سبب هائل واذا غاب ذلك السبب عن الحسّ رجع القلب الى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ، فالخوف الذي لا يؤثر في الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً ، ولو كان مفرطاً ربما جاوز الى القنوط وهو ضلال (وَ مَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) «١» أو الى اليأس وهو كفر (وَلَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) «٢» .

ولا ريب في أن الخوف المجاوز الى اليأس والقنوط يمنع من العمل لرفعها نشاط الخاطر الباعث على الفعل واجبا بهما كسالة الأعضاء المانعة من العمل ، ومثل هذا الخوف محض الفساد والنقصان وعين القصور والخسران ، ولا رجحان له في نظر العقل والشرع مطلقاً ، إذ كل خوف بالحقيقة نقص لكونه منشأ العجز ، لأنه متعرض لمحدور لا يمكنه دفعه ، وباعث الجهل لعدم اطلاعه على عاقبة أمره ، إذ لو علم ذلك لم يكن خائفاً ، لما مرّ من أن الخوف هو ما كان مشكوكا فيه ، فبعض أفراد الخوف إنما يصير كمالاً بالاضافة الى نقص أعظم منه ، وباعتبار رفعه المعاصي وافضائه الى ما يترتب عليه من الورع والتقوى والمجاهدة والذكر والعبادة وسائر الأسباب الموصلة الى قرب الله وأنسه ، ولولم يؤدّ اليها كان في نفسه نقصاً لا كمالاً ، إذ الكمال في نفسه هو ما يجوز أن يوصف الله تعالى به كالعلم والقدرة وأمثالها ، وما لا يجوز وصفه به ليس كمالاً في ذاته ، وربما صار محموداً بالاضافة الى غيره وبالنظر الى بعض فوائده ، فما لا يفضي الى فوائده الممتصودة منه لأفراطه فهو مذموم ، وربما أوجب الموت

أو المرض أو فساد العقل ، وهو كالضرب الذي يقتل الصبي أو يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها ، وإنما مدح صاحب الشرع الرجاء وكلف الناس به ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي الى اليأس أو الى أحد الأمور المذكورة ، فالخوف المحمود ما يفضي الى العمل مع بقاء الحياة وصحة البدن وسلامة العقل ، فان تجاوز الى إزالة شيء منها فهو مرض يجب علاجه ، وإذا كان بعض مشائخ العرفاء يقول للمرئاضين من مريديه 'ملازمين للجوع أياماً كثيرة : « احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل » وما قيل : « إن من مات من خوف الله تعالى مات شهيداً » ، معناه ان موته بالخوف أفضل من موته في هذا الوقت بدونه ، فهو بالنسبة اليه فضيلة ، لا بالنظر الى تقدير بقاءه وطول عمره في طاعة الله وتحصيل المعارف ، اذ للمترقي في درجات المعارف والطاعات له في كل لحظة ثواب شهيد أو شهداء ، فأفضل السعادات طول العمر في تحصيل العلم والعمل ، فكلما يبطل العمر أو العقل والصحة فهو خسران ونقصان .

فصل

طرق تحصيل الخوف الممدوح

لتحصيل الخوف الممدوح وجلبه طرق :

(الأول) أن يجتهد في تحصيل اليقين ، أي قوة الايمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار والحساب والعقاب ، ولا ريب في كونه مهيجاً للخوف من النار والرجاء للجنة ، ثم الخوف والرجاء يؤديان الى الصبر على المكروه والمشاق ، وهو الى المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ، ويقوى

دوام الذكر على الانس ، ودوام الفكر على كمال المعرفة ، ويؤدي الانس وكمال المعرفة الى المحبة ، ويتبعها الرضا والتوكل وسائر المقامات . وهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين ، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، ولا بعده سوى المجاهدة والتجرد لله ظاهراً وباطناً ، ولا بعده سوى الهداية والمعرفة ، ولا بعدهما سوى الانس والمحبة . ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل ، فاليقين هو سبب الخوف فيجب تحصيل السبب ليؤدي الى المسبب .

(الثاني) ملازمة التفكير في أحوال القيامة وأصناف العذاب في الآخرة واستماع المواعظ المنذرة والنظر الى الخائفين ومحاسنتهم ومشاهدة أحوالهم واستماع حكاياتهم ، وهذا مما يستجلب الخوف من عذابه تعالى ، وهو خوف عموم الخلق ، وهو يحصل بمجرد أصل الايمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وإنما يضعف الغفلة أو ضعف الايمان ، وتزول الغفلة والضعف بما ذكر . وأما الخوف من الله بأن يخاف البعد والحجاب ويرجو القرب والوصول وهو خوف أرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الخوف والهيبة ، المطمئنين على سر قوله : « وَيُخَذِّرُكُمْ اللَّهُ تَفْسَهُ » (١) وقوله : « فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ » (٢) فالعلاج في تحصيله الارتقاء الى ذروة المعرفة ، إذ هذا الخوف ثمرة المعرفة بالله وبصفات جلاله وجماله ، ومن لم يمكنه ذلك فلا يترك سماع الأخبار والآثار وملاحظة أحوال المخائفين من هيئته وجلاله ، كالأنبياء والأولياء وزمرة العرفاء فانه لا يخلو عن تأثير .

(١) آل عمران الآية ٣٨

(٢) آل عمران الآية ٩٨

(الثالث) أن يتأمل في أن الوقوف على كنه صفات الله في حيز الحال وأن الاحاطة بكنه الامور ليس في مقدرة البشر ، إذ هي مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حد المعقول والمألوف ، ومن عرف ذلك على التحقيق يعلم أن الحكم على أمر من الامور الآتية غير ممكن بالحدس والقياس فضلاً عن القطع والتحقيق وحينئذ يعظم خوفه ويشد ألمه وإن كانت الخيرات كلها له ميسرة ونفسها عن الدنيا بالمرّة منقطعة ، وإلى الله بشرها ملتفتة ، إذ خطر الخاتمة وعسر الثبات على الحق مما لا يمكن دفعه ، وكيف يحصل الاطمئنان من تغير الحال ، وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن ، وأنه أشدّ تقلباً من القدر في غليانها ، وقد قال مقلب القلوب : « إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » (١) فأنى للناس أن يطمئنوا وهو يناديهم بالتحذر، ولذا قال بعض العرفاء : « لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد ، لأنني لا أدري ما ظهر له من التقلب » (٢) .

فصل

خوف سوء الخاتمة وأسبابه

قد اشير الى أن أعظم المخاوف خوف سوء الخاتمة وله أسباب مختلفة ترجع الى ثلاثة :

(١) المعارج الآية ٣٨

(٢) نقل هذه الكلمة في احياء العلوم ج ٤ ص ١٤٩ . عن بعض العارفين ولم يذكر اسمه أيضاً

(الاول) وهو الأعظم ، وهو أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله ، إما الجحود أو الشك ، فتقبض الروح في تلك الحالة ، وتصير عقدة الجحود أو الشك حجاباً بينه وبين الله تعالى ، وذلك يقتضي البعد الدائم والحرمان اللازم وخسران الأبد والعذاب الخلد .

ثم هذا الجحود أو الشك إما يتعلق ببعض العقائد الاصولية كالتوجيه وعلمه تعالى أو غير ذلك من صفاته السكالية ، أو بضروريات أمر الآخرة والنبوة ، وكل واحد من ذلك كاف في الهلاك وزهوق النفس على الزندقة ، أو يتعلق بجميعها إما إصالة أو سراية ، والمراد بالسراية أن الرجل ربما اعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف ما هو الحق والواقع ، إما برأيه ومعتقداته أو بالتقليد ، فاذا قرب الموت وظهرت سكراته واضطرب القلب بما فيه ، ربما انكشف بطلان ما اعتقده جهلاً ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ، ويكون ذلك سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو الشك فيها وإن كانت صحيحة مطابقة للواقع ، إذ لم يكن عنده أولاً فرق بين هذا الاعتقاد الفاسد الذي انكشف فسادُه وبين سائر عقائده الصحيحة ، فاذا علم خطأه في البعض لم يبق له اليقين والاطمئنان في البواقي ، كما نقل أن الفخر الرازي يبكي يوماً فسأله عن سبب بكائه ، قال اعتقدت في مسألة منذ سبعين سنة على نحو انكشف اليوم لي بطلانه ، فما أدراني ان لا تكون سائر عقائدي كذلك . وبالمجمل إن اتفق زهوق روجه في هذه الخطرة قبل أن ينيب ويعود الى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روجه على الشرك أعاذنا الله منه وثبتنا على الاعتقاد الحق لديه ، وهم المقصودون من قوله : « وَبَدَأْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » (١) ومن قوله : « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ

بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » (١) .

والبله اعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايماناً مجحلاً راسخاً
بمعزل عن هذا الخطر ، ولذلك ورد أن أكثر أهل الجنة البله ، وورد المنع من
البحث والنظر والخوض في الكلام والأخذ بظواهر الشرع مع اعتقاد كونه
تعالى منزهاً عن النقص متصفاً بما هو الغاية والنهاية من صفات الكمال .
والسرفي ذلك أن البله إذا أخذوا بما ورد من الشرع واعتقدوا به يثبتون عليه لصور
اذهانهم عن درك الشبهات وعدم اعتيادهم بالتشكيك ، فلا يختلج ببالهم شك
وشبهة ولو عند الموت .

وأما الخائضون في غمرات البحث والنظر والأخذون عقائدهم من عقولهم
المزجاة فليس لهم تثبت على عقائدهم ، إذ العقول عن درك صفات الله وسائر
العقائد الأصولية على ما هي عليه قاصرة ، والأدلة التي يستخرجها مضطربة
متعارضة وابواب الشكوك والشبهات بالخوض والبحث تصير مفتوحة فاذهانهم
دائماً محل تعارض العقائد والشكوك ، فربما تثبت لهم عقيدة بملاحظة بعض
دلائله ، فيحصل لهم فيها طمأنينة ثم يعرض لهم شك يرفعها أو يضعفها ، فهم
دائماً في غمرات الحيرة والاضطراب فاذا كان حالهم هذا فأخذتهم سكرات الموت ،
فأي استبعاد في أن يختلج لهم حينئذ شك في بعض عقائدهم ، ومثله مثل من
انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج ويرميه موج الى موج ، والغالب في
مثله الهلاك وان اتفق نادراً أن يرميه موج الى الساحل ، وقد نقل عن نصير الدين الحلي
وهو من أعظم المتكلمين انه قال : « اني تفكرت في العلوم العقلية سبعين

سنة وصنفت فيها من الكتب ما لا يحصى ولم يظهر لي منها شيء سوى أن لهذا المصنوع صانعاً ، ومع ذلك عجز القوم في ذلك أشدّ يقيناً مني « فالصواب تلقى أصل الايمان والعقائد من صاحب النوحى مع تطهير الباطن عن خبائث الاخلاق والاشتغال بالطاعات وصوالح الأعمال وعدم التعرض لما هو خارج عن طاقتهم من التفكير في حقائق المعارف ، إلا من أيدى الله بالقوة القدسية والقريحة المستقيمة واشرق نور الحكمة في قلبه وشمله خفي الألفاظ من ربه فله الخوض في غمرات العلوم ، وأما غيره فينبغي أن يأخذ منه اصول عقائد الواردة من الشرع ويشغل بخدمته حتى تشمل بركات انفاسه ، فإن العاجز عن المجاهدة في صف القتال ينبغي أن يسقي القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة في زميرتهم وإن كان فاقداً لدرجتهم .

(الثاني) ضعف الايمان في الأصل ، ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله وقوي حب الدنيا في القلب ، واستولى عليه بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس ، فلا يظهر له أثر في مخالفة النفس والشيطان ، فيورث ذلك الانهك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويسود وتتراكم ظلمة الذنوب عليه ، ولا يزال يُطفىء ما فيه من نور الايمان حتى ينطفئ بالكلية ، فاذا جاءت بكرة الموت ازداد حب الله ضعفاً ، وربما عدم بالمرّة ، لما يستشعر من فراق محبوبه الغالب على قلبه وهو الدنيا ، فيتألم ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدره الله من الموت ، ربما يحدث في باطنه بغض الله بدل الحب ، لما يرى أن موته من الله ، كما أن من يحب ولده حباً ضعيفاً إذا أخذ مالا له هو أحب إليه منه واتلته انقلب حبه بغضاً ، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطر فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء نعوذ بالله من ذلك .

وقد ظهر أن السبب المفضي الى ذلك غلبة حب الدنيا مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد في قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا فهو أبعد من هذا الخطر وإن أحب الدنيا ايضاً ، ومن وجد في قلبه عكس ذلك فهو قريب من هذا الخطر ، والسبب في قلة حب الله قلة المعرفة به ، إذ لا يحب الله إلا من عرفه ، والى هذا القسم من سوء الخاتمة اشير في الكتاب الالهى بقوله : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » (١) فمن فارقه روحه في حالة كراهة فعل الله وبغضه له في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ، فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبه ، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق ، إذا قدم به على مولاه قهراً ، ولا يخفى ما يستحق مثله من الخزي والنكال ، وأما الذي يموت على حب الله والرضا بفعله كان قدومه قدوم العبد المحسن المشتاق الى مولاه ، ولا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور .

(والثالث) كثرة المعاصي وغلبة الشهوات وإن قوي الايمان ، وبيان ذلك أن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الألف والعادة ، وجميع ما ألفه الانسان في عمره يعود ذكره في قلبه عند موته ، فان كان أكثر ميله الى الطاعات كان أكثر ما يحضره عند الموت طاعة الله ، وإن كان أكثر ميله الى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عنده ، وإن كان أكثر شغله السخرية والاستهزاء والمزاح وأمثال ذلك كان الغالب عند الموت ذلك ،

وهكذا الحال في جميع الأشغال والأعمال الغالبة في عمره فانها تغلب على قلبه عند موته ، فربما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيعقد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى ، وهو المراد بالختم على السوء ، فالذي غلبت عليه المعاصي والشهوات وكان قلبه أميل اليها منه الى الطاعة ، فهذا الخطر قريب في حقه ، ولا يميل اليها أصلاً فهو بعيد منه جداً ، ومن غلبت عليه الطاعات ولم يقارف المعاصي إلا نادراً فلعل الزاجح في حقه النجاة منه ، وإن أمكن حصوله ، ومن لم يغلب شيء من طاعاته ومعاصيه على الآخر فأمره في هذا الخطر الى الله ، ولا يمكن لنا الحكم بشيء من القرب والبعد في حقه .

والسر في ذلك أن الغشية المتقدمة على الموت شبيهة بالنوم ، فكما أن الانسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره وألفها ، حتى انه لا يرى في منامه إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة وحتى ان المراهق الذي يحتمل لا يرى صورة الواقع ، فكذلك حاله عند سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية لكونه شبيهاً بالنوم وإن كان فوقه ، فيقتضي ذلك تذكر المألوفات وعودها الى القلب ، فربما يكون غلبة الألف سبباً لان تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل نفسه اليها وتقبض عليها روحه ، ويكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وان كان أصل الايمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها بعناية الله وفضله . وكما أن ما يخطر بالبال في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص لا يعلمه بحقيقته أحد إلا الله ، فكذلك ما يرى في أحاد المنامات وما يخلج في القلب عند سكرات الموت له أسباب عند الله لا نعرف بعضها ، وربما نتمكن من معرفة بعضه ، فإننا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء الى ما يناسبه ، إنما بالمشاهدة بأن ينظر الى جميل فيتذكر

جَمِلاً آخِر ، وإِما بالمُضَادَّة بان ينظر الى جَمِيل فيتذكر قُبِيحاً ، وإِما بالمُقَارَنَة بان ينظر الى فرس قد رآه من قَبْل مع انسان ، فيتذكر ذلك الانسان ، وقد ينتقل الخاطر من شيء الى شيء ولا يدري وجه المناسبة له ، وربما ينتقل الى شيء لا يعرف سببه أصلاً ، وكذلك انتقالات الخواطر بالنام وعند سكرات الموت لها أسباب لا نعرف بعضها ونعرف بعضها بالنحو المذكور . ومن أراد ان يكشف خاطره عن الانتقال الى المعاصي والشهوات ، فلا طريق له إلا المجاهدة طول عمره في فطام نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن قلبه ، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ، ويكون طول المجاهدة والمواظبة على العلم وتخليه السر عن الشواغل الدنيوية وتقييده بالتوجه الى الله وحبه وأنسه عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، إذ المرء يموت على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه كما ورد في الخبر (١) . وقد دلت المشاهدة على أن كل أحد يكون عند موته مشغول القلب بما هو الغالب عليه طول عمره حيث يظهر منه عنده ذلك ، وإنما الخوف الموجب لسوء الخاتمة هو خاطر سوء يخطر ، ومنه عظم خوف العارفين ، إذ اختلاج الخواطر والاتفاقات المقتضية لكونها مذمومة أو ممدوحة لا يدخل تحت الاختيار دخولاً كلياً ، وإن كان لطول الالف والعادة تأثير ومدخلية ، ولذا إذا أراد الإنسان ألا يرى في المنام إلا الأنبياء والأئمة عليهم السلام وأحوال الصالحين والعبادات لم يتيسر له وإن كانت كثرة الحب والمواظبة على الصلاح والطاعة مؤثرة فيه . وبالجملة اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب

(١) لم نعر على مصدر لهذا الخبر وجاء ذكر هذا الخبر مرسل في (الحقائق) ص ٨٨ طبع إيران للشيخ ملا محسن الفيض ولم يذكر المصدر له .

في اليقظة . وبذلك يعلم أن أعمال العبد كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح ، وإن السلامة مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب) ومعلوم أن فواق الناقة لا يتسع لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف . ومن هنا قيل «١» : (إني لا أعجب من هلك كيف هلك ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا) ، وورد «٢» : (أن الملائكة إذا صعدت بروح المؤمن وقد مات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا من دنيا فسد فيها خيارنا) . ولذلك قيل «٣» : من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الخواطر أعظم التطاماً من أمواج البحر ومقلب القلوب هو الله . ومن هنا يظهر سر قوله : (الناس كلهم هلكي إلا العاملون ، والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكي إلا المخلصون ، والمخلصون كلهم هلكي إلا المخلصون) «٤» ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مطلوبة وموت الفجأة

«١» القائل هو مطرف بن عبد الله كما في أحياء العلوم ج ٤ ص ١٥٥

«٢» يظهر من كلمة (ورد) أن هذا حديث . وفي أحياء العلوم ج ٤

ص ١٥٥ كلام ينقله عن حامد اللغات .

«٣» القائل هو الغزالي في أحياء العلوم في الصفيحة المتقدمة .

«٤» جاء نص هذا الكلام في أثناء كلام الغزالي في أحياء العلوم

ج ٤ ص ١٥٦ وكأنه من كلام نفسه ، إلا أنه جاء نص هذه العبارة في -

مكروهاً ، اذ موت الفجأة ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب ،
واما الشهادة في سبيل الله فانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب
غير حب الله وخرج حب الدنيا والمال والولد ، فان من هجم على صف القتال
بامر الله وأمر رسوله يكون موطناً نفسه على الموت لرضا الله وحبه بائعاً دنياه
بآخرته راضياً بالبيع الذي بايعه الله به في قوله : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ
الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ) (١) وبذلك يظهر أن
القتل لا بسبب الشهادة التي حقيقتها ما فسر لا يفيد الاطمئنان من هذا الخطر ،
وإن كان ظلماً ، وإن كان في الجهاد ، إذا لم تكن هجرته فيه الى الله ورسوله
بل الى دنيا يصيبها أو امرأة يأخذها .

وقد ظهر مما ذكر ان سوء الخاتمة باختلاف أسبابه راجع الى أحوال
القلب ، وحالة القلب إما خاطر خير أو خاطر سوء أو خاطر مباح ، فمن زهق
روحه على خاطر مباح لم يمكن الحكم بأنه ختم على خير أو سوء بل أمره الى الله ،
وان كانت النجاة له أقرب بعد غلبة صالحات أعماله على فاسداتها ، ومن زهق
روحه على خاطر سوء وهو أحد الخواطر المتقدمة ، (فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا .
وَحَسِرَ خَسِرَانًا مُبِينًا) (٢) ومن زهق روحه على خاطر خير وهو ان يكون

— مجموعة الشيوخ ورام ص ٣٢٠ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مراسلاً .
وكذلك جاء في مصباح الشريعة المنسوب الى الصادق عليه السلام في الباب ٧٧
ما يقرب من هذا النص فماذا تظن أراد المؤلف بقوله (سر قوله) هل
أراد الغزالي ياترى ؟ .

(١) التوبة الآية ١١٣

(٢) النساء الآية ١١٥ ، ١٣٥

قلبه في حالة الموت متوجهاً الى الله ممتلياً من حبه وانسه (فقد فاز فوزاً عظيماً) وهذا موقف على المجاهدة في فطام النفس عن الشهوات الحيوانية واخراج حب الدنيا عنها رأساً ، والاحتراز عن فعل المعاصي ومشاهداتها والتفكير فيها وعن مجالسة أهلها واستماع حكاياتهم ، بل عن مباحات الدنيا بالكلية ، وتخليه السر عما سوى الله والانتقطاع بشراشره اليه واخراج محبة كل شيء سوى محبته عن قلبه ، حتى يصير حبه سبحانه والانس به ملكة راسخة ليغلب على القلب عند سكرة الموت ، وبدون ذلك لا يمكن القطع بذلك ، كيف وقد علمت أن الغشية المتقدمة على الموت شبه النوم ، وأنت في غالب الرؤيا الظاهرة عليك في المنام لا تجد في قلبك حباً لله وأنساً به وتوجهاً اليه ، بل لا يخطر ببالك أن لك رباً متصفاً بالصفات الكمالية ، بل ترى ما كنت تألفه وتعتاده من الأمور الباطلة والخيالات الفاسدة ، فان زهق روحك عند اشتغال خاطرك بشيء من الأمور الدنيوية ولم يكن متوجهاً الى الله ومستحضراً معرفته ومبتهجاً بحبه وأنسه ، لبقيت على تلك الحالة أبداً وهو الشقاوة العظمى والخيبة الكبرى .

فتيقظ يا حبيبي من سنة الغفلة وتنبه عن سكر الطبيعة واخرج حب الدنيا عن قلبك وتوجه بشراشرك الى جناب ربك ، واكتف من الدنيا بقدر ضرورتك ولا تطلب منها فوق حاجتك ، واقنع من الطعام بما يقيم صلبك ولا تكثر التناول منه ليزيل من ربك قربك ، وارض من اللباس بما يستر عورتك ولا يظهر للناس سوءتك ، واكتف من المسكن بما يحول بينك وبين الأبصار ويدفع عنك حر الشمس وبرد الأمطار ، فان تجاوزت عن ذلك تشعبت همومك وتكثرت غمومك ، واحاط بك الشغل الدائم والعناء اللازم ، وذهب عنك جل خيراتك وضاعت بركات أوقاتك . وبعد ذلك راقب قلبك

في جميع الأوقات ، وإياك أن تهمله لحظة من اللحظات واحفظه من أن يكون محلاً لغير معرفة الله وحبه ، وليكن القرب إلى الله والانس به غاية همك ، إذ العاقل إنما يميل ويشتاق إلى ما هو الأشرف والأكمل ويسر ويرتاح بما له أحسن وانفع ، ولا ريب في أن أشرف الموجودات وأكملها هو سبحانه ، بل هو الموجود الحقيقي والكمال الواقعي وغيزه من الموجودات والكمالات من لوازم فيضه ورشحات وجوده وفضله ، وله غاية ما يتصور من العلو والكمال والبهاء والجلال ، وإن معرفته وحبه أحسن الأشياء وانفعها لكل أحد لأنه الباعث للسعادة الأبدية والبهجة الدائمة ، فلا ينبغي للعاقل أن يترك ذلك اشتغالاً بفضول الدنيا وخسائسها ، بل يلزم عليها أن يترك حبها على غاربها ، ويخلص نفسه الشريفة عن مخالبتها ، ويتوجه بكلية إلى جناب ربه ، ولم يكن فرحه وابتهاجه إلا بحبه وانسه .

فصل

الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله

ضد الخوف المذموم هو اطمئنان القلب في الأمور المذكورة ، ولا ريب في كونه فضيلة وكمالاً ، إذ قوة القلب وعدم اضطرابه مما يحكم العقل بعدم الحذر عنه صفة كمال ونقيضه نقص وذريلة ، وأما الخوف الممدوح فضد الأمن من مكر الله وهو من المهلكات ، وقد ورد به الذم في الآيات والأخبار ، قال الله سبحانه : « وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » (١) وقد ثبت بالتواتر أن الملائكة والأنبياء كانوا خائفين من مكره ، كما روي أنه

لما ظهر على ابليس ما ظهر طفق جبرئيل وميكائيل يبكيان ، فأوحى الله إليهما ،
مالكما تبكيان ؟ فقالا : يا رب لا نأمن مكرك ، فقال الله : هكذا كوننا لا تأمنا
مكري ، وروي : « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجبرئيل بكيا من خوف
الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما ، فقالا ومن يأمن مكرك ؟ »
وكأنهما لم يأمنا أن يكون قوله قد أمنتكما ابتلاء لهما وامتحاناً ، حتى أن سكن
خوفهما (١) ظهر أنهما قد أمتنا المكر وما وفيا بقولهما ، كما أن إبراهيم عليه السلام
لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله ، وكان هذا القول منه من الدعاوى العظيمة
فامتحن وعورض بجبرئيل عليه السلام في الهواء حتى قال ألك حاجة ، قال أما
إليك فلا ، وكان ذلك وفاء بمقتضى قوله ، فاخبر الله تعالى عنه وقال :
« وإبراهيمَ الَّذِي وَفَّى » (٢) وبالجملة ينبغي للمؤمن ألا يأمن من مكر ربه ،
كما لم يأمن منه الملائكة والأنبياء ، وإذا لم يأمن منه كان خائفاً منه دائماً .

تخميم

التلازم بين الخوف والرجاء

الرجاء ارتياح القلب لانتظار المحبوب وهو يلزم الخوف ، إذ الخوف
كما عرفت عبادة عن التألم من توقع مكروه ممكن الحصول ، وما يمكن حصوله
(١) هذه العبارة لبيان الابتلاء والامتحان . يعني انهما يخشيان إذا
سكن خوفهما أن يظهر انهما قد أمتنا المكر ولم يوفيا بقولهما في كون ذلك
امتحاناً لهما .

يمكن عدم حصوله ايضاً ، وما كان حصوله مكروهاً كان عدم حصوله محبوباً ، فكما انه يتألم بتوقع حصوله يرتاح بتوقع عدم حصوله ايضاً ، فالخوف عن شيء وجوداً يلزمه الرجاء عدماً ، وعنه عدماً يلزمه الرجاء وجوداً . وقس عليه استلزام الرجاء للخوف ، فهما متلازمان ، وإن أمكن غلبة أحدهما نظراً الى كثرة حصول اسبابه ، وإن تيقن الحصول أو عدمه لم يكن انتظارهما خوفاً ورجاءً ، بل سمي انتظار مكروه أو انتظار محبوب .

ثم كما أن الخوف من متعلقات قوة الغضب وإن الممدوح منه من فضائلها ، لكونه مقتضى العقل والشرع وباعثاً للعمل من حيث الرهبة ، فكذا الرجاء متعلق بها ومن فضائلها لكونه مقتضاهما وباعثاً للعمل من حيث الرغبة ، إلا أن الخوف لترتبته على ضعف القلب يكون أقرب الى طرف التفريط والرجاء لترتبته على قوته يكون أقرب الى طرف الافراط وإن كان كلاهما ممدوحين ، ثم لا بد أن يحصل أكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره كتوقع الحصاد ممن ألقى بذراً جيداً في أرض طيبة يصلها الماء ، وأما انتظار ما لم يحصل شيء من أسبابه فيسمى غروراً وحمالة كتوقع من ألقى بذراً في أرض سبخة لا يصلها الماء ، وانتظار ما كان أسبابه مشكوكة يسمى تمنياً ، كما إذا صلحت الأرض ولا ماء .

وتفصيل ذلك : أن الدنيا مزودة الآخرة ، والقلب كالأرض والايمان كالبنر ، والطاعات هي الماء الذي تسقى به الأرض ، وتطهير القلب من المعاصي والأخلاق الذميمة بمنزلة تنقية الأرض من الشوك والأحجار والنباتات الخبيثة ، ويوم القيامة هو وقت الحصاد . فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع التسمية ، وكما أن من ألقى البذر في أرض طيبة وساق إليها الماء في وقته

ونقأها الشوك والأحجار ، وبذل جهده في قلع النباتات الخبيثة المفسدة للزرع ، ثم جلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملاً أن يحصل له وقت الحصاد مائة قفيز مثلاً ، سمي انتظاره رجاء ممدوحاً ، فكذلك العبد إذا طهر أرض قلبه عن شوك الأخلاق الرديّة وبث فيه بذر الإيمان بماء الطاعات ، ثم انتظر من فضل الله تبيته الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه . وكما أن من تغافل عن الزراعة واختار الراحة طول السنة ، أو ألقى البذر في أرض سبخة مرتفعة لا ينصب اليها ماء ولم يشتغل بتعميد البذر واصلاح الأرض من النباتات المفسدة للزرع ، ثم جلس منتظراً الى أن ينبت له زرع يحصده سمي انتظاره حقاً وغروراً ، كذلك من لم يلق بذر الإيمان في أرض قلبه أو ألقاه فيه مع كونه مشحوناً برذائل الأخلاق منهمكاً في خسائس الشهوات واللذات ، ولم يسق اليها ماء الطاعات ثم انتظر المغفرة كان انتظاره حقاً وغروراً . وكما أن من بث البذر في أرض طيبة لا ماء لها وجلس ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار وإن لم يمتنع ايضاً ، سمي انتظاره تميماً ، كذلك من ألقى بذر الإيمان في أرض قلبه ولكنه لم يسق اليه ماء الطاعات وانتظر المغفرة بلطفه وفضله كان انتظاره تميماً .

فأذن اسم (الرجاء) إنما يصدق على انتظار محبوب تمهت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ، فالأحاديث الواردة في الترغيب على الرجاء وفي سعة عفو الله وجزيل رحمته ووفور مغفرته إنما هي مخصوصة بمن يرجو الرحمة والغفران بالعمل الخالص المعد لحصولها وترك الانهالك في المعاصي المفوت لهذا الاستعداد ، فاحذر أن يترك الشيطان ويهبطك عن العمل ويقنمك

بمحض الرجاء والأمل . وانظر الى حال الانبياء والاولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات ليلاً ونهاراً ، أما كان يرجون عفو الله ورحمته ؟ بلى والله إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأرجى لها منك ومن كل أحد ، ولكن علموا أن رجاء الرحمة من دون العمل غرور محض وسفه بحت ، فصرفوا في العبادات أعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم .

ونحن نشير أولاً الى بعض ماورد في الرجاء من الآيات والأخبار ، ثم نورد نبذة مما يدل على انه لا معنى للرجاء بدون العمل ، ليعلم أن اطلاق الأول محمول على الثاني ، فنقول الظواهر الواردة في الرجاء أكثر من أن تحصى ، وهي على أقسام :

(الأول) ماورد في النهي عن القنوط واليأس من رحمة الله كقوله تعالى : (يا عبادي الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ انْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) « ١ » وقول علي عليه السلام لرجل أخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه : « أيا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك » وما روي : « أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجارون الى ربكم ، فهبط جبرئيل عليه السلام ، فقال : إن ربك يقول (لم تقنط عبادي ؟) فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم » وما ورد : « ان رجلاً من بني اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم فيقول الله له يوم القيامة : اليوم أوبسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها » .

(الثاني) ماورد في الترغيب على خصوص الرجاء وكونه سبب النجاة كما ورد في أخبار يعقوب من « أنه تعالى أوحى الله أن تدري لمَ فرقت بينك

وبين يوسف؟ لقولك: (إني أخاف أن يسأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) «١»
 لم خفت الذئب ولم ترجني؟ ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي؟
 وقول أمير المؤمنين عليه السلام لرجل قال عند النزاع أجدي أخاف ذنوبي
 وأرجو رحمة ربي: « ما اجتماعي في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله
 مارجا وأمنه مما يخاف » «٢» وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « ان الله تعالى
 يقول للعبد يوم القيامة ما منعك اذ رأيت المنكر ان تذكره ؟ فان لقنه الله
 حجه ، قال : « رب رجوتك وخفت الناس ، فيقول الله قد غفرت لك »
 وما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « ان رجلاً يدخل النار فيمكث فيها
 ألف سنة ينادي يا حنان يا منان ، فيقول الله للجبرئيل اذهب فأنتي بعدي فيجبيء
 به فيوقفه على ربه ، فيقول الله له : كيف وجدت مكانك ، فيقول شر مكان ،
 فيقول : ردّ الى مكانه ، قال فيمشي ويلتفت الى ورائه ، فيقول الله عز وجل
 الى أي شيء تلتفت ، فيقول لقد رجوت ألا تعيدني اليها بعد إذ أخرجتني منها ،
 فيقول الله تعالى اذهبوا به الى الجنة » وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « قال
 الله تعالى لا يتكلم العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي ، فانهم لو اجتهدوا
 واتعبوا أنفسهم أعمالهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه
 عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى
 في جوارى ، ولكن برحمتي فليثبوا والى حسن الظن بي فليطمئنوا وفضلي

(١) يوسف الآية ١٣

(٢) روى احياء العارم ج ٤ ص ١٢٥ هذا الحديث عن النبي صلى الله

فليرجوا (١) فإن رحمتي عند ذلك تدرّكهم ومَنِّي يُبَلِّغهم رضواني ، ومغفرتي تلبسهم عفوي ، فاني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت) . وعن أبي جعفر عليه السلام قال : (وجدنا في كتاب علي عليه السلام ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال وهو على منبره : والذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن ، لأن الله كريم بيده الخيرات يستحي (٢) أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه فاحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه) .

(الثالث) ما ورد في استغفار الملائكة والأنبياء للمؤمنين كقوله تعالى : (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ) (٣) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « حياتي خير لكم وموتي خير لكم ، أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع ، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله لكم » . (الرابع) ما ورد في تأجيل المذنب الى ان يستغفر كقول الباقر عليه السلام : « ان العبد اذا أذنب أجّل من غدوة الى الليل ، فان استغفر لم يكتب » .

(١) في الكافي في باب حسن الظن بالله عز وجل تقديم وتأخير عما هنا ، فقد جاء فيه : [وفضلي فليرجوا والي حسن الظن بي فليطمئنوا]

(٢) في الكافي في باب حسن الظن : (يستحي)

(٣) الشورى الآية ٣

عليه» (١) وقول الصادق عليه السلام: «من عمل سيئة أُجِّلَ فيها سبع ساعات من النهار فان قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم واتوب إليه ثلاث مرات لم تكتب عليه»

(الخامس) ماورد في شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كقوله تعالى: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» (٢) وقد ورد في تفسيره انه لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ، وكذا ماورد في شفاعة الأئمة والمؤمنين .

(السادس) ما ورد من البشارات للشيعة ومن عدم خلودهم في النار ومن أن حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والعتر الطاهرة ينجيهم من العذاب وان فعلوا ما فعلوا .

(السابع) ما دلّ على أن النار إنما أعتها الله لأعدائها من الكافرين وإنما يخوف بها أوليائه كقوله تعالى : «لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ» (٣) وقوله : «إِتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» (٤) وقوله : «لا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى» (٥) .

(١) روى الكافي في باب الاستغفار من الذنب هذا الحديث عن الصادق عليه السلام .

(٢) الضحى الآية ٥

(٣) الزمر الآية ١٨

(٤) آل عمران الآية ١٣٦

(٥) الليل الآية ١٦ - ١٧

(الثامن) ما ورد في سعة عفو الله ومغفرته ووفور رأفته ورحمته كقوله :
 « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » (١) وما روي
 في تفسير قوله تعالى : « يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
 مَعَهُ » (٢) إن الله أوحى الى نبيه إني أجعل حساب أمتك اليك ، فقال لا يارب
 انت خير لهم مني (٣) فقال إذهب لا أخزيك فيهم . وما روي انه صلى الله
 عليه وآله وسلم قال يوماً يا كريم العفو ، فقال جبرئيل أتدري ما تفسير يا كريم
 العفو ، هو انه يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه (٤) . وما
 ورد أن العبد إذا أذنب فاستغفر يقول الله للملائكته انظروا الى عبدي أذنب
 ذنباً ، فعلم أنه له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أنني قد غفرت له .
 وما ورد في الخبر القدسي إنما خلقت الخلق ليرجوا علي ولم أخلقهم لأرجع عليهم .
 وما ورد من أنه لو لم يذنبوا لخلق الله تعالى خلقاً يذنبون ليغفر لهم . وقوله
 صلى الله عليه وآله وسلم : « والذي نفسي بيده الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة
 الشفيلة بولدها » . وما ورد من « أنه سبحانه ليغفرن يوم القيامة مغفرة
 ما خطرت قط على قلب أحد حتى أن ابليس يتناول لها رجاء أن تصيبه » .
 والآيات والأخبار الواردة في هذا المعنى متجاوزة عن حد التواتر .

(١) الرعد الآية ٨

(٢) التحريم الآية ٨

(٣) في احياء العلوم ج ٤ ص ١٢٨ هـ كذا : « أنت أرحم بهم مني »
 وكذا بدل لا أخزيك : « لا نخزيك »

(٤) في احياء العلوم ص ١٢٩ من ج ٤ هـ كذا « هو ان عفا عن
 السيئات برحمته يبدلها حسنات بكرمه »

(التاسع) ما دلّ على أن ابتلاء المؤمن في الدنيا بالبلايا والأمراض كفارة لذنوبه كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « الحمى من قيسح جهنم وهي حظ المؤمن من النار » .

(العاشر) ما ورد في أن الإيمان لا يضرّ معه عمل ، كما أن الكفر لا ينفع معه عمل ، وفي أنه قد يغفر الله عبداً ويدخله الجنة لأجل مثقال ذرة من الإيمان أو عمل جزئي من الأعمال الصالحة .

(الحادي عشر) ما ورد في الترغيب على حسن الظن بالله كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » وقول الرضا عليه السلام : « احسن الظن بالله فان الله عز وجل يقول : أنا عند ظن عبدي لي إن خيراً فخير وإن شراً فشر » وقول الصادق عليه السلام : « حسن الظن بالله ألا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا ذنبك » . وقد تقدّم بعض أخبار آخر في هذا المعنى . ثم ايجاب حسن الظن للرجاء وجلبه له مما لا ريب فيه .

(الثاني عشر) ما دلّ على أن الكفار أو النصاب يكونون يوم القيامة فداء للمؤمنين أو الشيعة كما روي انه صلى الله عليه وآله وسلم قال (امتي امة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة وعجّل عقابها في الدنيا بالزلازل والفتن فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من امتي رجل من اهل الكتاب قليل هذا فداؤك من النار) . وعن اهل البيت عليهم السلام (ان النصاب يجعّاون فداء لشيعتنا بظلمهم أيّام ووقيعتهم فيهم) . وعن الصادق عليه السلام (سيؤتى بالواحد من مقصري شيعتنا في اعماله بعد ان صان الولاية والتقية وحقوق اخوانه ، ويوقف بازائه ما بين مائة نوا كثر من ذلك الى مائة الف من النصاب ، فيقال له هؤلاء

فداؤك من النار ، فيدخل هؤلاء المؤمنون الى الجنة وأولئك النصاب الى النار وذلك ما قال الله تعالى : « رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ » (١) في الدنيا منقادين للامامة ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم .
 وأما (الثاني) اعني ما يدل على أن رجاء المغفرة والعفو والرحمة إنما هو بعد العمل ، فأكثر من أن يحصى كقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ » (٢) وقوله : « فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » (٣) وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة » . وما روي عن الصادق عليه السلام أنه قيل له : قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت ، فقال : « هؤلاء قوم يترجحون في الأمانى كذبوا ليسوا براجين » (٤) من رجاء شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه . وعن علي بن محمد قال قلت له عليه السلام : إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون نرجو فقال : « كذبوا ليسوا لنا بموال أولئك قوم ترجحت بهم الأمانى ، من رجاء شيئاً عمل له ومن خاف شيئاً هرب منه » . وعنه قال : « لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو » .

(١) الحجر الآية ٢

(٢) البقرة الآية ٢١٥

(٣) الاعراف الآية ١٦٨

(٤) روي الحديث في الكافي باب الرجاء وليس فيه كلمة « إن »

فصل

مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر

قد عرفت أن الخوف والرجاء محمودان لكونهما باعثين على العمل ودواءين يداوى بهما أمراض القلوب ، ففضل كل منهما إنما هو بحسب ما يترتب عليه من فائدة العمل ومعالجة المرض .

وهذا يختلف باختلاف الأشخاص ، فمن كان تأثير الخوف في بعثه على العمل أكثر من تأثير الرجاء فيه فالخوف له أصلح من الرجاء ، ومن كان بالعكس فبالعكس ، ومن غلب عليه مرض الأبن من مكر الله والافتتار به فالخوف له أصلح ، ومن غلب عليه اليأس والقنوط فالرجاء له أصلح ، ومن انهمك في المعاصي فالخوف له أصلح ، ومن ترك ظاهر الأثم وباطنه وخفيته وجليته فالأصلح له أن يعتدل خوفه ورجاؤه والوجه في ذلك أن كلما يراد به المقصود ففضله إنما يظهر بالاضافة الى مقصوده لا الى نفسه ، فلو فرض تساويهما في البعث على العمل ولم يغلب شيء من المذكورات فالأصلح اعتدالهما ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لبعض ولده : « يا بني خف الله خوفاً ترى أنك إن أتيت به بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك وارج الله رجاء كأنك لو أتيت به بسيئات أهل الأرض غفرها لك » ، وقال الباقر عليه السلام : « ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران نور خيفة ونور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا وقد جمع الله سبحانه بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال : يدعون ربهم خوفاً وطعناً وقال : يدعون رباً رغياً ورهباً » وعن الحارث بن المغيرة قال قلت للصادق عليه السلام ما كان في وصية لقمان ؟ قال : « كان فيها الأعاجيب وكان

أعجب ما كان فيها أن قال لابنه : خف الله عز وجل خيفة لو جئته ببر الثقلين
 أعذ بك وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك » ، ثم قال عليه السلام :
 « كان أبي عليه السلام يقول : إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران نور
 خيفة ونور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا » .

وقال عليه السلام : « الخوف رقيب القلب والرجاء شفيع النفس ومن
 كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً واليه راجياً ، وهما جناحا الايمان يطير العبد
 المحقق بهما الى رضوان الله ، وعينا عقله يبصر بهما الى وعد الله ووعيده ،
 والخوف طالع عدل الله وناعي وعيده ، والرجاء داعي فضل الله ، وهو يحبي القلب
 والخوف يمت النفس ... ومن عبد الله على ميزان الخوف والرجاء لا يضل
 ويصل الى مأمو له ، وكيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما تختم صحيفته ، ولا
 له عمل يتوسل به استحقاقاً ، ولا قدرة له على شيء ولا مفر ، وكيف لا يرجو وهو
 يعرف نفسه بالعجز وهو غريق في بحر آلاء الله ونعمائه ، من حيث لا تحصى ولا
 تعد ، والمحب يعبد ربه على الرجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر (١) والزاهد يعبد
 على الخوف » (٢) .

وقد ظهر مما ذكر أن الرجاء أصلح وأفضل في موضعين : (احدهما) في

(١) هكذا في نسخ هذا الكتاب ونسخة البحار ولم نثر على استعمال

كلمة (سهر) للمبالغة في معنى ساهرة

(٢) هذه الرواية نقلها في البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥) في باب

الخوف والرجاء) عن مصباح الشريعة . وقد تقدم رأي صاحب البحار في

مصباح الشريعة ص ١٢١ في تعليقهنا وهذه الرواية ظاهرة انها ليست من

اسلوب كلام الامام عليه السلام

حق من تفتقر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض ، وكان الرجاء باعثاً له على التشمير والنشاط للطاعات ، ومثله ينبغي أن يرجي نفسه رِئَماً الله تعالى وما وعد الله به الصالحين في العليين ، حتى ينبعث من رجائه نشاط العبادة (وثانيهما) في حق العاصي المنهمك إذا خطر له خاطر التوبة ، فيقنطه الشيطان من رحمة الله ويقول له كيف تقبل التوبة من مثلك ، فعند هذا يجب عليه أن يجمع قنوطه بالرجاء ويتذكر ما ورد فيه كقوله تعالى : « لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » (١) وقوله : « إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » (٢) ، ويتوب ويتوقع المغفرة مع التوبة لا بدونها ، إذ لو توقع المغفرة مع الاصرار كان مغروراً . والرجاء الأول يجمع الفتور المانع من النشاط والتشمير ، والثاني يقطع القنوط المانع من التوبة .

فصل

العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف

العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد أحبهم إليه ، والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لعطائه ، ولذلك عير الله أقواماً يظنون السوء بالله قال : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » (٣) وقال : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ »

(١) الزمر الآية ٥٤

(٢) طه الآية ٨٤

(٣) فصلت الآية ٢٢

قَوْماً بُوراً» (١) ، وورد في الرجاء وحسن الظن ما ورد كما تقدّم ، وفي الخبر : « إن الله تعالى أوحى إلى داود احبني واحب من يحبني وحبني إلى خلقي ، فقال : يا رب كيف احبّبك إلى خلقك ، قال : اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي واحساني وذكّرهم ذلك ، فإنهم لا يعرفون مني إلا الجليل » ورأى بعض الأكابر في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء ، فقال أوقفني الله بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك ، فقلت أردت أن أحبّبك إلى خلقك ، فقال قد غفرت لك .

هذا مع ان الرجاء أفضل من الخوف للعبد بالنظر إلى مطلقهما ، إذ الرجاء مستقى من بحر الرحمة والخوف مستقى من بحر الغضب ، ومن لاحظ من صفات الله ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام ، وأما الخوف فمستندة الالتفات إلى الصفات التي تقتضي الغضب ، فلا تمازجه المحبة كما زجتها للرجاء ، نعم لما كانت المعاصي والاعتذار على الخلق أغلب (لا) سيما على الموجودين في هذا الزمان ، فالأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط ألا يخرجهم إلى اليأس وقطع العمل ، بل يحثهم على العمل ويكدر شهواتهم ويزعج قلوبهم عن الركون إلى دار الفرور ويدعوهم إلى التجافي عن عالم الزور ، إذ مع غلبة المعاصي على الطاعات لا ريب في أصلحية الخوف ، (لا) سيما أن الآفات الخفية من الشرك الخفي والنفاق والرياء وغير ذلك من خفايا الأخلاق الخبيثة في أكثر الناس موجودة ، ومحبة الشهوات والحطام الدنيوي في بواطنهم كامنة ، وأهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عندهم ممكنة ، ومناقشات الحساب وردّ أعمالهم الصالحة لأسباب خفية محتملة ، فمن عرف حقائق هذه

الامور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه ، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه ، وأما أن يغلب رجاءه فلا ، بل غلبته إنما هو من الاغترار وقلة التدبر ، كما في غالب الناس ، بل الأصلح لهم غلبة الخوف ، ولكن قبل الاشراف على الموت ، وأما عنده فالأصلح لهم غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقته ، وهو لا يطيق هنا اسباب الخوف ، لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته ، وأما روح الرجاء فيقوى قلبه ويحبس اليه ربه الذي اليه رجاءه .

وينبغي ان لا يفارق احد الدنيا إلا محباً لله ، ليكون محباً للقائه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن أحب الله ولقاءه ، وعلم انه تعالى ايضاً يحب لقاءه ، اشتاق اليه تعالى ، وكان فرحاناً بالتقدم عليه ، إذ من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوه اشتدّ عذابه ومحبته ، فمهما كان الغالب على القلب عند الموت حب الأهل والولد والمال كانت محابه كلها في الدنيا ، فكانت الدنيا جنته ، إذ الجنة هي البقعة الجامعة لجميع المحاب ، فكان موته خروجاً عن الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي . وهذا اول ما يلقاه كل محب للدنيا فضلاً عما اعد الله له من ضروب الخزي والنكال والسلاسل والأغلال ، وأما إذا لم يكن له محب سوى الله وسوى معرفته وحبه وانسه ، فالدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا اول سجنه ، إذ السجن هي البقعة المانعة عن الوصول الى محابه ، فموته خلاص له من السجن وتقدم على المحبوب ، ولا يخفى حال من خلاص من السجن وخلي بينه وبين محبوبه ، وهذا اول ابتهاج يلقاه من كان محباً لله غير محب للدنيا وما فيها . فضلاً عما اعد الله له مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فصل

مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف امراضهم

قد عرفت أن المحتاج الى تحصيل دواء الرجاء من غلب عليه اليأس ، فترك العبادة أو غلب عليه الخوف فاسرف فيها حتى أضر بنفسه وأهله ، وأما المنهمكون في طغيان الذنوب والمغرورون بما هم فيه من الفساد والخوف ، كأكثر أبناء زماننا ، فأدوية الرجاء بالنسبة اليهم سموم مهلكة ، إذ لا يزداد سماعهم لها إلا تمادياً في طغيانهم وفساداً في فسادهم وعصيانهم ، فواعظ الخلق ينبغي أن يعرف امراضهم وينظر الى مواقع علمهم ، ويعالج كل علة بما يضادها لا بما يزيدنها ، ففي مثل هذا الزمان ينبغي ألا يذكر لهم بواعث الرجاء ، بل يبالغ في ذكر أسباب الخوف ، لئلا يهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولا يقصد بموعظته استمالة القلوب وتوقع الثناء من الناس ، فينتقل الى الترغيب على الرجاء لكونه أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، فيهلك ويهلكهم ويضل ويضلهم .

وبالجملة الطريق الى تحصيل الرجاء لمن يحتاج اليه أن يتذكر الآيات والأخبار المتواترة الواردة فيه وفي سعة رحمته ووفور عفوه ورأفته ، كما تقدم شطر منها ، ثم يتأمل في لطائف نعمائه وعجائب آلائه لعباده في دار الدنيا ، حتى أعد لهم كلها هو ضروري لهم في دوام الوجود ، بل لم يترك لهم شيئاً جزئياً يحتاجون اليه نادراً يفوت بفقده ما هو الأصلح الأولى لهم من الزينة والجمال ، فإذا لم يقصر العناية الإلهية عن عباده في جميع ما يحب ويحسن لهم من اللطف

والاحسان في دار الدنيا ، وهي حقيقة دار البلية والمحنة لا دار النعمة والراحة ، ولم يرض أن يفوته شيء من المزايد والمزايا في الحاجة والزينة ، فكيف يرضى في دار الآخرة التي هي دار الفيض والجود بسياقهم الى الهلاك المؤبد والعذاب المخلد ، مع أنه تعالى أخبر بأن رحمته سابقة على غضبه . وأقوى ما يجلب به الرجاء أن يعلم أن الله تعالى خير محض لا شرية فيه أصلاً ، وفيض على الإطلاق ، وإنما أوجد الخلق لأفاضة الجود والاحسان عليهم ، فلا بد أن يرحمهم ولا يبيدهم في الزجر الدائم .

أزخير محض جز نكوئي نايد خوش باش كه عاقبت نكوخواهدشد (١)

(١) وحاصل معنى هذا البيت : ان الخير المحض لا يصدر عنه إلا الجميل ، فكن مطمئناً ان عاقبتك ستكون الى الجميل ،

ومنها :

صغر النفس

وهو ملكة العجز عن تحمل الواردات ، وهو من نتائج الجبن ومن خباثت الصفات ، وتلزمه الذلة والمهانة وعدم الاقتحام في معالي الأمور ، والمساحة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، والاضطراب بعروض أدنى شيء من البلايا والخاوف ، وقد ورد في الأخبار بأن المؤمن بريء عن ذلة النفس قال الصادق عليه السلام : « إن الله عز وجل فوض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً ، أما تسمع الله تعالى يقول « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّهِ يُؤْمِنُ » (١) فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً إن المؤمن أعز من الجبل ، الجبل يستقل منه (٢) بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه شيء » ، وقال عليه السلام :

(١) المنافقون الآية ٨

(٢) تقدم في صفحة « ٢٠٨ » مضمون هذا الحديث ورجعنا فيه كلمة « يستقل » بدل (يستقل) وفسرناها ثم بعد التحقيق وجدنا ذلك الحديث المتقدم في أصول الكافي في باب صفات المؤمن بكلمة [يستقل] بالقاف وكذلك نسخ جامع السعادات هنا وهناك وجاء في البحار الجزء الأول من المجلد ١٥ باب علامات المؤمن وصفاته ص ٥٩٦ في شرح هذا الحديث هكذا : (الجبل يستقل منه : من القبة ، أي ينقص ويؤخذ منه بعضه بالفأس والمعول ونحوهما) .

« إن الله فوض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه » وقد وردت بهذا المضمون أخبار آخر . وعلاجه ما تقدم في معالجة الجبن .

وصل

كبر النفس وصلابتها

وضدّه (كبر النفس وصلابتها) ، وقد عرفت أنه ملكة التحمل لما يرد عليه كائناً ما كان ، وقد دلت الأخبار على أن المؤمن ذو صلابة وعزة ومهابة ، وكل ذلك فرع كبر النفس قال الباقر عليه السلام : « المؤمن أصلب من الجبل » وقال عليه السلام : « إن الله تعالى أعطى المؤمن ثلاث خصال العز في الدنيا والآخرة والفلح في الدنيا والآخرة والمهابة في صدور الظالمين » ، وصاحب هذه الملكة لا يبالي بالكرامة والهوان ، ويتساوى عنده الفقر واليسار والغنى والاعسار ، بل الصحة والمرض والمدح والذم ، ولا يتأثر بتقلب الأمور والأحوال ، وهي ملكة شريفة ليست شريعة لكل وارد ولا يصل إليها إلا واحد بعد واحد ، بل لا يحوم حولها إلا اوحدي من أفاضل الحكماء أو ألمعي قوي القلب من أمثال العرفاء . وطريق تحصيلها بعد تذكر شرافتها أن يتكلف في المواظبة على آثارها والاجتناب عما ينافيها ، حتى تحصل بالتدريج .

تكميل

الثبات أخص من كبر النفس

قد عرفت أن الثبات أخص من كبر النفس ، وهو ملكة التحمل على الخوض في الأهوال وقوة المتأومة مع الشدائد والآلام ، بحيث لا يعتريه الانكسار ، وإن زادت وكثرت ، وضده الاضطراب في الأهوال والشدائد ، ومن جملة الثبات الثبات في الايمان وهو اطمئنان النفس في عقائدها ، بحيث لا يتزلزل فيها بالشبهات ، قال الله تعالى : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » (١) وهذا الاطمئنان من شرائط كسب الكمال وفضائل الأعمال ، إذ ما لم تستقر النفس على معتقداتها في المبدأ والمعاد لم يحصل لها العزم البالغ على تحصيل ما يتوقف فائدته عليها ، فمن ليس له هذا الثبات لا تجده ثابتاً ومواظباً على شيء من الأعمال الفاضلة ، بل هو « كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران » (٢) والمتصف به مواظب لها دائماً من غير فتور ، وعدم هذا الثبات لعدم البصيرة الباطنة أو لضعف في النفس ، فوجوده يحصل من المعرفة وقوة النفس فهو من فضائل العاقلة وقوة الغضب ، وعدمه من رذائل إحداها أو كليهما .

(١) ابراهيم الآية ٣٢

(٢) الانعام الآية ٧٠

ومنها :

دناءة الهمة

وهو قصور النفس عن طلب معالي الأمور وقناعتها بأدانيها ، وهو من نتائج ضعف النفس وصغرها ، وضده (علو الهمة) وهو ملكة السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب معالي الأمور من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها ، حتى لا يعتريه السرور بالوجدان ولا الحزن بالفقدان ، بل لا يبالي في طريق الطلب بالموت والقتل وأمثالهما ، وصاحب هذه الملكة هو المؤمن الحقيقي الشائق للموت ، والموت تحفة له ، وأعظم سرور يصل إليه ، كما ورد في الأخبار ، وهو الذي يقول :

آن مرد نیم کز عدمم بیم آید
 کان بیم مرا خوشتر از این بیم آید
 جانی است مرا بعاریت داده خدا
 تسلیم کنم چو وقت تسلیم آید (١)

ويقول :

مرگ اگر مرد است گو نزد من آید

(١) الايات كلها لحافظ الشيرازي المتقدم ذكره ، ومعنى البيتين : لست بذلك الرجل الذي يخشى من فناء نفسه فإن ما أخشى منه وهو الموت أحسن عندي من نفس الخوف منه ، لأن نفسي قد أعارنيها الله تعالى فعلي أن أسلمها عندما يطلب تسليم العارية .

تا در آغوشش در آرم تنگ تنگ
من از آن عمري ستانم جاودان
آن زمن دلقي ستاند رنگ رنگ (١)

ويقول :

این جان عاريت كه بحافظ سپرده دوست

روزي رخس به ينم و تسليم وي كنم (٢)

وهذه الملكة من نتائج كبر النفس وشجاعتها ، وهي أعظم الفضائل
الإنسانية ، إذ كل من وصل الى المراتب العظيمة والأمر العالية فأنما وصل
اليها لأجلها ، إذ صاحبها لا يرضى بالمراتب الدنية ويشمر لتحصيل المراتب
العالية والأمر المتعالية ، وفي جوهر الانسان وجبلته أن يصل الى كل ما يجتهد
في طلبه « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (٣) من طلب
الشيء وجد . ومن أفراد علو الهمة الشهامة وهو الحرص على اقتناء
عظام الأمور توقعاً لجميل الذكر على مر الدهور .

(١) معنى البيتين : لو أن الموت رجلاً فقل له يأتيني حتى احتضنني
شوقاً إليه . وألزه لراً وذلك لأنني آخذ منه الحياة الخالدة ويأخذ مني هذه
الزخارف الفانية الورات .

(٢) معنى البيت إن هذه النفس العارية التي أمنها الحبيب عند حافظ
[ويعني نفسه] لا بد أن أسلمها في يوم من الأيام عند ما أرى وجه الحبيب
(يعني بالحبيب الله تعالى) .

(٣) العنكبوت الآية ٦٩ .

ومنها :

عدم الغيرة والحمية

وهو الإهمال في محافظة ما يلزم محافظته من الدين والعرض والأولاد والأموال ، وهو من نتائج صغر النفس وضعفها ومن المهلكات العظيمة ، وربما يؤدي الى الدياثة والقيادة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا غير الرجل في أهله أو بعض منا كحه من مملوكته فلم يغر بعث الله اليه ظأراً يقال له القندر حتى يسقط على عارضة بابه ثم يمله أربعين يوماً ثم يهتف به إن الله غيور يحب كل غيور ، فان هو غار وغير وانكر ذلك فأكبره ، وإلا طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه فينزع الله منه بعد ذلك روح الايمان وتسميه الملائكة الديوث » ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « كان ابراهيم غيوراً وأنا أغير منه وجدع الله أنف من لا يفار على المؤمنين والمسلمين » ، وقال امير المؤمنين عليه السلام : « يا أهل العراق نبشأن نساءكم يدافعن الرجال في الطريق أما تستحيون » ، وقال عليه السلام : « أما تستحيون ولا تغارون نساؤكم يخرجن الى الاسواق ويزاحمن العلوج » .

وصل

الغيرة والحمية

وضده (الغيرة والحمية) ، وهو السعي في محافظة ما يلزم محافظته ، وهو من نتائج الشجاعة وكبر النفس وقوتها ، وهي من شرائف الملكات ، وبها تتحقق الرجولية والفحلية ، والفاقد لها غير معدود من الرجال ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن سعاداً لغيورٌ وأنا أغير من سعد والله أغير مني » ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله لغيور ولاجل غيرته حرّم الفواحش » ، وقال : « إن الله يغار والمؤمن يغار وغيرة الله أن يأتي الرجل المؤمن ما حرّم الله عليه » ، وقال الصادق عليه السلام : « إن الله تعالى غيور ويحب الغيرة ولغيرته حرّم الفواحش ظاهرها وباطنها » .

فصل

الغيرة على الدين والحريم والأولاد

مقتضى الغيرة والحمية في (الدين) أن يجتهد في حفظه عن بدع المبتدعين وانتحال المبطلين ، وقصاص المرتدّين ، وإهانة من يستخف به من المخالفين وردّ شبه الجاحدين ، ويسعى في ترويضه ونشر أحكامه ، ويبالغ في تبيين حلاله وحرامه ، ولا يتسامح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومقتضى الغيرة على (الحريم) ألا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى

غوائلها ، فيحفظون عن أجانب الرجال ، ويمنعون عن الدخول في الأسواق ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة عليها السلام : « أي شيء خير للمرأة ؟ » ، قالت : أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل ، فضمها إليه ، وقال « ذرية بعضها من بعض » ، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسدون الثقب والكوى في الحيطان لئلا تطلع النساء على الرجال ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من أطاع امرأته أكبه الله على وجهه في النار » ، وما روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم أذن للنساء في حضور المساجد ، وقال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » فالظاهر أنه كان مختصاً بنساء عصره صلى الله عليه وآله وسلم لعلمه بعدم ترتب فساد على حضورهن فيها ، والصواب اليوم أن يمنع من حضور المساجد والذهاب إلى المشاهد إلا العجائز منهن ، للقطع بترتب الفساد والمعصية على خروج نساء هذا العصر إلى أي موضع كان ، وسئل الصادق عليه السلام عن خروج النساء في العيدين فقال : « لا ! إلا العجوز عليها منقلها ، يعني الخفين » ، وفي رواية أخرى أنه عليه السلام : « سئل عن خروج النساء في العيدين والجماعة فقال : لا ! إلا امرأة مسنة » .

وبالجملة من اطلع على أحوال نساء أمثال عصرنا يعلم أن مقتضى الغيرة أن يبالي في حفظهن عن جميع ما يحتمل أن يؤدي إلى فتنه وفساد ، سواء كان في نفسه محرماً كالنظر إلى الرجال الأجانب واستماع كلامهم بلا ضرورة شرعية وارتكاب الملاهي المحرمة ، أو لا ، كالخروج عن البيت بلا داع شرعي أو ضروري ، ولو إلى المساجد والمشاهد المشرفة ومجامع تعزية مولانا أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، إذ ذلك وإن كان في نفسه راجحاً إلا أن الغالب عدم انتفكاكه عما ينافي الغيرة والحلية على ما هو المشاهد في عصرنا ، فإن أنفل ما في

الباب أنه لا ينفك عن نظرهنّ الى الأجانب واستماع كلامهم ، بل عن نظرهنّ اليهنّ واستماع كلامهنّ . وهذا خروج للطرفين الى الانحراف عن قانون العفة ، مع أنّنا نعلم قطعاً أن خروج أكثرهنّ لا يخلو عن غرض فاسد أو مرجوح ، وما أقلّ فيهنّ أن يكون خروجها الى أحد المواضع المذكورة لمحض القربة والثواب ، فالصواب أن يمتنع في أمثال هذا العصر عن مطلق الخروج ، إلا الى سفر واجب كاللحج ، أو الى بيت عالم عادل لاخذ ما يجب عليهنّ من المسائل ، إذا لم يتمكن أزواجهنّ من أخذها وإيصالها اليهنّ ، نعم لو فرض خروجها الى أحد المشاهد أو الى مجمع تعزية من مجامع النساء بل الى مجمع العرس ، على نحو اطمأنّ الزوج منها وتيقنّ بعدم حدوث ما ينافي الغيرة وعدم ترتب فساد ومعصية وريبة عليه ، فإظهار جواز الاذن بل رجحانه . وجميع ذلك إنما هو في الشواب من النساء ، وأما العجائز فلا بأس بخروجهنّ الى المواضع المذكورة ، ومقتضى الغيرة أن يمتنع من استماع الكلمات الملهية والحكايات المهيجة للشهوة ، وعن مجالسة العجائز اللاتي يحضرن مجامع الرجال وينقلن حكاياتهم وقصصهم ، لأنهنّ ناقصات العقل والايمان ، ومع ذلك شهوتهنّ في غاية القوة والغلبة ، فاستماعهنّ لشيء من المذكورات يوجب ثوران الشهوة وهيجانها فيهنّ ، فلمّا لم يكن فيهنّ قاهر العقل ومانع الايمان فربما أدّى ذلك الى فساد عظيم ، ولذلك ورد في الأخبار منعهنّ عن تعلم سورة يوسف عليه السلام ، إذ استماعهنّ لأمثال القصة المذكورة فيها ربّما أدّى الى انحرافهنّ عن طريق العفة ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تعلّموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرّوهنّ اياها فإن فيها الفتن وعلموهنّ سورة النور فإن فيها الموعظ » وقال عليه السلام : « لا تحملوا الفروج على السروج فتبهجنّ للفجور » . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تنزلوا النساء الفرف ولا تعلموهنّ الكتابة رعلموهنّ الغزل وسورة النور » .

وبالجملة مقتضى العقل والنقل أن يمنع عن جميع ما يمكن أن يؤدي الى فساد وريبة ، وعن مبادئ الامور التي تخاف غوائلها ، وينبغي لصاحب الغيرة أن يجعل نفسه مهيباً في نظرها ، حتى تكون منه على خوف وحذر ، ولا تطمئن منه فتتبع هواها وما تقتضيه جبلتها ، وأن يجعلها مشغولة في كل وقت بأمر من الامور كتدبير المنزل وإصلاح أمر المعيشة أو بكسب من المكاسب ، حتى يكون لها دائماً شغل شاغل ، ولا تكون فارغة عنه في وقت من الاوقات ، إذ لو خلت عن الاشغال وتعطلت عن المهات أوقعها الشيطان في أودية الافكار الرديّة ، فتميل الى الزينة والخروج والتفرج والنظر الى أجانب الرجال والملاعبة والمضاحكة للنسوان ، فينجر أمرها الى الفساد ، وينبغي ايضاً لصاحب الغيرة أن يعطي امرأته ما تحتاج اليه من القوت واللباس وسائر الضروريات ، حتى لا تضطر الى ارتكاب ما لا ينبغي من الحركات والأفعال توصلاً الى أخذ شيء من ذلك من غير زوجها .

ثم ينبغي ألا توقعه الغيرة في طرف الافراط فيبالغ في إساءة الظن والتعنّت وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (أن يتبع عورات النساء وأن يتعنّت بهنّ » وفي الخبر المشهور « أن المرأة كالضلع إن أردت أن تقيمه كسرته فدعه تستمتع به على عوج) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة » ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تكثر الغيرة على أهلك فترحمي بالسوء من أجلك » وقال عليه السلام في رسالته الى الحسن عليه السلام : « إياك والتفاير في غير موضع الغيره ، فإن ذلك يدعو منهم الى السقم ولكن أحكم أمرهنّ فإن رأيت عيباً فمجل النكير على الصغير والكبير بأن تعاتب

منهن البريئة فتعظم الذنب وتهون العيب . وبالجمللة لا ينبغي المبالغة في الفحص والتفتيش ، إذ لا ينفك ذلك عن سوء الظن الذي نهينا عنه ، فان بعض الظن أثم .

* * *

وأما مقتضى الغيرة على (الأولاد) أن تراقبهم من أول أمرهم ، فاستعمل في حضانة كل مولود له وأرضاعه امرأة صالحة تأكل الحلال ، إذ الصبي الذي تتكون أعضاؤه من اللبن الحاصل من غذاء حرام يميل طبعه الى الخبائث ، لأن طينته انعجت من الخبث .

وإذا بدأت فيه مخائل التمييز فينبغي أن يؤدب بآداب الأخيار . ولما كان أول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام ، فينبغي أن يؤدب فيه بأن يؤمر بالآتي يأخذ إلا بيمينه ، ويقول باسم الله عند أكله ، ويأكل مما يليه ، ولا يسادر الى الطعام قبل غيره ، ولا يحدق الى الطعام ولا الى من يأكل ، ولا يسرع في الأكل ، ويمضغ الطعام مضغاً جيداً ، ولا يلطخ ثوبه ولا يده ، ويقبض عنده كثرة الأكل بأن يُذم كثير الأكل ويشبهه بالبهائم ، ويمدح الصبي الذي يقنع بالقليل ويحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بأي طعام اتفق ، ثم يؤدب في أمر اللباس حتى لا يخرج فيه عن زي الأبرار وأهل الورع فيحبب اليه ثياب القطن والبيض ، دون الأبريسم الملون ، ويقرر عنده بأن ذلك شأن النساء والمخنثين ، والرجال يستنكفون منه ، ويحفظ من الصبيان الذين تعودوا التنعم والترفة والزينة ، ثم يؤدب في الأخلاق والأفعال وينالغ في ذلك ، لأن الصبي إذا أهمل في أول نشوءه خرج في الأكثر ردي الأخلاق والأفعال ، فيكون كنداباً حسوداً لجوجاً عنوداً

سارقاً خائناً ذا ضحك وفضول ، وربما صار مخنثاً مائلاً الى الفسوق والفجور ، فينبغي أن يحفظ من قرناء السوء ، وهو الأصل في تأديبه ، ويسلم الى معلم دين صالح يعلمه القرآن واحاديث الأخيار وحكايات الأبرار ، لينغرس في نفسه حب الصالحين ، ويُحَفِّظ عن الأشعار التي فيها ذكر الفسوق وأهله ، إذ ذلك يَغرس في قلبه بذر الفساد ، وينبغي أن يعود الصبر والسكوت ، إذا ضرب به المعلم حتى لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد حينئذ ، ويذكر له أن ذلك دأب الرجال والشجعان ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان ، وينبغي أن يؤذن له بعد الفراغ من المكتب باللعب المباح الجميل ، حتى يستريح من تعب الأدب ولا يموت قلبه ولا ينتقص ذكاه . ويُعلم محاسن الأخلاق والأفعال ، ويُجنب عن خبائث الصفات ورذائل الأعمال ، فيخوف من الحسد والعداوة والجهن والبخل والكبر والعجب ، ويُحذّر من السرقة وأكل الحرام والكذب والغيبة والخيانة والفحش واللعن والسب ولغو الكلام وغير ذلك ، ويُرَغِّب في الصبر والشكر والتوكل والرضا والشجاعة والسخاء والصدق والنصيحة وغير ذلك من محاسن الأخلاق وفضائلها ، ويمدح عنده الأخيار وينذم الأشرار حتى يصير الخير عنده محبوباً ويصير الشر عنده مبغوضاً .

وإذا بلغ سن التمييز يؤمر بالطهارة والصلاة والصوم في بعض الأيام من شهر رمضان ويعلم أصول العقائد وكل ما يحتاج اليه من حدود الشرع ، ومهما ظهر منه خلق جميل أو فعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى لأجله بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس ، وإن ظهر منه فعل قبيح مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله (لا) فيما إذا ستره الصبي واجتهد في اخفائه ، فإن اظهار ذلك ربما يفينه جسارة

حتى لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك ، فان عاد ثانياً الى مثله فينبغي أن يعاتب عليه سراً ويعظم الأمر فيه ، ويقال له اياك أن يطالع على فمك هذا احد فتفتضح عند الناس ، ولا يكثر العتاب عليه حتى يسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأب حافظاً هيئته في الكلام والحركات معه ، وينبغي للأم أن تخوفه بالأب وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله خفية فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح فاذا ترك يعود فعل القبيح ، ويعود الوقار والطمأنينة في المشي وسائر الحركات والأفعال وعدم كشف اطرافه والتواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف معه في الكلام ، ويعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو اكبر سناً منه من قريب وبعيد، ويعود النظر اليهم بعين التعظيم والجلالة وترك اللعب بين أيديهم، ويمنع من الفخر على أقرانه بشيء مما تملكه نفسه أو والده ، ويخوف من أخذ شيء من الصبيان أو الرجال ، اذكر له ان الرفعة في العطاء ، والاخذ لؤم وخسة ومهانة وذلة ، فانه دأب الكلب إذ هو يتبصص في انتظار لقمة ، ويقبح عنده حب الذهب والفضة ، يحذر منها اكثر مما يحذر من الحيات والعقارب إذ آفة حبهما اكثر من آفة السموم وقد هلك لاجله كل من هلك في العالم ، ويعود ألا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتمطط ، ولا يتنأب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ولا يضرب كفه تحت ذقنه لانه دليل الكسل ، ويعلم كيفية الجلوس والحركة والسكون ، ويمنع من النوم في النهار ومن التنعم في المفروش والملبس والمطعم ، بل يعود الخشونة فيها حتى تتصلب اعضاؤه ، ولا يستخف بدنه ، ويذكر له انها خلقت لدفع الضرر والألم لا لاجل اللذة ، وان الاطعمة ادوية يتقوى الانسان بها على عبادة الله ، وان الدنيا كلها لا اصل لها ولا بقاء لها ، وان الموت يقطع نعيمها ، وانها دار ممر لا دار مقر ،

وأن الآخرة هي دار القرار ومحل الراحة واللذات ، والكيّس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة . وينبغي أن يمنع من كثرة الكلام ومن الكذب واليمين ولو كان صدقاً ، ومن اللهو واللعب والسخرية وكثرة المزاح ، ومن أن يتبدىء بالكلام ، ويعود ألا يتكلم إلا جواباً وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر سناً منه ، وأن يقوم لمن هو أكبر منه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه .

فاذا تأدب الصبي بهذه الآداب في صغره صارت له بعد بلوغه ملكات راسخة ، فيكون خيراً صالحاً ، وإن نشأ على خلاف ذلك حتى ألف اللعب والفحش والوقاحة والخرق وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر ، بلغ وهو خبيث النفس كثيف الجوهر وكان وبالاً لوالديه وصدر منه ما يوجب الفضيحة والعار ، فيجب على كل والد ألا يتسامح في تأديب ولده في حالة الصبا لأنه أمانة الله عنده وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة عن كل نقش وصورة ، وقابل للخير والشر وأبواه يميلان به الى أحدهما ، فإن عود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل شقي وهلك وكان الوزر في رقبة أبيه أو من كان قياً وولياً له .

ثم الصبية تؤدب بمثل ما مر إلا فيما يتفاوت به الصبي والصبية فيستعمل ما يليق بها ، ويجب السعي في جعلها ملازمة للبيت والحجاب والوقار والعفة والحياء وسائر الخصال التي ينبغي أن تتصف بها النساء .

ثم ينبغي أن يتفرس من حال الصبي أنه مستعد لأي علم وصناعة ، فيجعل مشغولاً باكتسابه ويمنع من اكتساب غيره ، لئلا يضيع عمره ولا تترتب عليه فائدة ، إذ كل أحد ليس مستعداً لكل صناعة ، ولا لاشتغل الجميع

باشرف الصناعات ، واختلاف الناس وتفاوتهم في هذا الاستعداد لتوقف قوام النوع وانتظام العالم عليه .

* * *

وأما الغيرة على (المال) ، فلا تظن أنها ليست ممدوحة لسرعة فناء المال وعدم اعتناء الأخيار ، إذ كل إنسان ما دام في دار الدنيا محتاج إليه ، وتحصيل الآخرة أيضاً يتوقف عليه ، إذ كسب العلم والعمل موقوف على بقاء البدن ، وهو موقوف على بدل مما يتحلل عنه من الأغذية والأقوات ، فلا بد لكل عاقل أن يعتني بالمال ويجتهد في حفظه وضبطه بعد تحصيله من المداخل الطيبة والمكاسب المحمودة ، ومقتضى السعي في حفظه المعبر عنه بالغيرة عليه ألا يصرفه في مصرف لا تترتب عليه فائدة لآخرته أو دنياه ، كأفناقه للرياء والمفاخرة والتضيف ، أو بذله على غير المستحقين بلا داع ديني أو دنيوي أو عادي ، أو تمكينه الظلمة والسارقين وأهل الخيانة من اخذه علانية أو سراً ، أو عدم مبالاته بتضييعه من غير أن يصل نفعه إلى أحد ، أو اسرافه في بذله ، أو غير ذلك من المصارف التي ليست راجحة بحسب العقل والشرع ، ولا يعود إليه عوض في الآخرة والدنيا . بل مقتضى الغيرة عليه أن يصرف جميع أمواله في حياته في المصارف التي تعود فائدتها إلى نفسه ، ولا يترك شيئاً منها لورثته إلا للأخيار من أولاده ، إذ بقاؤهم بمنزلة بقاءه ، ويترتب على وجودهم مع حسن حالهم وعيشهم جميل الذكر وجزيل الثواب له بعد موته ، وكيف يرضى صاحب الغيرة أن يترك ماله الذي أتعب نفسه في اكتسابه وفنى عمره في تحصيله ويحاسب عليه في عرصات القيامة ، لزج امرأته فيأكله ويجامعها ، وغاية رضى هذه المرأة الخبيثة التي ليست لها حمية ووفاء ولا لها مطلوب أهم من مقاربة

الرجال ، أن يأكل هذا الرجل صفو ماله ليتقوى على مجامعتها ، وهذا محنة لا يتحمل مثلها أهل المديانة والقيادة فضلاً عن صاحب الغيرة والحمية . وقس على ذلك تخليف الأموال لسائر الوراث الذين لا يعرفون الحقوق وليسوا من أهل الخير والصلاح والوفاء من أولاد السوء وأزواج البنات وسائر الأقارب من الاخوان والأخوات والأعمام والعمات والاخوال والخالات ، وهؤلاء وإن لم يكونوا بمثابة زوج امرأته إلا أن ترك الأموال لهم اذا لم يكونوا من أهل الخير والصلاح لا تثمر له فائدة سوى الوزر والوبال وذكره بالسوء والشتم والفحش ، كما هو المشاهد في زماننا هذا .

ومنها :

العجلة

وهي الممى الراتب في القلب الباعث على الإقدام على الأمور بأول خاطر ، من دون توقف واستبطاء في اتباعها والعمل بها ، وقد عرفت أنه من نوازم ضعف النفس وصغرها ، وهو من الأبواب العظيمة للشيطان قد أهلك به كثيراً من الناس ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « العجلة من الشيطان والتأني من الله » وقد خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » (١) وقد روي : (انه لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين ابليس ، فقالت : أصبحت الأصنام قد نكست رؤسها فقال هذا حادث قد حدث . مكانكم ،

فطار حتى جاء خافقي الأرض ، فلم يجد شيئاً ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولدوا إذا الملائكة قد حقّت حوله ، فرجع اليهم ، فقال : إن نبياً قد ولد البارحة ، ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا بحضرتها ، إلا هذا فأأسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة .

والظواهر في ذم العجلة أكثر من أن تحصى ، ولذلك أفق بعض علماء العامة بالمنع من التعجيل لمن خاف فوت صلاة الجمعة ، والسر في شدة ذمها أن الأعمال ينبغي أن تكون بعد المعرفة والبصيرة ، وهما موقوفان على التأمل والمهلة ، والعجلة تمنع من ذلك ، فمن يستعجل في أمر يلقي الشيطان شره عليه من حيث لا يدري ، والتجربة شاهدة بأن كل أمر يصدر على العجلة يوجب الندامة والخسران ، وكل ما يصدر على التأني والتثبت لا تعرض بعده ندامة ، بل يكون مرضياً ، وبأن كل خفيف عجول ساقط عن العيون ولا وقع له عند القلوب ، والمتأمل في الأمور يعلم أن العجلة هو السبب الأعظم لتبديل نعيم الآخرة وملك الأبد بخسائس الدنيا ومنزخقاتها .

وبيان ذلك أنه لا ريب في أن أحب الذات وألذها للنفس هو الغلبة والاستيلاء ، لأنها من صفات الربوبية التي هي مطلوبة بالطبع للنفوس المجرّدة . والسرّ فيه أن كل معلول من سنخ علته ويناسبها في صفاتها وآثارها ، وغاية ابتهاجه أن يتصف بمثل كمالاتها ، ولذا قيل : « كل ما يصدر عن شيء لا يمكن أن يكون من جميع الجهات هو هو ، ولا أن يكون من جميع الجهات ليس هو » بل من جهة هو هو ومن جهة ليس هو « وهذا معنى كلام قدماء الحكماء (الممكن زوج تركيبي) ، ولا ريب في أن جميع الموجودات معلولة للواجب سبحانه صادرة عن محض وجوده وترشحة عن فيضه وجوده ، فهو

غاية الكل والكل طالبة نحو كمالاته ، إلا ان ما هو في سلسلة الصدور اليه اقرب والواسطة بينهما اقل تكون مناسبة له أتم وشوقه الى الاتصاف بكماله اشد ، ولا ريب في ان الذوات المجردة النورية التي هي من عالم الأمر مقتبسة من مشكاة نوره ، فلها غاية القرب اليه في سلسلة الصدور ، فتكون شديدة الشوق الى الاتصاف بنحو كماله . والنفس الانسانية لكونها منها ومن عالم الأمر كما قال الله تعالى : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » (١) تكون مثلها في القرب اليه تعالى أو في المناسبة له ، فلها غاية الشوق في الاتصاف بصفاته وكمالاته التي من جملة الغلبة والاستعلاء ، وليس ذلك مذموماً ، إذ ينبغي لكل عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له ، وسعادة دائمة لا نفاد لها ، وبقاء لا فناء فيه ، وعزاً لا ذل معه ، وأمناً لا خوف فيه ، وغنى لا فقر معه ، وكمالاً لا نقصان فيه . وهذه كلها من أوصاف الربوبية وطالبها طالب للعلو والعز والكمال لا محالة .

فالمذموم من الرئاسة والاستيلاء إنما هو الغلط الذي وقع للنفس بسبب تغيير اللعين المبعد عن عالم الأمر ، إذ حسدها على كونها من عالم الأمر ، فاضلها وأغواها من طريق العجلة ، فزين في نظره الملك الفاني المشوب بأنواع الآلام لكونه عاجلاً ، وصده عن الملك الخلد الدائم الذي لا يشوبه كدر ولا يقطعه قاطع ، لكونه آجلاً ، والمسكين المخدول ابن آدم لما خلق عجولاً راغباً في العاجلة ، لما جاءه المطرود من عالم الأمر وتوسل اليه بواسطة العجلة التي في طبعه واستغواه بالعاجلة وأمال قلبه الى عدم الاعتناء بالآجلة وزين له الحاضرة ووعد بالغرور وبالتمني على الله في باب الآخرة ، فأنخدع بغروره واشتغل بطلب ملك الدنيا ومزخرفاتها مع فنائها ، وترك سلطنة الآخرة مع بقائها ، ولم يتأمل

المسكين في أن ملك الدنيا ورئاستها ليس كمالاً ولا علوّاً واستيلاء في الحقيقة ، بل هو صفة نقص يصده عن الكمال الحقيقي والرئاسة المعنوية . مثال ذلك أنه لا ريب في أن الحب والعشق صفة كمال ، ولكن إذا وقع في موقعه ، وذلك إذا كان المحبوب شريفاً كاملاً في ذاته وصفاته ، فحب الله سبحانه أشرف الصفات الكمالية وحب الجمادات وخسائس الحيوانات أخس الرذائل النفسية ، فكل من كان جاهلاً بحقائق الأمور ينخدع بغروره ويختار الملك العاجل الفاني على السلطنة الآجلة الباقية ، وأما العالم الموفق فلا يتدلى بحبل غروره إذ علم مداخل مكره ، فاعرض عن العاجلة واختار الآجلة .

ولما استطار مكر الاعمين في كافة الخلق ، ارسل الله اليهم الانبياء واشتغلوا بدعوتهم من الملك المجازي الذي لا اصل له ولا دوام إن سلم الى الملك الحقيقي الذي لا زوال له اصلاً فنادوا فيهم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ » (١) واذموا من اختار العاجلة الفانية على الآخرة الباقية كما قال سبحانه : « إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا » (٢) وقال : « كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ » (٣) فالغرض من بعثة الرسل ليس إلا دعوة الخلق الى الملك الخلد ، ليسكونوا ملوكاً في الآخرة

(١) التوبة الآية ٣٨

(٢) الدهر الآية ٢٧

(٣) القيامة الآية ٢٠

بسبب القرب من الله تعالى ودرك بقاء لا فناء فيه وعز لا ذل معه وقرّة عين أخفيت لا يعلمها احد ، والشيطان يدعوهم من طريق العجلة الى ملك الدنيا الفاني لعلمه ، بأن ما سمي ملك الدنيا مع أنه لا يسلم ولا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات ، يفوت به ملك الآخرة ، إذ الدنيا والآخرة ضربتان ، بل يفوت به الملك الحاضر الذي هو الزهد في الدنيا ، إذ معناه ان يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث الدين وإشارة الايمان ، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حراً وباستيلاء الشهوة يصير عبداً لبطنه وفرجه وسائر اعضائه ، فيكون مسخراً مثل البهيمة ، مملوكاً يسخره زمام الشهوة أخذ الخنقة الى حيث يريد ويهوى ، فما أعظم اغترار الانسان ، إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكاً ، وينال الربوبية بأن يصير عبداً . ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة . فقد ظهر أن منشأ الخسران في الدنيا والآخرة هو العجلة .

والطريق في علاجها أن يتذكر فسادها وسوء عاقبتها وإيجابها للخفة والمهانة عند الناس وتأديتها الى الندامة والخسران ، ثم يتذكر شرافة الوقار الذي هو ضده وكونه صفة الانبياء والاخيار فيوطن نفسه على ألا يرتكب فعلاً إلا بعد التأمل والمهلة ولا يترك الطمانينة والسكون باطنياً وظاهراً في جميع أفعاله وسكناته ، فاذا فعل ذلك مدة ولو بالتكلف والعمل يصير ذلك عادة له ، فتزول عنه هذه الصفة وتحدث صفة الوقار والسكينة .

وصل

الاناة والتوقف والوقار والسكينة

ضد العجلة « الاناة » (١) وهو المعنى الراتب في القلب الباعث على الاحتياط في الامور والنظر فيها والتأني في اتباعها والعمل بها .
ثم « التوقف » قريب من التأني والاناة ، والفرق بينهما أن التوقف هو السكون قبل الدخول في الامور حتى يستبين له رشدها ، والتأني سكون وطمأنينة بعد الدخول فيها ، حتى يؤدي لكل جزء منها حقه . وضد التوقف والتعسف .
و « الوقار » يتناول الاناة والتوقف كليهما ، فهو طمأنينة النفس وسكونها في الأقوال والأفعال والحركات قبل الدخول فيها وبعده ، وهو من نتائج قوة النفس وكبرها ، وما قل من الفضائل النفسانية أن يبلغ مرتبته في الشرافة ، ولذا يمدح به الأنبياء والأصفياء ، وورد في الأخبار « أن المؤمن متصف به ألبته » فينبغي لكل مؤمن أن يتكف آثاره في الحركات والأفعال حتى يصير بالتدريج ملكة ، وتكف الطمأنينة في الأفعال والحركات قبل أن تصير ملكة يختص باسم الوقار ، وإذا صارت ملكة سميت سكينة ، إذ هي طمأنينة الباطن والوقار اطمئنان الظاهر .

(١) في النسخ « الاناة » ، فصححناها كما هنا .

ومنها :

سوء الظن بالخالق والمخلوق

وهو من نتائج الجبن وضعف النفس، إذ كل جبان ضعيف النفس تدعن نفسه لكل فكر فاسد يدخل في وهمه ويتبعه ، وقد يترتب عليه الخوف والغم ، وهو من المهلكات العظيمة ، وقد قال الله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » (١) وقال تعالى : « ذُلُّكُمْ ظَنُّكُمْ أَنَّنِي تَغْنَبُكُمْ أَرَأَيْتُمْ أَنِّي تُدْرِكُكُمْ » (٢) وقال « فَظَنَنْتُمْ ظَنِّي السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » (٣) وقال امير المؤمنين عليه السلام : « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً » ولا ريب في أن من حكم بظنه على غيره بالشر بعثه الشيطان على أن يفتابه أو يتوأنى في تعظيمه وإكرامه ، أو يقصو في ما يلزمه من القيام بحقوقه ، أو ينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه ، وكل ذلك من المهلكات ، على أن سوء الظن بالناس من لوازم خبيث الباطن وقذارته ، كما أن حسن الظن من علامت سلامة القلب وطهارته ، فكل من يسيء الظن بالناس ويطالب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم

(١) الحجرات الآية ١٢

(٢) فصلت الآية ٢٢

(٣) الفتح الآية ١٢

الفؤاد ، وكل من يحسن الظن بهم ويستريحو بهم فهو سليم الصدر طيب الباطن ،
 فالؤمن يظهر محاسن أخيه ، والمنافق يطلب مساويه ، وكل إناء يترشح بما فيه .
 والسر في خباثة سوء الظن وتحريمه وصدوره عن خبث الضمير واغواء
 الشيطان ، أن اسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لأحد أن يعتقد
 في حق غيره سوءاً إلا إذا انكشف له ببيان لا يقبل التأويل ، إذ حينئذ لا يمكنه
 ألا يعتقد ما شاهده وعلمه ، وأما ما لم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وإنما وقع في
 قلبه فالشيطان ألقاه إليه ، فينبغي أن يكذبه لأنه أفسق الفسقة ، وقد قال الله :
 « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ فَبَيِّنْهُ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ » (١)
 فلا يجوز تصديق اللعين في نبأه ، وإن حف بقرائن الفساد ، ما احتمل التأويل
 والخلاف ، فلو رأيت عالماً في بيت أمير ظالم لا تظن أن الباعث طلب الحطام
 المحرمة ، لاحتمال كون الباعث إغاثة مظلوم ، ولو وجدت رائحة الخمر في فم مسلم
 فلا تجزمن بشرب الخمر ووجوب الحد ، إذ يمكن أنه تمضمض بالخمر ومجه وما
 شربه ، أو شربه اكرهاً وقهراً ، فلا يستباح سوء الظن إلا بما يستباح به المال ،
 وهو صريح المشاهدة أو قيام بيّنة فاضلة .

ولو أخبرك عدل واحد بسوء من مسلم وجب عليك أن تتوقف في إخباره
 من غير تصديق ولا تكذيب ، إذ لو كذبتك لكنت خائناً على هذا العدل ،
 إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضاً من سوء الظن ، وكذا ان ظننت به العداوة
 أو الحسد أو المقت لتتطرق لأجله التهمة ، فتدّ شهادته ، ولو صدقته لكنت
 خائناً على المسلم المخبر عنه إذ ظننت به السوء ، مع احتمال كون العدل المخبر ساهياً
 أو التباس الأمر عليه بحيث لا يكون في إخباره بخلاف الواقع أثماً وفاسقاً .

وبالجملة لا ينبغي ان تحسن الظن بالواحد وتسيء بالآخر، فتندر المذكور حاله على ما كان في السر والحياب، إذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع، ولا بحجة شرعية يجب قبولها، وتحمل خبر العدل على امكان تطرق شبهة مجوزة للإخبار وإن لم يكن مطابقاً للواقع..

ثم المراد بسوء الظن هو عقد القلب وميل النفس دون مجرد الخواطر وحديث النفس، بل الشك ايضاً، اذ المنهي عنه في الآيات والأخبار إنما هو ان يظن، والظن هو الطرف الراجح الموجب لميل النفس اليه. والامارات التي بها يمتاز العقد عن مجرد الخواطر وحديث النفس، هو ان يتغير القلب منه عما كان من الإلف والمحبة الى الكراهة والنفرة، والجوارح عما كانت عليه من الأفعال اللازمة في المعاشرات الى خلافها، والدليل على ان المراد هو ما ذكر قوله صلى الله عليه وآله وسلم: « ثلاث في المؤمن لا تستحسن وله منهن مخرج، فمخرجه من سوء الظن ألا يحققة » اي لا يحقق في نفسه بعقد ولا فعل، لا في القلب ولا في الجوارح.

ثم اكون سوء الظن من المهلكات منع الشرع من التعرض للتهمة صيانة لنفوس الناس عنه فقال صلى الله عليه وآله وسلم: « اتقوا مواقع التهم » وقال امير المؤمنين عليه السلام: « من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن » وروي انه صلى الله عليه وآله وسلم كان يكلم زوجته صفية بنت حي ابن اخطب، فمر به رجل من الأنصار فدعا رسول الله، وقال: « يا فلان هذه زوجتي صفية »، فقال يا رسول الله أفنظن بك إلا خيراً، قال: « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فخشيت أن يدخل عليك »، فانظر كيف أشفق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على دينه فخرسه، وكيف علمت الأمة

طريق الاحتراز عن التهمة ، حتى لا يظن العالم الورع المعروف بالتقوى والدين ان الناس لا يظنون به إلا خيراً أعجاباً منه بنفسه ، فإن ما لا جزم بتحقيقه في حق سيد الرسل وأشرفهم فكيف يجزم بتحقيقه في حق غيره ، وإن بلغ من العلم والورع ما بلغ ، والسرف في ذلك أن أروع الناس وأفضلهم لا ينظر الناس كلهم اليه بعين واحدة بل إن نظر اليه بعضهم بعين الرضا ينظر اليه بعض آخر بعين السخط .

وعين الرضا عن كل عيب كيلة ولكن عين السخط تبدي المساويا فكل عدو وحاسد لا ينظر إلا بعين السخط فيكتم الحاسن ويطلب المساوي ، وكل شرير لا يظن بالناس كلهم إلا شراً ، وكل معيوب مفتضح عند الناس يجب أن يفتضح غيره وتظهر عيوبه عندهم ، لأن البلية إذا عمت هانت ، ولأن يشتغل الناس به فلا تطول ألسنتهم فيه ، فاللازم لكل مؤمن ألا يتعرض لموضع التهمة حتى يقع الناس في المعصية بسوء الظن ، فيكون شريكاً في معصيتهم ، إذ كل من كان سبباً لمعصية غيره يكون شريكاً له في هذه المعصية ، ولذا قال الله تعالى : « وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ » (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كيف ترون من يسب أبويه ، فقالوا هل من أحد يسب أبويه ، فقال : نعم يسب أبوي غيره فيسبون أبويه .

ثم طريق المعالجة في إزالته بعد تذكر ما تقدم من فساد ما يأتي من فضيلة ضده ، أنه إذا خطر لك خاطر سوء على مسلم لا تتبعه ولا تحققه ولا تغير قلبك عما كان عليه بالنسبة اليه من المراعاة والتفقد والإكرام والاعتماد بسببه ، بل ينبغي

أَنْ تَزِيدَ فِي مَرَاتِهِ وَأَعْظَامِهِ وَتَدْعُو لَهُ بِالْخَيْرِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْنُطُ الشَّيْطَانُ وَيُدْفَعُهُ عَنْكَ فَلَا يَلْقَى إِلَيْكَ خَاطِرَ السُّوءِ خَوْفًا مِنْ اِشْتِغَالِكَ بِالْإِعْدَاءِ وَزِيَادَةِ الْإِكْرَامِ . وَمِمَّا عَرَفْتُ عَثْرَةً مِنْ مُسْلِمٍ فَأَنْصَحُهُ فِي السَّرِّ وَلَا تَبَادُرْ إِلَى اغْتِيَابِهِ ، وَإِذَا وَعَظْتَهُ فَلَا تَعْظِهِ وَأَنْتَ مُسْرُورٌ بِاطْلَاعِكَ عَلَى عَيْبِهِ ، لِتَنْظُرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْحَقَارَةِ ، مَعَ أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْكَ بِعَيْنِ التَّعْظِيمِ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُكَ اسْتِخْلَاصَهُ مِنَ الْإِثْمِ ، وَتَكُونَ مُحْزُونًا كَمَا تَحْزَنُ عَلَى نَفْسِكَ إِذَا دَخَلَ مَلِيكَ نَقْصَانٌ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَرْكُهُ ذَلِكَ الْعَيْبَ مِنْ غَيْرِ نَصِيحَتِكَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ تَرْكِهِ بِنَصِيحَتِكَ ، وَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ جَمَعْتَ بَيْنَ أَجْرِ نَصِيحَتِهِ وَأَجْرِ الْحَزَنِ بِمَصِيبَتِهِ وَأَجَرَ الْإِعَانَةِ عَلَى آخِرَتِهِ .

وصل

حسن الظن

قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ ضِدَّ سُوءِ الظَّنِّ بِالْمَخْلُوقِ هُوَ (حَسَنُ الظَّنِّ بِهِمَا) ، وَلَمَّا كَانَ الْأَوَّلُ مِنْ لَوَازِمِ ضَعْفِ النَّفْسِ وَصَفَرِهَا ، فَالْثَّانِي مِنْ نَتَائِجِ قُوَّتِهَا وَثَبَاتِهَا ، وَفَوَائِدِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَحْصِيَ ، وَقَدْ تَقَدَّسَتْ الظُّوَاهِرُ الْوَارِدَةُ فِي مَدْحِهِ ، فَيَنْبَغِي لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَلَّا يَيْأَسَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَلَا يَظُنَّ أَنَّهُ لَا يَرْجُوهُ وَيَعْتَذِرُ بِهِ الْبُتَّةَ وَلَا يَخْلُصُهُ مِنَ الْعَذَابِ ، وَأَنْ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبِ هُوَ شَرُّهُ وَعَقُوبَةُ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ أَرْحَمُ وَأَرْأَفُ بِهِ مِنْ وَالِدَيْهِ ، وَإِنَّمَا خَلَقَهُ لِأَجْلِ الْفَيْضِ وَالْجُودِ . فَلَا بُدَّ أَنْ يَرْجُوهُ فِي دَارِ الْآخِرَةِ ، وَيُخْلِّصَهُ مِنْ عَذَابِ الْآبَدِ . يُوَصِّلُهُ إِلَى نَعِيمِ السَّرْمَدِ ، وَمَا يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْبَلَايَا فِي دَارِ الدُّنْيَا خَيْرٌ لَهُ وَضَلَّاحٌ وَذَخِيرَةٌ لَهُ فِي يَوْمِ الْمُنَادِ .

وكذا لا يظن السوء والشر بالمسلمين ولا يحملن ماله وجه صحيح من أعمالهم وأقوالهم على وجه فاسد ، بل يجب أن يحمل كل ما يشاهده من أفعالهم وحركاتهم على أحسن الوجوه وأصحها ما لم يجزم بفساده ، ويكذب وهمه وسائر حواسه ، فيما يذهب اليه من المحامل الفاسدة والاحتمالات القبيحة المحرمة ، ويكاف نفسه على ذلك حتى يصير ذلك ملكة له ، فترتفع عنه ملكة سوء الظن بالكلية ، نعم الحمل على الوجه الصحيح على تقدير عدم مطابقتها للواقع لو كان باعثاً لضرر مالي أو فساد ديني أو عرضي لزم فيه الحزم والاحتياط وعدم تعليق أموره الدينية والدنيوية عليه ، لئلا يترتب عليه الخسران والاضرار وتلزمه الفضيحة والعار .

ومنها :

الغضب

وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة ، ومبدؤه شهوة الانتقام ، وهو من جانب الافراط ، واذا اشتد يوجب حركة عنيفة يمتلي ، لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم ، فيستر نور العقل ويضعف فعله ، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة ، بل تزيده الموعظة غلاظة وشدة ، قال بعض علماء الأخلاق : « الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة ، إلا أنها لا تطلع إلا على الافئدة ، وأنها مستكنة في طي الفؤاد استكنات الجمر تحت الرماد ، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين ، أو حمية الجاهلية والكبر الدفين من قلوب الجبارين ، التي لها عرق الى الشيطان

الاعمين حيث قال : « خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهِ مِنْ طِينٍ » (١) فمن شأن الطين السكون والوقار ومن شأن النار التلظى والاستعار . ثم قوة الغضب تتوجه عند ثورانها إما الى دفع المؤذيات إن كان قبل وقوعها ، أو الى التشفي والانتقام إن كان بعد وقوعها ، فشهوتهما الى أحد هذين الأمرين ولذتها فيه ولا تسكن إلا به فان صدر الغضب على من يقدر أن ينتقم منه واستشعر باقتداره على الانتقام ، انبسط الدم من الباطن الى الظاهر ، واحمر اللون ، وهو المحب الحقيقي ، وان صدر على من لا يتمكن ان ينتقم منه لسونه فوقه واستشعر باليأس عن الانتقام ، انقبض الدم من الظاهر الى الباطن ، وصار حزناً وإن صدر على من يشك في الانتقام منه انبسط الدم تارة وانقبض أخرى فيحمر ويصفر ويضطرب .

فصل

الافراط والتفريط والاعتدال في قوة الغضب

الناس في هذه القوة على إفراط وتفريط واعتدال ، فالافراط أن تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما ، ولا تبقى له فكرة وبصيرة . والتفريط أن يفقد هذه القوة أو تضعف بحيث لا يغضب عما ينبغي الغضب عليه شرعاً وعقلاً . والاعتدال أن يصدر غضبه فيما ينبغي ولا يصدر في ما لا ينبغي ، بحيث لا يخرج عن سياسة الشرع والعقل . بل يكون تابعاً لهما في الغضب وعدمه ، فيكون غضبه وانتقامه بأمرهما . ولا ريب في أن الاعتدال ليس مذموماً ولا معذراً من الغضب ، بل هو من الشجاعة . والتفريط

مذموم معدود من الجبن والمهانة ، وربما كان أخبث من الغضب ، إذ الفاقد لهذه القوة لاجمية له ، وهو ناقص جداً ، ومن آثاره عدم الغيرة على الحرم وصغر النفس والجور وتحمل الذل من الاخساء والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفحشاء ، ولذا قيل : « من استغضب فلم يغضب فهو حمار » (١) وقد وصف الله خيار الصحابة بالحمية والشدة فقال : « أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ » (٢) وخاطب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ » (٣) والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب ، ففقد هذه القوة بالكلية أو ضعفها مذموم . وقد ظهر أن الغضب المعدود من الرذائل هو حد الإفراط الذي يخرج عن مقتضى العقل والدين ، وحد التفريط وإن كان رذيلة إلا أنه ليس غضباً . بل هو ضد له معدود من الجبن ، وحد الاعتدال فضيلة وضد له ومعدود من الشجاعة ، فالغضب بالاول .

ثم الناس كما هم مختلفون في أصل قوة الغضب ، كذلك مختلفون في حدوثه وزواله سرعة وبطأ ، فيكونان في بعضهم سريعين ، وفي بعضهم بطيئين ، وفي بعضهم يكون أحدهما سريعاً والآخر بطيئاً ، وفي بعضهم يكون كلاهما أو أحدهما متوسطاً بين السرعة والبطء ، وما كان من ذلك بإشارة العقل فهو ممدوح معدود من أوصاف الشجاعة ، وغير مذموم محسوب من آثار الغضب أو الجبن .

(١) هذه الكلمة منسوبة للشافعي ، على ما في احياء العلوم ج ٣

ص ١٤٥ و ص ١٥٦

(٢) الفتح الآية ٩

(٣) التوبة الآية ٧٤

فصل

الغضب

(الغضب) من المهلكات العظيمة ، وربما أدى الى الشقاوة الأبدية من القتل والقطع ، ولذا قيل أنه جنون دفعي ، قال امير المؤمنين عليه السلام : « الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم فإن لم يندم فجنونه مستحكم » . وربما أدى الى اختناق الحرارة ويورث الموت فجأة ، وقال بعض الحكماء : « السفينة التي وقعت في اللجج الغامرة واضطربت بالرياح العاصفة وغشيتها الأمواج الهائلة أرجى الى الخلاص من الغضب الملتهب » ، وقد ورد به الذم الشديد في الأخبار ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل » وقال الباقر عليه السلام : « إن هذا الغضب جرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم ، وإن أحدكم اذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه ، فاذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليزِم الأرض فإن رجز الشيطان لينهب عنه عند ذلك » وقال الصادق عليه السلام : « وكان أبي عليه السلام يقول : أي شيء أشد من الغضب؟ إن الرجل يغضب فيقتل النفس التي حرم الله ويقذف المحصنة » وقال عليه السلام (١) : « إن الرجل ليغضب فما برضى ابداً حتى يدخل النار » وقال الصادق عليه السلام :

[١] أي الباقر عليه السلام ، وقد روى هذه الاخبار المذكورة هنا المكافي في باب الغضب ، فروي هذا الخبر عنه عليه السلام لا عن الصادق عليه السلام .

« الغضب مفتاح كل شر » وقال عليه السلام : « الغضب ممحقة لقلب الحكيم » وقال عليه السلام : « من لم يملك غضبه لم يملك عقله » .

ثم مما يلزم الغضب من الآثار المهلكة الذميمة ، والاغراض المضرة القبيحة ، انطلاق اللسان بالشم والسب واظهار سوء والشتم بالمساءة وافشاء الاسرار وهتك الاستار والسخرية والاستهزاء ، وغير ذلك من قبيح الكلام الذي يستحي منه العقلاء ، وتوثب الأعضاء بالضرب والجرح والتمزيق والقتل ، وتألم القلب بالحقد والحسد والعداوة والبغض ، ومما تلزمه الندامة بعد زواله وعداوة الأصدقاء واستهزاء الأراذل وشتم الأعداء وتغير المزاج وتألم الروح وسقم البدن ومكافاة العاجل وعقوبة الآجل .

والعجب ممن توهم أن شدة الغضب من فرط الرجولية ، مع أن ما يصدر عن الغضب من الحركات القبيحة إنما هو أفعال الصبيان والمجانين دون الرجال والعاقلين ، كيف وقد تصدر عنه الحركات غير المنتظمة من الشتم والسب بالنسبة إلى الشمس والقمر والسحاب والمطر والريح والشجر والحيوانات والجمادات ، وربما يضرب القصعة على الأرض ويكسر المائدة ويخاطب البهيمة والجماد كما يخاطب العقلاء ، وإذا عجز عن التثني ربما مزق ثوبه ولطم وجهه وقد يعدو عدو المدهوش المتحير ، وربما اعتراه مثل الغشية أو سقط على الأرض لا يطيق النهوض والعدو ، وكيف يكون مثل هذه الأفعال القبيحة من فرط الرجولية ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الشجاع من يملك نفسه عند غضبه »

فصل

امكان ازالة الغضب وطرق علاجه

قد اختلف علماء الأخلاق في إمكان ازالة الغضب بالكلية وعدمه ،
 فتيل قمع أصل الغضب من القلب غير ممكن ، لأنه مقتضى الطبع ، إنما
 الممكن كسر سورته وتضعيفه ، حتى لا يشتد هيجانه . وأنت خير بأن الغضب
 الذي يلزم إزالته هو الغضب المذموم ، إذ غير مما يكون بإشارة العقل والشرع
 ليس غضباً فيه كلامنا ، بل هو من آثار الشجاعة ، والاتصاف به من
 اللوازم ، وإن اطلق عليه اسم الغضب أحياناً حقيقة أو مجازاً ، كما روي عن
 أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم
 لا يغضب الدنيا وإذا أغضبه الحق لم يصرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى
 ينتصر له » ، ولا ريب أن الغضب الذي يحصل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 وآله وسلم لم يكن غضباً مذموماً ، بل كان غضباً ممدوحاً يقتضيه منصب النبوة
 وتوجيه الشجاعة النبوية . ثم الغضب المذموم ممكن الزوال ، ولولا إمكانه لزم
 وجوده للأنبياء والأوصياء ، ولا ريب في بطلانه .

ثم علاجه يتوقف على أمور ، ودبما حصل ببعضها :

(الأول) إزالة أسبابه المهيجة له ، إذ علاج كل علة بحسم مادتها ،
 وهي العجب والفخر والكبر والغرور واللجاج والمراء والمزاح والاستهزاء
 والتعير والخاصمة وشدة الحرص على فضول الجا والأموال الفانية ، وهي باجمها
 أخلاق ردية مهلكة ، ولا خلاص من الغضب مع بقائها ، فلا بد من إزالتها

حتى تسهل ازالته .

﴿ الثاني ﴾ أن يتذكر قبس الغضب وسوء عاقبته وما ورد في الشريعة من الذم عليه ، كما تقدم .

﴿ الثالث ﴾ أن يتذكر ما ورد من المدح والثواب على دفع الغضب في موارد ، ويتأمل في ما ورد من فوائد عدم الغضب ، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة » وقول الباقر عليه السلام : « مكتوب في التوراة فيما ناجى الله به موسى أمسك غضبك عن ماسكتك عليه أ كف عنك غضبي » وقول الصادق عليه السلام : « أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه يا ابن آدم اذكرني في غضبك اذكرك في غضبي ولا أمحتك فيمن أحق وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك » وقوله عليه السلام : « سمعت أبي يقول أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل بدوي فقال اني أسكن البادية فعلمني جوامع الكلم ، فقال آمرك ألا تغضب فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرات حتى رجع الرجل الى نفسه ، فقال لا أسأل عن شيء بعد هذا ، ما امرني رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بالخير » وقوله عليه السلام : « إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه رجل فقال يا رسول الله علمني عظة أنعظ بها ، فقال له انطلق ولا تغضب ، ثم عاد عليه ، فقال له انطلق ولا تغضب ثلاث مرات » وقوله عليه السلام : « من كف غضبه ستر الله عورته » الى غير ذلك من الأخبار .

﴿ الرابع ﴾ أن يتذكر فوائد ضد الغضب ، اعني الحلم وكظم الغيظ ، وما ورد من المدح عليهما في الأخبار كما يأتي ، ويواظب على مباشرته ولو بالتكلف

فيتحلم وان كان في الباطن غضباناً ، واذا فعل ذلك مدة صار عادة مألوفة هنيئة على النفس ، فتنقطع عنها اصول الغضب .

(الخامس) أن يقدم الفكر والروية على كل فعل او قول يصدر عنه ويحافظ نفسه من صدور غضب عنه .

(السادس) أن يحترز عن مصاحبة ارباب الغضب والذين يتبجحون بتثفي الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقولون نحن لا نصبر على كذا وكذا ، ولا نحتمل من أحد أمراً ، ويختار مجالسة أهل الحلم والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .

(السابع) أن يعلم أن ما يقع إنما هو بقضاء الله وقدره ، وأن الأشياء كلها مسخرة في قبضة قدرته ، وأن كل ما في الوجود من الله ، وأن الأمر كله لله ، وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخير ، وربما كان صلاحه في جوعه أو مرضه أو فقره أو جرحه أو قتله أو غير ذلك ، فاذا علم بذلك غلب عليه التوحيد ولا يغضب على أحد ولا يغتاظ عما يرد عليه ، إذ يرى حينئذ أن كل شيء في قبضة قدرته ، أسير كالقلم في يد الكاتب ، فكما أن من وقع عليه ملك بضرب عنقه لا يغضب على القلم ، فكذلك من عرف الله وعلم أن هذا النظام الجملي صادر منه على وفق الحكمة والمصلحة ، ولو تغيرت ذرة منه عما هي عليه خرجت عن الاصلحية ، لا يغضب على أحد ، إلا أن غلبة التوحيد على هذا الوجه كالكبريت الأحمر وتوفيق الوصول اليه من الله الأكبر . ولو حصل لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون كالبرق الخاطف ، ويرجع القلب الى الالتفات الى الوسائط رجوعاً طبيعياً ، ولو تصور دوام ذلك لأحد لتصور الفرق الانبياء ، نعم أن التفاتهم في الجملة الى الوسائط لا يمكن انكاره .

(الثامن) أن يتذكر أن الغضب مرض قلب ونقصان عقل صادر عن ضعف النفس ونقصانها لا عن شجاعتها وقوتها ، ولذا يكون المجنون أسرع غضباً من العاقل ، والمريض أسرع غضباً من الصحيح . والشيخ الهرم أسرع غضباً من الشاب ، والمرأة أسرع غضباً من الرجل ، وصاحب الأخلاق السيئة والرزائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، والبخيل يفتاظ لبخله إذا فقد الحبة حتى يغضب لفقد أدنى شيء على أعزة أهله وولده . والنفس القوية المتصفة بالفضيلة أجل شأنًا من أن تتغير وتضطرب لمثل هذه الأمور، بل هي كالطود الشاهق لا تحركه العواصف ، ولذا قال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » وإن شككت في ذلك فافتح عينيك وانظر الى طبقات الناس الموجودين ، ثم ارجع الى كتب السير والتواريخ ، واستمع الى حكايات الماضين ، حتى تعلم أن الحلم والعفو وكظم الغيظ شيمة الأنبياء والحكام وأكابر الملوك والعقلاء ، والغضب خصلة الأتراك والأكراد والجهلة والأغنياء .

(التاسع) أن يتذكر أن قدرة الله عليه أقوى وأشد من قدرته على هذا الضعيف الذي يغضب عليه ، وهو أضعف في جنب قوته القاهرة بمراتب غير متناهية من هذا الضعيف في جنب قوته ، فليحذر ، ولم يأمن إذا أمضى غضبه عليه أن يمضي الله عليه غضبه في الدنيا والآخرة ، وقد روي : « أنه ما كان في بني اسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب اعطاه صحيفة فيها : (ارحم المساكين واخش الموت واذكر الآخرة) فكان يقرأها حتى يسكن غضبه » ، وفي بعض الكتب الهلالية : « يا ابن آدم اذا كرتي حين تغضب اذكرني حين أغضب فلا تحفك

فيمن أحق « (١) .

« العاشر » أن يتذكر أن من يمضي عليه غضبه ربما قوي وتشمّر لما بلته وجرّد عليه لسانه باظهار معائبه والشتمات بمصائبه ، ويؤذيه في نفسه وأهله وماله وعرضه .

« الحادي عشر » ان يتفكر في السبب الذي يدعوه الى الغيظ والغضب ، فإن كان خوف الذلة والمهانة والاتصاف بالعجز وصغر النفس عند الناس ، فليتنبه ان الحلم وكظم الغيظ ودفع الغضب عن النفس ليست ذلة ومهانة ، ولم يصدر من ضعف النفس وصغرها ، بل هو من آثار قوة النفس وشجاعتها . واضدادها تصدر من نقصان النفس وخورها . فدفع الغضب عن نفسه لا يخرج منه من كبر النفس في الواقع ، ولو فرض خروجه به منه في عين جهلة الناس فلا يبالي بذلك ويتذكر أن الاتصاف بالذلة والصغر عند بعض اراذل البشر اولى من خزي يوم المحشر والافتضاح عند الله الملك الأكبر ، وإن كان السبب خوف أن يفوت منه شيء مما يحبه ، فليعلم أن ما يحبه وينضب لفقده إما ضروري لكل أحد كالقوت والمسكن واللباس وصحة البدن ، وهو الذي أشار اليه سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : (من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنما خیرت له الدنيا بحذافيرها) ، أو غير ضروري لأحد كالجاه والمنصب وفضول الأموال ، أو ضروري لبعض الناس دون بعض كالكتاب للعالم وأدوات الصناعات لأربابها . ولا ريب أن كل ما ليس من هذه الأقسام ضرورياً

(١) روى الكافي في باب الغضب نفس هذا الحديث عن الصادق

عليه السلام بهذه العبارة : « إن في التوراة مكتوباً يا بن آدم اذكرني حين

تغضب اذكرك عند غضبي فلا يحملك فيمن أحق .. » وقد تقدّم مثله ص ٢٩٢

فلا يليق أن يكون محبوباً عند أهل البصيرة وذوي المروات ، إذ ما لا يحتاج إليه الانسان في العاجل ولا بد له من تركه في الآجل ، فما بال العاقل أن يحبه ويغضب لفقده ، وإذا علم ذلك لم يغضب على فقد هذا القسم البتة ، وأما ما هو ضروري لكل أو البعض وإن كان الغضب والحزن من فقده يقتضي الطبع لشدة الاحتياج إليه ، إلا أن العاقل إذا تأمل يجد أن ما أُفقد عنه من الاشياء الضرورية إن أمكن رده والوصول إليه يمكن ذلك بدون الغيظ والغضب ايضاً وإن لم يمكن لم يمكن معها ايضاً ، وعلى أي حال بعد التأمل يعلم أن الغضب لا ثمرة له سوى تألم العاجل وعقوبة الآجل وحينئذ لا يغضب وإن غضب يدفعه عن نفسه بسهولة .

(الثاني عشر) أن يعلم ان الله يحب منه الا يغضب ، والحبيب يختار البتة ما يحب محبوبه ، فإن كان محباً لله فليطفيء شدة حبه له غضبه .
(الثالث عشر) أن يتفكر في قبح صورته وحركاته عند غضبه ، بأن يتذكر صورة غيره وحركاته عند الغضب .

تقديم

اعلم أن بعض المعالجات المذكورة يقتضي قطع أسباب الغضب وحسم مواده . حتى لا يهيج ولا يصدر ، وبعضها يكسر سورته أو يدفعه إذا صدر وهاج ، ومن علاجه عند الهيجان الاستعاذة من الشيطان ، والجلوس إن كان قائماً ، والاضطجاع إن كان جالساً ، والوضوء أو الغسل بالماء البارد ، وإن كان غضبه على ذي رحم فليدن منه ولمسه ، فإن الرجم إذا مست سكنت كما ورد في الأخبار (١) .

(١) روى ذلك في الكافي في باب الغضب عن الباقر عليه السلام

وصل

فضيلة الحلم وكظم الغيظ

قد عرفت أن الحلم هو طمأنينة النفس بحيث لا يحركها الغضب بسهولة ولا يزعجه المكروه بسرعة ، فهو الضد الحقيقي للغضب ، لأنه المانع من حدوثه ، وبعد هيجانه لما كان كظم الغيظ مما يضعفه ويدفعه ، فمن هذه الحيثية يكون كظم الغيظ أيضاً ضدّاً له ، فنحن نشير الى فضيلة الحلم وشرافته ، ثم الى فوائد كظم الغيظ ومنافعه ، ليجتهد طالب ازالة الغضب في الاتصاف بالأول فلا يحدث فيه أصلاً ، وبالتالي فيدفعه عند هيجانه ، فنقول :

أما الحلم فهو أشرف الكمالات النفسية بعد العلم ، بل لا ينفع العلم بدونه أصلاً ، ولذا كلما يمدح العلم أو يسأل عنه يقارن به ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم اغنني بالعلم وزيني بالحلم » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « خمس من سنن المرسلين » وعدّها منها الحلم ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ابتغوا الرفعة عند الله » ، قالوا وما هي يا رسول الله ؟ قال : « تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم عن جبهل عليك » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الرجل المسلم ليبرك بالحلم درجة الصائم القائم » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله يحب الحيي الحليم ويبغض الفاحش البذي » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعدوا بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله وحلم يكف به السفيه وخلق يعيش به في الناس » وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

وآله وسلم : « إذا جمع الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين اهل الفضل ، فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعاً الى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون إنا نراكم سراعاً الى الجنة ، فيقولون نحن اهل الفضل ، فيقولون ما كان فضلكم ، فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسىء إلينا عفونا ، وإذا جهل علينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما أعز الله ببجل قط ولا أذل بحلم قط وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « ليس الخبير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخبير أن يكثر علمك ويعظم حلمك » وقال علي بن الحسين عليهما السلام : « إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه » وقال الصادق عليه السلام : « كفى بالحلم ناصراً » وقال عليه السلام : « وإذا لم تكن حليماً فتعلم » وقال عليه السلام : « إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان فيقولان للسفيه منهما : قمت وقلت وانت أهل لما قلت وستجزى بما قلت ، ويقولان للحليم منهما : صبرت وحملت سيففر لك إن اتهمت ذلك قال عليه السلام : فإن رد الحليم عليه ارتفع الملكان . وبعث عليه السلام غلاماً له في حاجة فأبطأ فخرج على اثره فوجده نائماً ، فجلس عند رأسه يروّحه حتى انتبه فقال له : « يا فلان والله ما ذلك لك تنام الليل والنهار ، لك الليل ولنا منك النهار » وقال الرضا عليه السلام : « لا يكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً » .

وأما كظم الغيظ فهو وإن لم يبلغ مرتبة الحلم فضيلة وشرافة ، لأنه التعلم أي تكلف الحلم ، إلا أنه إذا واظب عليه حتى صار معتاداً تحدث بعد ذلك صفة الحلم الطبيعي ، بحيث لا يهيج الغيظ حتى يحتاج الى كظمه ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما العلم بالتعلم والحلم بالحلم » ، فمن

لم يكن حليماً بالطبع لا بد له من السعي في كظم الغيظ عند هيجانه حتى تحصل له صفة الحلم وقد مدح الله سبحانه كاطمي الغيظ في محكم كتابه ، وتواترت الاخبار على شرافته وعظم اجره ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كظم غيظاً ولو شاء ان يمضيه امضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا » (١) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما جرع عبد جرعة اعظم اجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لجهم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من كظم غيظاً وهو يقدر على ان ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره من اي الحور شاء » (٢) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من احب السبيل (٣) الى الله تعالى جرعتان جرعة غيظ يردّها بحلم وجرعة مصيبة يردّها بصبر » وقال سيد الساجدين عليه السلام : « وما تجرعت جرعة احب إليّ من جرعة غيظ لا اكافي بها صاحبها » وقال الباقر عليه السلام : « من كظم غيظاً وهو يقدر على امضائه حشا الله تعالى قلبه اماناً وايماناً يوم القيامة » وقال عليه السلام لبعض ولده (٤) : « يا بني ما من شيء اقرّ لعين ابيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر وما يسرّني

(١) روى الحديث الكافي في باب كظم الغيظ عن ابي عبد الله عليه السلام.

(٢) صحيحنا هذا الحديث على ما في البحار الجزء الثاني من المجالد

١٥ في باب الحلم رواه عن جابر الاخبار للشيخ الجليل الحسن بن فضال

الطبرسي . وفيه اختلاف كثير عما في نسخ جامع السعادات .

(٣) كذا وجدنا الحديث في البحار والكافي ونسخ جامع السعادات .

(٤) في الكافي في باب كظم الغيظ روي هذا الحديث هكذا : « عن

ابي جعفر عليه السلام قال قال لي ابي : يا بني ما من شيء .. الى آخر الحديث »

فالقائل هو سيد الساجدين عليه السلام .

ابن لي بذل نفسي سحر النعم « وقال الصادق عليه السلام : « نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها فإن عظيم الأجر لمن عظيم البلاء وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم » وقال عليه السلام : « ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عز وجل عزاً في الدنيا والآخرة وقد قال الله عز وجل : « وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْأَعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١) » وأتابه الله مكان غيظه ذلك » وقال ابو الحسن الأول عليه السلام : « اصبر على اعداء النعم فإنك لن تكافي من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله فيه » .

(ومنها) .

الانتقام

بمثل ما فعل به أو بالأزبد منه ، وإن كان محرماً ممنوعاً من الشريعة ، وهو من نتائج الغضب ، إذ كل انتقام ليس جائزاً ، فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة والفحش بالفحش والبهتان بالبهتان والسعاية الى الظلمة بمثلها ، وهكذا في سائر المحرمات ، قال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « المستبأن شيطانان يتهاوران » وقد ورد أن رجلاً شتم ابا بكر بحضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو ساكت ، فلما ابتداء لينتصر منه قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال مخاطباً له : « إن الملك كان يحيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم اكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان » .

فكل فعل أو قول يصدر من شخص بالنسبة الى غيره ظمناً إن كان له في الشرع قصاص وغرامة ، فيجب ألا يتعدى عنه ، وإن كان العفو عن الجائر ايضاً أفضل وأولى وأقرب الى الورع والتقوى ، وإن لم يرد له بخصوصه من الشرع حكومة معينة وجب أن يقتصر في الانتقام وما يحصل به التشفي على ما ليس فيه حرمة ولا كذب ، مثل أن يقابل الفحش والذم وغيرها من الأذى التي لم يقدر لها في الشرع حكومة معينة ، بقوله : يا قليل الحياء يا سيء الخلق يا صفيق الوجه ، وامثال ذلك ، إذا كان متصفاً بها ، ومثل قوله جزاك الله وانتقم منك ومن أنت وهل أنت إلا من بني فلان ، ومثل قوله : يا جاهل يا احمق . وهذا ليس فيه كذب مطلقاً إذ ما من أحد إلا وفيه جهل وحمق ، (أما الاول) فظاهر ، (وأما الثاني) فلما ورد من أن الناس كلهم حمق في ذات الله .

والدليل على جواز هذا القدر من الانتقام قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « المستبآن ما قالاً فعلى البادىء منها حتى يعتدى المظلوم » (١) وقول الكاظم عليه السلام في رجلين يتسابان : « البادىء منها أظلم ووزره وصاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم » (٢) وهما يدلان على جواز الانتصار لغير البادىء من دون وزر ما لم يعتد ، ومعلوم أن المراد بالسب فيها أمثال الكلمات المذكورة دون الفحش والكلمات الكاذبة ، ولا ريب في أن الاقتصار على مجرد ما وردت به الرخصة بعد الشروع في الجواب مشكل ، ولعل السكوت عن اصل

(١) صحيحنا الحديث على ما في احياء العلوم ج ٣ ص ١٠٦ وعلى

نسختنا الخطية وفي المطبوعة : « حتى يعتذر الى المظلوم » .

(٢) صحيحنا الحديث على ما في اصول الكافي في باب السفه . وفي

نسختنا الخطية والمطبوعة : « ما لم يعتذر الى المظلوم »

الجواب وحوالة الانتقام الى رب الأرباب أيسر وأفضل ، ما لم يؤدّ الى فتور الحمية والغيرة ، إذ أكثر الناس لا يقدر على ضبط نفسه عند فور الغضب ، لاختلاف حالهم في حدوث الغضب وزواله ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى ، منهم بطيء الغضب سريع النفي ، ومنهم سريع الغضب سريع النفي ، فبتلك بتلك ، ومنهم سريع الغضب بطيء النفي ، ومنهم بطيء الغضب بطيء النفي ، ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع النفي ، وشرهم السريع الغضب البطيء النفي » ، وقد ورد في خبر آخر : « إن المؤمن سريع الغضب سريع الرضا فهذه بتلك » .

ثم طريق العلاج في ترك الانتقام أن يتنبه على سوء عاقبته في العاجل والآجل ، ويتذكر فوائد تركه ، ويعلم أن الحوالة الى المنتقم الحقيقي أحسن وأولى ، وأن انتقامه أشد وأقوى ، ثم يتأمل في فوائد العفو وفضيلته كما يأتي .

وصل

﴿ العفو ﴾

ضد الانتقام (العفو) ، وهو إسقاط ما يستحقه من قصاص او غرامة ، ففرقه عن الحلم وكظم الغيظ ظاهر ، والآيات والأخبار في مدحه وحسنه أكثر من أن تحصى ، قال الله تعالى سبحانه : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ » (١)

وقال : « فَلْيَسْعِفُوا وَ أَيْصَفَحُوا » (١) وقال : « إِنْ تَعَفُّوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » (٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً لحلفت عليهن : ما نقصت صدقة من مال فتصدّقوا ، ولا عفا رجل من مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزّاً يوم القيامة ، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « العفو لا يزيد العبد إلا عزّاً فاعفوا يعزكم الله » وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعقبة : « ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة : تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك » (٣) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « قال موسى يا رب أي عبادك أعز عليك قال الذي إذا قدر عفى » وقال سيد الساجدين عليه السلام : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم ينادي مناد أين أهل الفضل ، قال : فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة ، فيقولون وما فضلكم ، فيقولون كنا نصل من قطعنا ونعطي من حرمنا ونعفو عمن ظلمنا ، قال : فيقال لهم صدقتم ادخلوا الجنة » وقال الباقر عليه السلام : « الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة » وقال الصادق عليه السلام : « ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة تعفو عمن ظلمك » إلى آخر الحديث ، وقال أبو الحسن عليه السلام « ما التقت فئتان قط إلا نصر أعظمهما عفواً » وكفى للعفو فضلاً وشرافاً أنه من أجمل الصفات الإلهية ، وقد يمدح

(١) النور الآية ٢٢

(٢) البقرة الآية ٢٣٨

(٣) في اصول الكافي في باب العفو : « ألا أدلكم على خير أخلاق

الدنيا والآخرة تصل من قطعك » إلى آخر الحديث

الله تعالى به في مقام الخضوع والتذلل ، قال سيد الساجدين عليه السلام :
« أنت الذي مميت نفسك بالعفو فاعف عني » وقال عليه السلام : « أنت الذي
عفوه أعلى من عقابه . »

ومنها :

العنف

وهو الغلظة والفظاظة في الأقوال أو الحركات ايضاً ، وهو من نتائج
الغضب ، وضده (الرفق) أي اللين فيهما ، وهو من نتائج الحلم ، ولا ريب
في أن الغلظة في القول والفعل ينفر الطباع ويؤدي الى اختلال أمر المعاش
والمعاد . لذلك نهى الله سبحانه نبيه عنه في مقام الارشاد ، وقال : « وَلَوْ كُنْتَ
فَضْلاً غَلِيظاً لَغَلِبَ الْقَلْبُ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » (١) وروي عن سلمان :
« أنه قال اذا أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء ، فاذا نزع منه الحياء ،
لم يلقه إلا خائناً مخوناً ، واذا كان خائناً مخوناً نزع منه الأمانة ، فاذا
نزع منه الأمانة لم يلقه إلا فظاً غليظاً ، فاذا كان فظاً غليظاً نزع منه
ربة الإيمان ، فاذا نزع منه ربة الإيمان لم يلقه إلا شيطاناً ملعوناً » .

ويظهر من هذا الكلام أن من كان من أهل الغلظة والفظاظة فهو
الشيطان حقيقة ، فيجب على كل عاقل ان يجتنب عن ذلك كل الاجتناب ،
ويقدم التروّي على كل ما يصدر عنه من القول والفعل ، ليحافظ نفسه عن
التعنف والغلظة فيه ، ويتذكر ما ورد في فضيلة الرفق ويرتكبه في حركاته
ولو بالتكلف ، الى ان يصير ملكة وتزول عن نفسه آثار العنف بالكلية .

وصل

فضيلة الرفق

الاخبار في فضيلة الرفق وفوائده أكثر من أن تحصي ، ونحن نشير الى شطر منها هنا ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لو كان الرفق خلقاً يُرى ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لكل شيء قفل وقفل الايمان الرفق » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف » (١) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما الى الله تعالى أرفقهما بصاحبه » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « الرفق يمن والخرق شؤم » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من كان رفيقاً في أمره نال ما يريد من الناس » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من اعطى حظه من الرفق اعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أتدرون من يحرم على النار ؟ كل هتين لئين

(١) وروي هذان الحديثان في اصول المكا في باب الرفق عن

أبي جعفر الباقر عليه السلام .

سئل قريب « وقال الكاظم عليه السلام : « الرفق نصف العيش » وقال عليه السلام لمن جرى بينه وبين رجل من القوم كلام : « ارفق بهم فإن كفر أحدكم في غضبه ، ولا خير فيمن كان كفره في غضبه » .

ثم التجربة شاهدة بان إمضاء الأمور وإنجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق ، فكل ملك كان رفيقاً بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه ، وان كان فظاً غليظاً اختل أمره وانفض الناس من حوله وزال ملكه وسلطانه في أسرع زمان . وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والأمراء وغيرهما ، من ذوي المناصب الجليلة وأزباب المعاشلة والمكاسبة واصحاب الصنائع والحرف .

تكملة

﴿ المداراة ﴾

(المداراة) قريب من الرفق معنى، لأنهم لائمه الناس وحسن صحبتهم واحتمال أذاهم، وربما فرق بينهما باعتبار تحمل الأذى في المداراة دون الرفق ، وقد ورد في مدحها وفوائدها الدنيوية والأخروية اخبار كثيرة ، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « المداراة نصف الايمان » وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث من لم يكن فيه لم يتم له عمل : ورع يحجزه عن معاصي الله وخلق يداري به الناس وحلم يرد به جهل الجاهل » وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أمرني ربي بداراة الناس كما أمرني باداء الفرائض » وقول الباقر عليه السلام : « في التوراة مكتوب في ما ناجى الله عز وجل به موسى بن عمران عليه السلام يا موسى

١ كتم مكتوم سري في سريرتك وأظهر في علانيتك المداواة عني لعدوي وعدوك من خلقي « الى آخر الحديث (١) وقول الصادق عليه السلام : « جاء جبرئيل الى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد ربك يقرئك السلام ويقول دار خلقي « وقوله عليه السلام : « إن قوماً من الناس قدّمت مداراتهم للناس فنفوا (٢) من قریش وأيم الله ما كن بأحسابهم بأس ، وإن قوماً من غير قریش حسنت مداراتهم فألحقوا بالبيت الرفيع « ثم قال : « من كف يده عن الناس فأنما يكف عنهم يداً واحدة ويكفون عنه أيدي كثيرة » .

ومنها :

سوء الخلق بالمعنى الأخص

وهو التضجر وانقباض الوجه وسوء الكلام وأمثال ذلك ، وهو أيضاً من نتائج الغضب ، كما أن ضده - اعني (حسن الخلق بالمعنى الأخص) وهو أن تآين جناحك وتطيب كلامك وتلقى أخاك ببشر حسن - من نتائج الحلم ،

(١) وتتمام الحديث في اصول الكافي في باب المداواة : « ولا تستسب لي عندهم باظم عار مكتوم سري فتشرك عدوي وعدوك في سبي » . قال في الوافي : « ولا تستسب لي : أي لا تطلب سبي فان من لم يفهم السر يسب من تكلم به ، فتشرك : أي تكون شريكاً له ، لانك أنت الباعث له عليه »

(٢) هكذا في النسخة المطبوعة . وفي بعض نسخ الكافي المصححة « فأنفوا » وفي بعضها « فالقوا » . قال في الوافي : « فأنفوا كأنه صيغة مجتهول من الأنفة بمعنى الاستنكاف ، إذ لم يأت الانفاء بمعنى النفي . وفي بعض النسخ فأنفوا من اللقاء ، ولعله الأصح »

وأكثر ما يطلق سوء الخلق وحسنه في الاخبار يراد به هذا المعنى ، ولا ريب في أن سوء الخلق مما يبعد صاحبه عن الخالق والخلق ، والتجربة شاهدة بأن الطباع متنفرة عن كل شيء الخلق ، يكون دائماً مضحكة للناس ، ولا ينفك لحظة عن الحزن والألم ، ولذا قال الصادق عليه السلام : « من ساء خلقه عذب نفسه » ، وقد يعثره لاجله الضرر العظيم . هذا كله مع سوء عاقبته في الآخرة وادائه الى العذاب الأبدى ، ولذا ورد به الدم الشديد من الشريعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لما خلق الله الايمان قال اللهم قوّني فقواه بحسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الكفر قال اللهم قوّني فقواه بالبخل وسوء الخلق » وروي أنه قيل له صلى الله عليه وآله وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال : « لا خير فيها هي من أهل النار » وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » (١) وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إن العبد ليبغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم » وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : « أبى الله لصاحب الخلق السيء بالتوبة » قيل : فكيف ذاك يا رسول الله قال : « لأنه اذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « سوء الخلق ذنب لا يغفر » وقال الامام جعفر بن محمد -عليهما السلام : « إذا خلق الله العبد في أصل الخلق كافراً لم يمت حتى يحبب الله اليه الشر ، فيقرب منه ، فابتلاه بالكبر والجبروت ، فقتى قلبه وساء خلقه وغلظ وجهه وظهر فحشه وقلّ حياؤه وكشف الله تعالى سره وركب المحرم ولم ينزع عنها ، ثم ركب معاصي

(١) روى هذا الحديث اصول الكافي في باب سوء الخلق عن الصادق عليه السلام ، ولكن جاء فيه « ليفسد العمل » بدلاً من « يفسد العمل » .

الله وابتغى طاعته ووثب على الناس لا يشبع من الخصومات، فاسألوا الله العافية واطلبوها منه » وقال بعض الأكابر : « لئن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني عابد سيء الخلق » .

وطريق العلاج في إزالته أن يتذكر أولاً أنه يفسد آخرته ودنياه ، ويجعله ممقوتاً عند الخالق والخلق ، فيعده نفسه لإزالته ، ثم يقدم التروي والتفكير عند كل حركة وتكلم ، فيحفظ نفسه عنده - ولو بالتحمل والتكلف - من صدور سوء الخلق ، ويتذكر ماورد في مدح حسن الخلق الذي هو ضده كما يأتي ، ويواظب حتى يزول على التدريج آثاره بالكلية .

وصل

طرق اكتساب حسن الخلق

قد عرفت أن ضد هذه الرذيلة (حسن الخلق بالمعنى الأخص) ، فمن معالجتها أن يواظب عليه حتى ترتفع آثارها بالكلية . وأقوى البواعث على اكتسابه والمواظبة عليه أن يتذكر ما يدل على شرافته ومدحه عقلاً وتقلاً : أما حكم العقل على مدحه ، فظاهر لا يحتاج إلى بيان ، وأما النقل فالأخبار التي وردت به أكثر من أن تحصى ، ونحن نورد شطراً منها تذكرة لمن أراد أن يتذكر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق » وقال : « يا بني عبد المطلب إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم بطلاقة الوجه وحسن

البشر « وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ألا فزينوا دينكم بهما » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « حسن الخلق خلق الله الأعظم » وقيل له صلى الله عليه وآله وسلم : أي المؤمنين أفضلهم إيماناً؟ قال : « أحسنهم خلقاً » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ان احبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشيء من علمه : تقوى يحجزه عن محارم الله وحلم يكف به السيئة وخلق يعيش به في الناس » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ان الخلق الحسن يميث الخطيئة كما يميث الشمس الجليد » (١) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن العبد ليلبغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل وإنه يضعف العبادة » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة » وقال لها بعد ما سأله أن المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلان الجنة لأيهما هي : « إنها لأحسنهما خلقاً » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم » (٢) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أكثر ما يلج به أمي الجنة

(١) روي هذا الحديث في الكافي في باب حسن الخلق عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، وفي نهاية ابن الأثير « في الحديث : حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد » ويذيب بمعنى يميث .
(٢) هذا الحديث مروى في الكافي في باب حسن الخلق عن أبي عبد الله عليه السلام .

تقوى الله وحسن الخلق « وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً (١) الذين يألفون ويؤلفون » وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « المؤمن مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » ولا ريب في أن سبيء الخلق تنفر عنه الطباع فلا يكون مألوفاً ، وقال الامام ابو جعفر الباقر عليه السلام : « إن اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً » وقال عليه السلام : أتى رجل رسول الله فقال يا رسول الله اوصني فكان فيما أوصاه ان قال : « اتق اخاك بوجه منبسط » وقال الصادق عليه السلام : « ما يقدم المؤمن على الله عز وجل بعمل بعد الفرائض احب الى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقهم » وقال عليه السلام : « البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار » وقال عليه السلام : « إن الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي الجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح » وقال عليه السلام : ثلاث من أتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة : الانفاق من إقتار ، والبشر لجميع العالم ، والانصاف من نفسه » وقال عليه السلام : « صنایع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة ، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار » .

ومن تأمل في هذه الأخبار ورجع الى الوجدان والتجربة وتذكر احوال الموصوفين بسوء الخلق وحسنه يجد أن كل سبيء الخلق بعيد من الله ومن رحمته

(١) قال المبرد في الكامل ص ٣ : « قواه صلى الله عليه وآله وسلم الموطؤون أكنافاً . مثل ، وحقائقه أن التوطئة هي التذليل والتهيئة . . . فأراد القائل بقواه موطأ الأكناف ان ناصيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذى ولا تاب به موضعه » .

والناس يبغضونه ويشتمون منه ، ولذا يحرم من برّهم وصلّتهم ، وكل حسن الخلق محبوب عند الله وعند الناس ، فلا يزال محلاً لرحمة الله وفيوضاته ، ومرجعاً للؤمنين بإيصال نفعه وخيره إليهم وإنجاح مقاصده ومطالبه منهم ، ولذلك لم يبعث الله سبحانه نبياً إلا وأنتم فيه هذه الفضيلة ، بل هي أفضل صفات المرسلين وأشرف أعمال الصديقين ، ولذا قال الله تعالى لحبيبه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه : « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » (١) وأعظم شرافته بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه ما بلغ من غايته وتمكن على ذروته ونهايته حتى ورد ﴿ يَٰرَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذَاتِ يَوْمٍ جَالِسٍ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ جَاءَتْ جَارِيَةٌ لِّبَعْضِ الْأَنْصَارِ وَهَرَقَا مِ (٢) ، فأخذت بطرف ثوبه فقام لها النبي صلى الله عليه وآله فلم تقل شيئاً ولم يقل لها النبي صلى الله عليه وآله شيئاً ، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات ، فقام لها النبي صلى الله عليه وآله في الرابعة وهي خلفه ، فأخذت هدية من ثوبه ثم رجعت ، فقال لها الناس : فَعَلَّ اللَّهُ بِكَ وَفَعَلَّ (٣) حبست رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئاً ولا هو يقول لك شيئاً ! ما كانت حاجتك إليه ؟ قالت إن لنا مريضاً فأرسلني أهلي لأخذ هدية من ثوبه يستشفى (٤)

(١) القلم الآية ٤

(٢) قال في البحار ج ١٥ في باب حسن الخلق ص ٢٠٧ : « حال عن بعض الأنصار » أي أن القائم هذا البعض صاحب البحارية لا النبي صلى الله عليه وآله .

(٣) قال في البحار في الموضع المتقدم « كناية عن كثرة الدعاء عليها بإيذائها النبي صلى الله عليه وآله وهذا شائع في عرف العرب والعجم » .

(٤) قال في البحار في الموضع ص ٢٠٨ : « في بعض النسخ ، بل أكثرها ليستشني » .

بها فلما أردت أخذها رأيتني فقام ، استحييت ان أخذها وهو يراني وأكره
أن أستأمره في أخذها ، فأخذتها « (١) .

(منها) :

الحقد

وقد عرفت أنه إضمار العداوة في القلب ، وهو من ثمرة الغضب لأن
الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشنفي في الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه
فصار حقداً ، وهو من المهلكات العظيمة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم : « المؤمن ليس بحقود » ، والغالب أن الحقد يلزمه من الآفات
الحسد والهجرة والانتقام عن المحقود وايدأوة بالضرب والتكلم فيه بما لا يحل ،
من الكذب ، والغيبة ، والبهتان ، وافشاء السر ، وهتك السر ، واظهار
العيوب ، والشتم بما يصيبه من البلاء والسرور به ، والانبساط بظهور عثراته
وهفواته ، والمحاكاة عنه بالاستهزاء والسخرية ، والاعراض عنه استصغاراً له ،
ومنع حقوقه من دين أو رد مظلمة أو صلة رحم ، وكل ذلك حرام يؤدي الى
فساد الدين والدنيا ، وأضعف مراتبه أن يجترزعن الآفات المذكورة ولا يرتكب
لأجله ما يعصي الله به ، ولكن يستثقله بالباطن ولا ينتهي قلبه عن بغضه ، وهو

(١) صحيحنا الحديث على اصول الكافي في باب حسن الخلق . وفي
نسخ جامع السعادات اختلاف كثير عما أثبتناه ، وقد جاء في اصول الكافي
في صدر الحديث « قال أبو عبد الله عليه السلام : يا بحر حسن الخلق يسر
ثم قال ألا أخبرك بحديث ما هو في يدي أحد من أهل المدينة قلت بلى
قال بينا رسول الله ... الى آخر الحديث »

ايضاً من الأمراض المؤلمة للنفس الممانعة لها عن القرب الى الله والوصول الى الملأ
الاعلى ، ويمنع صاحبه عما ينبغي أن يصدر عنه بالنسبة الى أهل الايمان من
المشاشة والرفق والتواضع والقيام بجوائجهم والمجالسة معهم والرغبة الى اعانتهم
ومواساتهم وغير ذلك ، وهذا كله مما ينقص درجته في الدين ويحول بينه وبين
مرافقة المقربين .

ولما كانت حقيقته عبارة عن العداوة الباطنة فجميع الاخبار الواردة في ذم
المعاداة تدل على ذمه ، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما كان جبرئيل
يأتيني إلا قال يا محمد اتق شحناء الرجال وعداوتهم » وقوله صلى الله عليه وآله
وسلم : « ما عهد اليّ جبرئيل قط في شيء ما عهد إلي في معاداة الرجال » وقول
الصادق عليه السلام : « من زرع العداوة حصد ما بذر » ، وقس عليها غيرها .
وطريق العلاج في إزالته أن يتذكر أن هذه العداوة الباطنة تؤلمه في
العاجل ، إذ الحقود المسكين لا يخلو عن التألم والهم لحظة ، ويعذبه في الآجل ،
ومع ذلك لا يضر الحقود اصلاً ، والعاقل لا يدوم على حالة تكون مضرّة لنفسه
ونافعة لعدوه . وبعد هذا التذكّر ، فليجتهد في أن يعامله معاملة احبائه ، من
مصاحبته بالانبساط والرفق والقيام بجوائجه وغير ذلك ، بل يخصه بزيادة البر
والاحسان مجاهدة للنفس وارغاماً للشيطان ، ولا يزال يكرر ذلك حتى ترتفع عن
نفسه آثار هذه الرذيلة بالكافية . ثم لما كان الحق عبارة عن العداوة الباطنة
وحقيقتها إضرار الشر وكراهة الخير لمن يعاديه ، فضده (النصيحة) التي هي قصد الخير
وكراهة الشر لا المحبة كما يتراءى في بادي الرأي ، إذ هي ضد الكراهة دون
العداوة ، كما يأتي في محله ، فمن معالجات الحق أن يتذكر فوائد النصيحة
ومدحها ، كما يأتي ليعين على إزالته .

(ومنها) :

العداوة الظاهرة

وهي من لوازم الحقد لأنه إذا قوي قوة لا يقدر معها على المجاملة أظهر العداوة بالمكاشفة ، والأخبار الواردة في ذمتها كثيرة وقد تقدم بعضها ، وعلاجها كما تقدم في الحقد ، وضدها النصيحة الظاهرة ، أعني فعلية الخير والصالح لا مجرد قصدها ، فليس كاف نفسه عليها ، حتى تصير ملكة له ويزول ضدها .
(ومنها) :

الضرب والفحش والطعن والطعن

وهذه ناشئة غالباً عن العداوة والحقد ، وربما صدرت من مجرد الغضب وسوء الخلق ، وربما صدر الفحش من الاعتیاد الحاصل من مخالطة الفساق ، وربما كان الباعث في بعض أفرادها حب المال وقصد الممدود من رذائل قوة الشهوة ، إلا أن الفاعل المباشر لهذه الأمور هي القوة الغضبية ، أو النفس لهيجان قوة الغضب ، وإن كان الهيجان حاصلاً بوساطة فعل قوة الشهوة ، وعلى أي تقدير يكون من رذائل القوة الغضبية على قاعدتنا ، ولذا أدرجناها تحتها فقط .

نم لا ريب في كون هذه الأمور مذمومة محرمة في الشريعة موجبة لحبط الأعمال وخسران المال ، وجميع ما يدل على ذم الإيذاء والاضرار يدل على ذمها ، لكونها بعض أفرادها ، والعقل والشرع متطابقان على شدة قبح

كل واحد منهما بخصوصه وإيجابه للهلاك أما الضرب فلائنه لا ريب في أن ضرب مسلم بلا داع شرعي مما يقبحه كل عاقل ويندبه جميع طوائف العالم حتى نفاة الأديان، والأخبار الواردة في ذمه كثيرة ، وفي عدة منها : (أن من ضرب رجلاً سوطاً لضربه الله سوطاً من النار) وأما الفحش والسب وبذاءة اللسان فلا ريب في كونه صادراً عن خباثة النفس ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي » ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إياكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش والتفحش » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « البذاء والبيان شعبان من شعب النفاق » ، وروي أن المراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى » ، وعد منهم رجلاً يسيل فوه قبحاً ، وهو من كان في الدنيا فاحشاً ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة منهم » (١) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله حرم الجنة على كل فاحش بذي قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له » فانك إن فتشته لم تجده إلا لغية (٢) أو شرك شيطان » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا رأيتم الرجل لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه فانه لغية أو شرك شيطان » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله ليبغض الفاحش البذي والسائل الملحف » وقال

(١) وفي بعض نسخ السكافي في باب السباب « بينهم » بدل منهم

(٢) قال في القاموس في مادة غوى : « ولد لغية ويكسر أي زنية »

فيكون معناه « لغية » أي لزنية .

صلى الله عليه وآله وسلم : « إن من شرار عباد الله من تكبره مجالسته لفحشه »
 وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وأكل لحمة
 معصية وحرمة ماله كحرمة دمه » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « سباب
 المؤمن كالشرف على الهلكة » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « شر الناس
 عند الله تعالى يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرهم » وقال صلى الله عليه وآله
 وسلم : « المتسابان شيطانان متعاديان ومتباعدان » وقال الصادق عليه السلام :
 « من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه أن يكون فاحشاً لا يبالي ما (١)
 قال ولا ما (١) قيل فيه » وقال عليه السلام : « البذاء من الجفاء والجفاء
 في النار » وقال عليه السلام : « من خاف الناس لسانه فهو في النار » وقال :
 « إن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه » وعن الكاظم عليه السلام
 في رجلين يتسابان : « فقال البادي منهما أظلم ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم
 يتعد المظلوم » (٢)

(تنبيه) اعلم أن حقيقة الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة
 بالعبارة الصريحة ، ويجري أكثر ذلك في الفاظ الوقاع وآلاته وما يتعلق بهما ،
 فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح
 يتحاشون من التعرض لها ، بل يكونون عنها ويعبرون عنها بالرموز ، قال بعض
 الصحابة : « إن الله حيي كريم يعف ويكفي ، كني باللمس عن الجماع »
 فاللمس واللمس والدخول والصحبة كنايةات عن الوقاع وليست بفاحشة ، وعنه

(١) وفي بعض نسخ الكفا في باب البذاء « بما » في الموضعين .
 (٢) قد مضى في الصفحة « ٣٠١ » تصحيح الحديث على ما في أصول
 الكفا في باب السب . فصحيحنا هنا أيضاً

عبارات فاحشة يستقبح ذكرها وليس هذا يختص بالوقاع ، بل الكناية بقضاء الحاجة عن التبول والتغوط أولى من لفظة التغوط والخراء وغيرها ، فهذا أيضاً مما يُكنى ويستحي منه ، فلا ينبغي أن تذكر الفاظه الصريحة باللسان بل يكتفى عنها ، فلا يقال قالت زوجك أو امرأتك ، بل يقال قيل في الحجرة أو قيل من وراء الستر ، وقالت أم الأولاد وأمثال ذلك ، وكذلك من به عيوب يستحي منها ، فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبَـطَن وأمثال ذلك ، بل يكتفى عنها بعبارات غير صريحة ، مثل العارض الذي عرض وما يجري مجراه ، اذ التصريح بجميع ذلك داخل في الفحش .

ثم الفاظ الفحش لا ريب حينئذ في كونها محظورة بأسرها مذمومة ، وإن كان بعضها أفحش من بعض ، فيكون اثمه أشد ، سواء استعمل في الشتم والايذاء أولاً يستعمل فيه ، بل في المزاح والهزل وغيرها ، وحينئذ لما كانت هذه العبارات متفاوتة في الفحش بعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف بعادة البلاد فيكون بعضها مكروهاً وبعضها محظوراً ، فإن من قال لغيره مزاحاً أو اعتياداً حاصلًا من مخالطة الفساق : (فرج امرأتك ضيق أم لا) لا ريب في كونه فحشاً محرماً مذموماً مع أنه لم يستعمل في الشتم ، وبالجملة أوائل هذه العبارات مكروهة وأواخرها محظورة ، وبينهما درجات تردد بين الكراهة والحرمة .

وأما (اللعن) فلا ريب في كونه مذموماً لأنه عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى ، وهذا غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده بنص الشريعة ، وقد ورد عليه الذم الشديد في الأخبار ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « المؤمن ليس بلعن » وعن الباقر عليه السلام قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس فقال : « ألا أخبركم بشراركم » قالوا بلى يا رسول الله

قال : « الذي يمنع رفضه ويضرب عبده ويتردد وحده » فظنوا أن الله لم يخلق خلقاً هو شر من ذلك ، ثم قال : « ألا أخبركم بمن هو شر من ذلك » قالوا بلى يا رسول الله قال : « المتفحش اللعان الذي إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم وإذا ذكره لعنوه » وقال الباقر عليه السلام : « إن اللعنة إذا خرجت من في صاحبها ترددت بينهما فإن وجدت مساعداً وإلا رجعت إلى صاحبها » .

ثم لما كان اللعن هو الحكم بالبعد أو طلب الإبعاد من الله (والأول) غيب لا يطلع عليه إلا الله (والثاني) لا يجوز إلا على من اتصف بصفة تبعه منه ، فينبغي ألا يلعن أحداً إلا من جواز صاحب الشرع لعنه ، والجواز من الشرع إنما هو اللعن على الكافرين والظالمين والفاستقين كما ورد في القرآن ، ولا ريب في جواز ذلك بالوصف الأعم كقولك لعنة الله على الكافرين ، أو بوصف يخص بعض الأصناف كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى .

والحق جواز اللعن على شخص معين علم اتصافه بصفة الكفر أو الظلم أو الفسق . (وما قيل) من عدم جواز ذلك إلا على من يثبت لعنه من الشرع كفرعون وإبي جهل ، لأن كل شخص معين كان على إحدى الصفات الثلاثة ربما رجع عنها ، فيموت مسلماً أو تائباً ، فيكون مقرباً عند الله لا مبعداً عنه (كلام ينبغي) أن يطوى ولا يروى ، إذ المستفاد من كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وكلام أئمتنا الراشدين جواز نسبته إلى الشخص المعين ، بل المستفاد منها أن اللعن على بعض أهل الجحود والعناد من أحب العبادات وأقرب القربات ، قال الله سبحانه : « أَوَلَمْ تَكُنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةً اللَّهُ وَآلِهِ وَنَارُ النَّاسِ أَجْمَعِينَ » (١) وقال : « أَوَلَمْ تَكُنْ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ

وَيَلْعَنُ عَنْهُمْ الْعَارِعُونَ» (١) وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لعن الله الكاذب ولو كان مازحاً» وقال صلى الله عليه وآله وسلم في جواب أبي سفيان حين هجاه بألف بيت «اللهم إني لا أحسن الشعر ولا ينبغي لي ، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة» ، وقد لعن أمير المؤمنين عليه السلام جماعة ، وروى أنه كان يقنت في الصلاة المفروضة بلعن معاوية وعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري وأبي أعور الأسلمي ، مع أنه أحلم الناس وأشدّهم صفحاً عن يسوء به ، فلو لا أنه كان يرى لعنهم من الطاعات لما يتخير محله في الصلوات المفروضة ، وروى الشيخ الطوسي أن الصادق عليه السلام كان ينصرف من الصلاة بلعن أربعة رجال ، ومن نظر إلى ما وقع للحسن عليه السلام مع معاوية وأصحابه وكيف لعنهم ، وتتبع ماورد من الأئمة في الكافي وغيره من كتب الأخبار والأدعية في لعنهم من يستحق اللعن من رؤساء الضلال والتصريح باسمائهم ، يعلم أن ذلك من شعائر الدين بحيث لا يعتريه شك وحرية . وما ورد من قوله عليه السلام «لا تكونوا لعّانين» ومثله نهي عن اللعن على غير المستحقين ، وما روي أن أمير المؤمنين عليه السلام نهي عن لعن أهل الشام فإن صح فلعله كان يرجو إسلامهم ورجوعهم إليه كما هو شأن الرئيس المشفق على الرعية .

وبالجملة اللعن على رؤساء الظلم والضلال والمجاهرين بالكفر والفسق جائز بل مستحب وعلى غيرهم من المسلمين غير جائز إلا أن يتيقن باتصافه بأحدى الصفات الموجبة له ، وينبغي ألا يحكم باتصافه بشيء منها بمجرد الظن والتخمين ، إذ لا يجوز أن يرمى مسلم بكفر وفسق من غير تحقيق ، قال رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم : « لا يرمي رجل رجلاً بالكفر فلا يرميه بالفسق إلا ارتد عليه إن لم يكن كذلك » .

ثم اللعن على الأموات أشد وزراً وأعظم إثماً ، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تسبوا الأموات فإنهم قد افضوا الى ما قدموا » ، ولا ينبغي أن يلعن الجمد والحيوان ايضاً ، لما روي أنه ما لعن أحد الأرض إلا قالت اللعن على اعضائنا لله ، وما روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انكر على امرأة لعنت ناقة وعلى رجل لعن بعيراً ، ثم الدعاء على المسلم بالشر قريب من اللعن عليه ، فلا ينبغي ارتكابه ولو على الظالم ، إلا إذا اضطر اليه لشره واضراره وقد ورد أن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافيه ، ثم يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة ، وقال علي بن الحسين عليهما السلام : « إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يذكر أخاه بالسوء ويدعو عليه قالوا بنس الأخ أنت لأخيك كف أيها المستر على ذنوبه وعورته وإربع على نفسك ، واحمد الله الذي ستر عليك » (١) .

ثم ضد ذلك اعني الدعاء للأخ المسلم بما يحب لنفسه من أحب الطاعات وأقرب القربات ، وفوائده أكثر من أن تحصى ، بل عند التحقيق دعاؤك له دعاء لنفسك ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك ولك مثل ذلك » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » وقال علي بن الحسين عليهما السلام : « إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب

(١) هذه الرواية من تنمة الرواية الآتية عن علي بن الحسين

عليه السلام .

او يذكره بخير ، قالوا نعم الأخ انت لأخيك تدعو له بالخير وهو غائب عنك ، وتذكره بالخير قد اعطاك الله عز وجل مثلي ما سألت له ، واثنى عليك مثلي ما اثنيت عليه ، ولك الفضل عليه » ، ومثله ورد عن الباقر عليه السلام ايضاً .
والاخبار في فضيلة الدعاء للاخوان اكثر من أن تحصى ، واي كرامة اعظم لك من ان تصل منك الى المؤمن وهو تحت اطباق الثرى هدايا الاستغفار والادعية ، وهل تدري كيف تسرّ روحه منك بهذا العمل ، فان اهله يقسمون ميراثه ويتنعمون بما خلف ، وانت متفرد بحزنك تدعو له في ظلمة الليل ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ، ينتظر دعوة من ولد او والد او اخ او قريب وانه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال » . وهو للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء فيدخل الملك على الميت معه طبق من نور عليه منديل من نور ، فيقول هذه هدية لك من عند اخيك فلان من عند قريبك فلان فيفرح كما يفرح الحي بالهدية (١) .

وأما « الطعن » فهو ايضاً من ذمائم الافعال ويورث الضرر في الدنيا والعذاب في الآخرة قال الباقر عليه السلام : « اياكم والطعن على المؤمنين » وقال عليه السلام : « ما من انسان يطعن في عين مؤمن إلا مات شرّ ميتة وكان قنماً ألا يرجع الى خير » .

(١) هذا الكلام من بعد الحديث رواه في احياء العلوم ج ٢ ص ١٦٤ عن بعض السلف وبمضمونه احاديث مروية عن آل البيت روي منها في الوسائل في ابواب الاحتضار من كتاب الطهارة « باب استحباب الصلاة عن الميت والصوم والحج » .

واعلم أن هذه الامور اعني الفحش واللعن والطعن وامثالها مما يأتي في موضعه من الغيبة والكذب والبهتان والاستهزاء والمزاح والخوض في الباطل والتكلم بالفضول وما لا يعني من آفات اللسان ، ويأتي أن لجميع آفات اللسان ضداً عاماً هو الصمت ، ويأتي بيان فضيلته وكثرة فوائده ، ويأتي ايضاً ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان اعني ما ورد في ذم اللسان ، وكون شره اعظم من شر سائر الاعضاء ، فإنه بعمومه يدل على ذم هذه الامور .

ومنها أي ومن ردائل القوة الغضبية :

العجب

وهو استعظام نفسه لأجل ما يرى لها من صفة كمال ، سواء كانت له تلك الصفة في الواقع أم لا ، وسواء كانت صفة كمال في نفس الأمر أم لا ، وقيل : « هو اعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم » وهو قريب مما ذكر ، ولا يعتبر في مفهومه رؤية نفسه فوق الغير في هذا الكمال وهذه النعمة ، وبذلك يمتاز عن الكبر ، إذ الكبر هو أن يرى لنفسه منزلة على غيره في صفة كمال ، وبعبارة اخرى هو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه ، فالكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به .

والعجب لا يستدعي غير المعجب ، بل لو لم يخلق الانسان إلا وحده تصور أن يكون معجباً ، ولا يتصور أن يكون متكبراً ، إلا أن يكون مع غيرد وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفة الكمال ، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً ، فإنه قد يستعظم نفسه ، ولكن يرى غيره اعظم من

نفسه أو مثل نفسه ، فلا يتكبر عليه ، فهو معجَّب وليس متكبراً ، ولا يكتفي أن يستحقّر غيره ، فإنّه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر أو رأى غيره مثل نفسه لم يكن متكبراً ، بل المتكبر هو أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره .

والحاصل أن العجب مجرد إعظام النفس لأجل كمال أو نعمة وإعظام نفس الكمال والنعمة مع الركون ونسيان اضافتهما الى الله ، فإن لم يكن معه ركون وكان خائفاً على زوال النعمة مشفقاً على تكدرها أو سلبها بالمرّة ، أو كان فرحه بها من حيث انها من الله من دون اضافتها الى نفسه لم يكن معجباً ، فالمعجب ألا يكون خائفاً عليها ، بل يكون فرحاً بها مطمئناً اليها ، فيكون فرحه بها من حيث انها صفة كمال منسوبة اليه لا من حيث انها عطية منسوبة الى الله تعالى ومهما غلب على قلبه أنها نعمة من الله مهما شاء سلبها زال العجب .

ثم لو انضاف الى العجب أي غلب على نفس المعجب أن له عند الله حقاً وأنه منه بمكان واستبعد أن يجري عليه مكروه وكان متوقفاً منه كرامة لعمله سمي ذلك (ادلالاً) بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة، فهو وراء العجب وفوقه ، إذ كل مدل معجب ورب معجب لا يكون مدلاً ، إذ العجب مجرد الاستعظام ونسيان الإضافة الى الله من دون توقع جزاء على عمله ، والادلال يعتبر فيه توقع الجزاء بعمله إذ المدل يتوقع إجابة دعوته ويستنكر ردّها بباطنه ويتعجب منه ، فالادلال عجب مع شيء زايد .

وعلى هذا فمن اعطى غيره شيئاً فإن استعظمه ومنّ عليه كان معجباً ، وان استخدمه مع ذلك أو اقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه ، وكما أن العجب قد يكون مما يراه صفة كمال وليس بها،

كذلك العجب بالعمل قد يكون بعمل هو مخطيء فيه ويراه حسناً ، كما قال سبحانه : « أَقْسَنُ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا » (١) وقال ابو الحسن عليه السلام : « العجب درجات : ومنها أن يزین للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب انه يحسن صنعاً ، ومنها ان يؤمن العبد بربه فيحسن على الله عز وجل والله عليه فيه المن » .

فصل

ذم العجب

العجب من المهلكات العظيمة وارذل الملكات الذميمة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو اكبر من ذلك العجب العجب » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « بينا موسى عليه السلام جالس (٢) اذا قبل عليه ابليس وعليه برنس ذو الوان ، فلما دنى منه خلع البرنس وقام الى موسى عليه السلام فسلم عليه ، فقال له موسى : من انت ؟ فقال : انا ابليس ، قال انت ! فلا قرب الله دارك ، قال اني اتما جئت لاسلم عليك لمكانك من الله فقال له موسى عليه السلام : فما هذا البرنس قال به اختطف قلوب بني آدم ،

(١) الفاطر الآية ٩

(٢) وفي بعض نسخ الكافي في باب العجب هكذا : [جالساً] بالعجب

فقال موسى فاخبرني بالذنب الذي اذا اذنبه ابن آدم استحوذت عليه ، قال اذا اعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه « وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « قال الله عز وجل : يا داود بشر المذنبين وانذر الصديقين ، قال كيف ابشر المذنبين وانذر الصديقين ؟ قال : بشر المذنبين اني اقبل التوبة واعفو عن الذنب وانذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبه للحساب الا هلك » وقال الباقر عليه السلام : « دخل رجلان المسجد احدهما عابد والآخر فاسق ، فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق ، وذلك انه يدخل العابد المسجد مُدلاً بعبادته يدل بها ، فتكون فكرته في ذلك ، وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه ، ويستغفر الله مما صنع من الذنوب » وقال الصادق عليه السلام : « ان الله علم ان الذنب خير للمؤمن من العجب ولو لا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب ابداً » وقال عليه السلام : « من دخله العجب هلك » وقال عليه السلام : « ان الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه ويعمل العمل فيسره ذلك فيتراخي عن حاله تلك ، فيلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه » وقال عليه السلام : « أتى عالم ابداً فقال له كيف صلاتك ؟ فقال : مثلي يُسأل عن صلاته وانا عابد الله منذ كذا وكذا ، قال فكيف بكاؤك ؟ قال : ابكي حتى تجري دموعي ، فقال له العالم : فان ضحكك وانت خائف افضل من بكائك وانت مدل ، ان المدل لا يصعد من عمله شيء » وقال عليه السلام : « العجب كل العجب ممن يعجب بعلمه وهو لا يري بما يختم له ، فمن اعجب بنفسه وفعله ، فقد ضل عن نهج الرشاد وادعى ما ليس له ، والمدعي من غير حق ككاذب وان خفي دعواه وطال دهره ، وان اول ما يفعل بالمعجب نزع ما اعجب به ليعلم انه عاجز حقير ، ويشهد على نفسه ليسكون الحجة عليه او كد كما فعل بابلوس . والعجب نبات حبهما السكفر وارضها النفاق وماؤها البغي واغصانها الجهل وورقها الضلالة وثمرها اللعنة

والخلود في النار ، فن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق ولا بد أن
يشمر « (١) وقيل له عليه السلام : « الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق ثم
يعمل شيئاً من البر فيدخله شبه العجب به » فقال هو في حالة الاولى وهو
خائف احسن حالا منه في حال عجبه » وقال عليه السلام : (إن عيسى بن مريم عليهما
السلام كان من شرائعه السبيح في البلاد ، فخرج في بعض سيده ومعه رجل من
اصحابه قصير ، وكان كثير الزوم لعيسى فلما انتهى عيسى صلى الله عليه الى البحر
قال بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على ظهر الماء ، فقال الرجل القصير
حين نظر الى عيسى جازه : بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على الماء ولحق بعيسى
صلى الله عليه ، فدخله العجب بنفسه ، فقال هذا عيسى روح الله يمشي على الماء
وانا امشي على الماء ، فما فضله علي ، قال فرمس في الماء ، فاستغاث بعيسى
عليه السلام فتناوله من الماء فأخرجه ، ثم قال له ما قلت يا قصير ؟ قال قلت
هذا روح الله يمشي على الماء وانا امشي فدخلني من ذلك عجب ، فقال له عيسى :
لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله ، فتمتلك الله على
ما قلت ، فتب الى الله عز وجل مما قلت ، قال : فتاب الرجل وعاد الى مرتبته
التي وضعه الله فيها » (٢)

(١) صحيحنا هذه الرواية على ما في البحار الجزء الثالث من المجلد
الخامس عشر في باب العجب ، وقد نقلها عن مصباح الشريعة ، وفيه اختلاف
عن نسخ جامع السعادات .
(٢) صحيحنا اكثر هذه الاحاديث على الكافي في باب العجب والحسد .

فصل

آفات العجب

العجب آفاته كثيرة (منها) الكبر لانه أحد أسبابه كما يأتي ،
 (ومنها) أنه يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها ، فلا يتذكر شيئاً منها ،
 وإن تذكر بعضاً منها يستصغرها ولا يستعظمها ، فلا يجتهد في تداركها
 وتلافيها بل يظن أنها تغفر له . وأما العبادات فيستعظمها ويتبجح بها ويمنّ على
 الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، وإذا اعجب بها عمي
 عن آفاتها ، ومن لم يتفقد آفات الأعمال ضلّ سعيه ، إذ الأعمال الظاهرة اذا
 لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع ، وإنما يتفقد الخائف المشفق دون
 المعجب ، لانه يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله
 بمكان وأن له عند الله حقاً بأعماله التي هي من عطاياه تعالى ونعمه ، وربما يخرج به
 العجب الى تزكية نفسه والثناء عليها . وإن أعجب برأيه وعقله وعلمه منعه ذلك
 من السؤال والاستفادة والاستشارة ، فيستبد بنفسه ورأيه ويستكف عن
 سؤال الأعلام ، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له ، فيفرح بكونه من
 خواطره ولا يعتني بخواطر غيره ، فيصر عليه ولا يسمع نصيح ناصح ولا وعظ
 واعظ ، بل ينظر الى غيره بعين الاستحقار والاستبهاال ، فإن كان رأيه
 الفاسد متعلقاً بامر دينوي أضره وفضحه ، وإن كان متعلقاً بامر ديني (لا) سبياً
 في اصول العقائد اضله واهلكه ، ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستعان بعلماء
 الدين وسؤال أهل البصيرة لكان خيراً له وأحسن وموصلاً له الى الحق المتيقن .

ومن آفاته أنه يفتر في الجدل والسعي لظنه أنه قد استغنى وفاز بما ينجيهِ وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه .

فصل

علاج العجب اجمالاً وتفصيلاً

إعلم أن للعجب علاجين اجمالياً وتفصيلاً (١) أما العلاج الاجمالي فهو أن يعرف ربه وأنه لا تليق العظمة والعزة إلا به ، وأن يعرف نفسه حق المعرفة ، ليعلم أنه بذاته أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ولا تليق به إلا الذلة والمهانة والمسكنة ، فماله والعجب واستعظام نفسه ، فانه لا ريب في كونه ممكناً وكل ممكن في ذاته صرف العدم ومحض اللاشيء ، كما ثبت في الحكمة المتعالية ، ووجوده وتحقيقه وكمالهِ وآثاره جميعاً من الواجب الحق ، فالعظمة والكبرياء إنما تليق بمفيض وجوده وكمالاته ، لا لذاته التي هي صرف العدم ومحض الاليس ، فان شاء أن يستعظم شيئاً ويفتخر به فليستعظم ربه وبه افتخر ، ويستحق نفسه غاية الاستحقاق وحتى يراها صرف العدم ومحض اللاشيء . وهذا المعنى يشترك فيه كل ممكن كائناً من كان .

وأما المهانة والذلة التي تخص هذا المعجب وبني نوعه ، فكون أوله نطفة قدرة وآخره جيفة عفنة وكونه ما بين ذلك حال نجاسات منتنة ، وقد مرّ على ممر البول ثلاث مرات ، وتكفيه آية واحدة من كتاب الله تعالى لو كان له بصيرة ، وهي قوله تعالى : « قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا

شاءَ أَنْشَرَهُ» (١) فقد أشارت الآية الى أنه كان أولاً في كتم العدم غير المتناهي ، ثم خلقه من أقدر الأشياء الذي هو نقطة مهيمنة ، ثم أماته وجعله جيفة منتنة خبيثة .

وأي شيء أخس وأرذل ممن بدايته محض العدم وخلقته من أنثى الأشياء وأقذرها ونهايته الفناء وصورته جيفة خبيثة . وهو ما بين المبدأ والمنتهى عاجز ذليل لم يفوض اليه أمره ولم يقدر على شيء لنفسه ولا لغيره ، إذ سلطت عليه الأمراض الهائلة والاسقام العظيمة والآفات المختلفة والطبائع المتضادة من المرة والدّم والريح والبلغم ، فيهدم بعض أجزائه بعضاً شاء أم أبي رضي أم سحق ، فيجوع كرهاً ، ويعطش كرهاً ، ويمرض كرهاً ، ويموت كرهاً ، لا يملك لنفسه نفعاً وضراً ولا خيراً وشرّاً ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينسى الشيء فلا ينساه ، ويريد أن ينصرف قلبه الى ما يهيمه فيجول في أودية الوسوس والافكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه ، يشتهي الشيء وفيه هلاكه ، ويكره الشيء وفيه حياته ، يستأذ ما يهلكه ويردته ، ويستبشع ما ينفعه وينجيه ، ولا يأمن في لحظة من ايله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته ، وتفلج أعضاؤه ، ويختلس عقله ، وتختطف روحه ، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه ، وهو مضطر ذليل ، إن ترك فنى ، وإن خلى ما بقى ، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا من غيره ، فأى شيء أذل منه لو عرف نفسه ، وأنى يليق العجب به لولا جهله ، وهذا وسط أحواله .

وأما آخره فهو الموت كما عرفت فيصير جيفة منتنة قادرة ، ثم تضمحل

صورته وتبلى أعضاؤه ، وتنخر عظامه ، وتفتت أجزاؤه ، فيصير رمياً رفاتاً ، ثم يصير روثاً في أجواف الديدان ، يهرب منه الحيوان ، ويستقذره كل إنسان ، وأحسن أحواله أن يعود الى ما كان ، فيصير تراباً تعمل منه الكيزان ، ويعمر منه البنيان ، فما أحسنه لو ترك تراباً ، بل يحجي بعد طول البلى ليقاسي شدايد البلا ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويساق الى عرصات القيامة ، فيرى سماء مشققة ، وارضاً مبدلة ، وجبالاً مسيرة ، ونجوماً منكسرة ، وشمساً منكسفة ، وجحياً مسعرة ، وجنة مزينية ، وموازين منصوبة ، وصحائف منشورة ، فاذا هو في معرض المؤاخذة والحساب وعليه ملائكة غلاظ شداد ، فيعطى كتابه اما بيمينه أو شماله ، فيرى فيه جميع اعماله وافعاله من قليل وكثير وتقيير وقطمير ، فان غلبت سيئاته على حسناته وكان مستحقاً للعذاب والنار تمنى ان يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يلتقى عقاباً ولا عذاباً ، ولا ريب في ان الكلب والخنزير احسن واطيب ممن عصى ربه القهار ويعذب في النار إذا ولها وآخرهما التراب وهو بمعزل عن العقاب والعذاب ، والكلب والخنزير لا يهرب منهما الخلق ، ولو رأى اهل الدنيا من يعذب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ، ولو وجدوا ريحه لما توا من ننته ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقام في بحار الدنيا صارت اتن من الجيفة المنتنة .

فما لمن هذه حاله والعجب واستعظام نفسه وما أغفله من التدبر في أحوال يومه وأمه ، ولو لم يدركه العذاب ولم يؤمر به الى النار فأنما ذلك للعفو ، لأنه ما من عبد إلا وقد اذنب ذنباً وكل من اذنب ذنباً استحق عقوبة ، فلو لم يعاقب فأنما ذلك للعفو ، ولا ريب في أن العفو ليس يقيناً بل هو مشكوك فيه ،

فمن استحق عقوبة ولا يدري أيغنى عنها أم لا يجب ان يكون ابداً محزوناً خائفاً ذليلاً ، فكيف يستعظم نفسه ويلحقه العجب ، ألا ترى أنت من جنى على بعض الملوك بما استحق به ألف سوط مثلاً ، فأخذ وحبس في السجن ، وهو منتظر أن يخرج الى العرض وتقام عليه العقوبة على ملاء من الخلق ، وليس يدري أيغنى عنه أم لا ، كيف يكون ذلّه في السجن ، أفترى أنه مع هذه الحالة يكون معجباً بنفسه ، ولا أظنك أن تظن ذلك ، فما من عبد مذنب ولو اذنب ذنباً واحداً إلا وقد استحق عقوبة من الله والدنيا سجنه ، ولا يدري كيف يكون أمره ، فيكفيه ذلك خوفاً ومهانة وذلة فلا يجوز له ان يعجب ويستعظم نفسه .

* * *

هذا هو العلاج الاجمالي للعجب .

واما التفصيلي فهو أن يقطع اسبابه أعني ما به العجب ؛ وهي العلم والمعرفة والعبادة والطاعة ، وغير ذلك من الكمالات النفسية ، كالورع والشجاعة والسخاوة والنسب والحسب والجمال والمال والقوة والبطش والجاه والاقتدار وكثرة الأعوان والانصار والكمياسة والتفطن لدقائق الأمور والرأي الخطأ .

اما العجب (بالعلم) فعلاجه أن يعلم ان العالم الحقيقي هو الذي يعرف نفسه وخطر الخاتمة وأن من تليق به العظمة والعزة والكبرياء هو الله سبحانه ، وما عداها هالك الهوية والذات فاقد الكمال والصفات . وهذا العلم يزيد الخوف والذلة والمهانة والمسكنة والاعتراف بالقصور والتقصير في أداء حقوق الله والشكر بازاء نعمه ، ولذا قيل : « من ازداد علماً ازداد وجعاً » ، فالعلم الذي لا يوجب ذلك ويورث العجب إما ليس علماً حقيقياً ، بل هو من العلوم الدنيوية التي ينبغي

ان تسمى صناعات لا علوماً ، اذ صاحبه خاض فيه وهو خبيث النفس رديّ
الأخلاق لم يهذب نفسه أولاً ولم يزكها بالمجاهدات ولم يرضها في عبادة ربه ،
فبقي خبيث الجوهر ، فاذا خاض في العلم وإن كان عالماً حقيقياً صادف من قلبه
منزلاً خبيثاً ، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير اثره ، فان العلم مثله مثل الغيث
ينزل من السماء عذباً صافياً ، فاذا شربته الاشجار والنباتات ازداد المرمرارة
والحلو حلاوة ، كذلك العلم اذا صادف القلوب ازداد القلب المظلم الخبيث ظلمة
وخبثاً والطيب الصافي طيباً وصفاء .

واذا علم ذلك يعرف أنه لا ينبغي العجب بالعلم ، ويجب ايضاً ان يعلم أنه اذا اعجب
بنفسه صار ممقوتاً عند الله ، مبعوضاً لديه لما تقدم من الاخبار وقد احب الله منه الذلة
والحقارة عند نفسه . وقال بواسطة سفرائه : « إني لك عندي قدراً ما لم تر
لنفسك قدراً ، فان رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي » (١) وقال :
« صغروا انفسكم ليعظم عندي محلكم » فلا بد ان يكلف نفسه ما يجب مولاه
وأن يعلم ان حجة الله على اهل العلم اوكد ، وانه يتحمل من الجاهل ما لا يتحمل
عشره من العالم ، لأن العالم اذا زلّ زلّ بزله كثير من الناس ولان من عصى
الله عن علم ومعرفة كانت جنايته الفحش ، اذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ،
ولذلك قال رسول الله : « يؤتى بالعالم يوم القيامة فليقى في النار فتندلق أفتابه
فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به اهل النار ، فيقولون مالك ، فيقول
كنت آمر بالخير ولا آتيه وانهي عن الشر وآتيه » ، وقد مثل الله تعالى علماء

(١) هذا الكلام ينسبه مذكور في احياء العلوم ج ٣ ص ٣١٢ ويظهر

منه انه من كلامه هو أو مقتبس من مضمين الأخبار ، لا انه نص حديث ،

وكذا ما بعده وهو قوله : « صغروا . »

« اليهود » بالحمار (١) وبلعلم بن باعوراء بالكلب (٢) لعدم علمهم بما علموه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن اعلم منا » ثم التفت الى أصحابه فقال : « اولئك منكم أيها الأمة اولئك هم وقود النار » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً الى الله فاستجاب له وقبل منه فاطاع الله فادخله الله الجنة وادخل لداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل » وقال روح الله عليه السلام : « ويل لعلماء السوء (٣) كيف تنظي عليهم النار » وقال الصادق عليه السلام : « يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد » .

ولا ريب في أن كل عالم يأمر الناس بالتواضع وذل النفس وانكسارها وينهاهم عن العجب والكبر ، وهو معجب متكبر يكون من علماء السوء ، ومن لم يعمل بعلمه فيكون داخلاً تحت هذه الأخبار . وأي عالم يتصور في أمثال هذه

١ إشارة الى قوله تعالى في سورة الجمعة « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً »
٢ إشارة الى قوله تعالى في سورة الاعراف الآية ١٧٥ : « فمثل كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .

٣ في النسخ المصححة للكافي باب لزوم الحجة على العالم هكذا « للعلماء السوء » بتعريف العلماء ، ونحن رجحنا نسخة جامع السعادات المطبوعة فاثبتناه بلا تعريف ، قال صاحب مجمع البحرين مادة سوء : « تقول هذا رجل سوء بالاضافة ثم تدخل عليه الالف واللام فتقول هذا رجل السوء ولا يقال الرجل السوء كذا قاله الجوهرى »

الآزمنة أن يجزم بأنه عمل بجميع ما علم ، وأمر به ، ولم يضيع شيئاً من أوامر ربه من الجنايات الظاهرة والذنوب الباطنة ، كالرياء والحسد والعجب والنفاق وغير ذلك ، وكيف يمكنه القطع بأنه امتثل ما أمر به من التكليف العامة والخاصة به ، فخطره اعظم من خطر غيره ، كيف وقدروي : « أن حذيفة صلى يقوم فلما سلم قال لتلمسُنَّ إماماً غيري أو لتصلُنَّ وحداناً فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني » فإذا كان مثله لا يسلم ، فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة ، فما أعزَّ على بسيط الأرض في هذه الأعصار علماء الآخرة الذين أقبلوا على شأنهم ، واستوحشوا من أوثق اخوانهم ، وشغلهم عظيم الأمر عن الالتفات إلى الدنيا وزهرتها ، وازعجهم خوف الرحمن عن مضاجعهم في حنادس الليالي وظلماتها ، ولا يشتهون من نعيم الدنيا حاراً ولا بارداً ، وصارت همومهم هماً واحداً ، هيهات ! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم ، فهم أرباب الاقبال وأصحاب الدول ، وقد انقضوا في القرون الأولى ، بل يعزُّ أن يوجد في زماننا هذا عالم لا تكون له استطلاعة وخيلاء ، ولم يكن متكبراً على الفقراء ، ومتواضعاً للأغنياء . فينبغي لكل عالم أن يتفكر في أحواله وأعماله وما أريد منه ، وفي عظم خطره حتى تنكسر نفسه ، ويظهر خوفه وحزنه ، ويبطل كبره وعجبه .

وأما العجب (بالعبادة والطاعة) ، فعلاجه أن يعلم أن الغرض من العبادة هو إظهار الذل والانكسار ، وصيرورتها ملكة للنفس ليحصل له معنى العبودية وحقيقتها ، فالعجب لمنافاته الغرض المقصود منها يبطلها وبعد بطلانها فلا معنى للعجب بها ، وايضاً آفات العبادة الموجبة لحبطها كثيرة ، وكذلك شرائطها وآدابها التي لا يصح بدونها كثيرة ، فيمكن أن يدخلها بعض الآفات ،

أو تفقد عنها بعض الشرائط والآداب ، فلا تكون مقبولة عند الله ، ومع إمكان ردّها وعدم قبولها كيف يعجب العاقل بها ، ومن يمكنه القطع بسلامة طاعاته وعباداته عن جميع الآفات ؟ ومن قطع بذلك فهو في غاية الجهل بحقائق الأمور ، على أن فائدة العبادة إنما هو إذا كان عند الله سعيداً ، ومن جوز أن يكون عند الله شقيماً ، وقد سبق القضاء الإلهي بشقوته . فأي نفع يتصور لعبادته حتى يعجب بها ؟ ولا ريب في أنه لا يخلو عبد عن هذا التجويز ، فما لأحد إلى العجب والتكبر في حال من الأحوال سبيل .

وأما العجب (بالورع والتقوى والصبر والشكر والسخاوة والشجاعة) وغيرها من الفضائل النفسية ، فعلاجه أن يعلم أن هذه الفضائل إنما تكون نافعة ومنجية إذا لم يدخلها العجب ، وإذا دخلها العجب ابطلها وأفسدها ، فما للعاقل أن يرتكب رذيلة تضيع ما له من الفضائل ، وأنى له لا يظهر الذلة والتواضع في نفسه حتى يزيد فضيلة على فضائلها ، ويختم لأجلها الجميع بالخير وتصير عاقبته محمودة وتكون مساعيه مقبولة مشكورة ، وينبغي أن يعلم أن كل واحد من الفضائل التي يثبتها لنفسه موجودة مع الزيادة في كثير من بني نوعه ، وإذا علم اشتراك الناس معه في هذه الفضيلة زال إعجابه بها ، وقد نقل أن واحداً من مشاهير الشجعان إذا قابل خصمه اصفر لونه وارتعدت فرائصه واضطرب قلبه ، فتميل له : ماهذه الحالة وانت أشجع الناس واقواهم ، فقال : أي لم امتحن خصمي فلعله أشجع مني . وإيضاً النصر والغلبة وحسن العاقبة مع الذلة والمسكنة لا مع الإعجاب بالقوة والشجاعة ، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم .

ومن المعالجات النافعة للعجب بكل واحد من الصفات الكمالية أن

يقابل سببه بضده ، اذ علاج كل علة بمقابلة سببها بضده ، ولما كانت علة العجب هو الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة له ، فنقول :

الكمال الذي به يعجب إما أن يكون يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجراه ، أو من حيث أنه نشأ منه وحصل بسببه وقوته وقدرته . فإن كان (الأول) فهو محض الجهل لأن المحل مسخر ، وإنما يجري ما يجري فيه وعليه من جهة غيره ، ولا مدخل له في الابداع والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس له . وإن كان (الثاني) فينبغي أن يتأمل في قدرته وارادته واعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم كماله وعمله أنها من اين كانت له . فإن كان علم أن جميع ذلك نعمة من الله اليه من غير حق سبق له ، فينبغي أن يكون اعجابه بوجود الله تعالى وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه ما لا يستحقه ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة . فإن ظن أنه تعالى وفقه لهذا العمل لا تصافه ببعض الصفات الباطنة الحمودة كحبه له تعالى أو مثله ، فيقال له : الحب والعمل كلاهما نعمتان من عنده ابتداءً بهما من غير استحقاق من جهتك ، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فليكن الاعجاب بوجوده إذ أنعم بوجودك وبوجود صفاتك واعمالك واسباب اعمالك .

فاذن لا معنى لعجب العالم بعلمه ، وعجب العابد بعبادته ، وعجب الشجاع بشجاعته ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغني بماله ، لأن كل ذلك من فضل الله ، وإنما هو محل لفيضان فضل الله وجوده ، والمحل ايضاً من فضله وجوده ، فانه هو الذي خلقك ، وخلق اعضاءك ، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم والارادة ، ولو أردت أن تنفي شيئاً من ذلك لم تقدر عليه . ثم خلق الحركات في اعضاءك مستبداً باختراعها من غير مشاركة لك معه في

الاختراع ، إلا أنه خلقها على ترتيب ، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة ، وفي القلب ارادة ، ولم يخلق العلم ما لم يخلق القلب الذي هو محله ، فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيّل اليك أنك مستقل بإيجاد عملك وقد غلطت ، فان تحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شيء منها اليك .

ومن العجائب أن تعجب بنفسك ، ولا تعجب بمن اليه الأمر كله ، ولا تعجب بجوده وكرمه ، وفضله في إشاره إليك على الفساق من عباده ، إذ مكنتهم من اسباب الشهوات واللذات ، وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ، وهياها لك حتى يتيسر لك الخير من غير وسيلة سابقة منك .

روي: « أن ايوب عليه السلام قال: ﴿ إِلَهِي إِنَّكَ ابْتَلَيْتَنِي بِهَذَا الْبَلَاءِ وَمَا وَدِدْتُ عَلَى أَمْرٍ إِلَّا آتَيْتَ هَوَاكَ عَلَى هَوَايَ ﴾ فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت: يا ايوب أتى لك ذلك ، قال فآخذ رماداً فوضعه على رأسه وقال منك يارب ، فرجع عن نسيانه. وضاف ذلك الى الله تعالى ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (١) ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما منكم من أحد ينجيّه عمله » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال : « ولا أنا إلا ان يتغمدني الله برحمته » (فإن قيل) ما ذكرت من استناد الصفات والأفعال ومحملها جميعاً الى الله تعالى يؤدي الى الجبر ونفي التكليف وبطلان الثواب والعقاب (قلنا) هذا فرع باب مسألة يتعلق بعلم آخر ، ولا يليق بيانها هنا (٢) ونحن لم نسلب القدرة

(١) النور الآية ٢١

(٢) تقدم ذكر هذا الامر ص ١٤٢

والاختيار عن العبد بالسكينة في متعلق التكليف اعني افعاله العرضية ، بل نفينا استقلاله فيها ، نعم في غيرها من المحال والاسباب والصفات اللازمة والتوفيق وتحريك البواعث وصرف الموانع لا قدرة له فيها اصلاً ، ولا يلزم منه فساد .

وأما العجب (بالحسب والنسب) فعلاجه يتم بمعرفة امور :

(الأول) أن يعلم أن التعزز بكمال الغير غاية السفاهة والجهل ، فإنه لو كان خسيساً في صفات ذاته ، فمن أين يجبر خسته كمال غيره ، ولو كان اباه او جده ، بل لو كان الذي يعجب به بالانتساب حياً لكان له ان يقول الفضل لي لا لك وانت دودة خلقت من فضلي ، افتري ان الدودة التي خلقت من فضلة الانسان اشرف من الدودة التي خلقت من فضلة حمار ؟ ! هيهات ! فانهما متساويان في الخسة ، إن الشرف للانسان لا للدودة ، ولذا قال امير المؤمنين عليه السلام :

انا ابن نفسي وكنيتي ادبي من عجم كنت او من العرب
إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان ابي

وقيل :

لئن فخرت بأباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا
وقد روي : « ان ابا ذر قال بحضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لرجل (يا ابن السوداء) فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (يا ابا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل) فاضطجع ابو ذر وقال للرجل قم فطأ على خدي » ، وروي : « أن بلالاً لما أذن يوم الفتح على الكعبة قال جماعة : هذا العبد الأسود يؤذن ، فنزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

وَقَبَائِلَ لَّهُ عَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ « (١) » ،
وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله قد اذهب عنكم عيبة الجاهلية
- أي كبرها - كلكم بنو آدم و آدم من تراب » . وتقل ان واحداً من رؤساء
اليونان افتخر على غلام ، فقال له إن كان منشأ افتخارك أبائك فانتفوق لهم لا لك ،
وإن كان لباسك فالشرافة له دونك ، وإن كان مركوبك فالفضيلة له لا لك ،
فليس لك شيء يصلح للعجب والمفاخرة ، ولذا قال متمم مكارم الأخلاق
صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تأتوني بأنسابكم وأتوني بأعمالكم » .

﴿ الثاني ﴾ أن يعرف نسبه الحقيقي ، فإن أباه القريب نطفة قدرة ،
وجده البعيد تراب ذليل ، وقد عرفه الله نسبه فقال : « وَبَدَأَ خَلْقَ
الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » (٢) ،
والأصل الذي يوطأ بالأقدام أو تغسل منه الأجسام أي رفعة يكون لفرعه .

﴿ الثالث ﴾ أن يعلم أن من يعجب بهم بالانتساب من أسلافه ، إن كانوا
من أهل الديانة والخصال المرضية والشرافة الحقيقية ، فظاهر أنه ما كان من
أخلاقهم العجب بل الذلة والازراء على النفس ومذمتها واستعظام الخلق ، فان
اقدري بهم في أخلاقهم فلا يليق به العجب والتعزز وإلا كان طاعناً في نسبه
بلسان حاله ، وإن لم يكونوا من أهل الديانة الواقعية والشرافة العلمية والعملية
بل كان لهم مجرد شوكة ظاهرية ، كالسلاطين الظالمة وأعوانهم ، فأف لمن
يفتخر بهم ويمجّب بنفسه لأجلهم ، إذ الانتساب الى الكلاب والخنازير أحسن
من الانتساب اليهم ، كيف وأنهم ممقوتون عند الله معذبون في النار بحيث

(١) الحجرات الآية ١٣

(٢) السجدة الآية ٦ - ٧

لو نظر الى صورهم في النار وما لحقهم فيها من التن والقذارة لاستنكف منهم وتبرأ من الانتساب اليهم ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ليدعن قوم الفخر بأبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدوف بأنفهم القدر » وروي أنه افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال احدهما أنا فلان بن فلان حتى عدت تسعة فأوحى الله تعالى الى موسى : « قل للذي افتخر : بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم » .

وأما العجب (بالجمال) فعلاجه أن يعلم أنه في معرض الزوال بالعلل والآلام والأمراض والأسقام ، واي عاقل يعجب بشيء تزيله حتى يوم اوقرة او جدي .

برمال وجمال خويشتن غره مشو

كان را بشي برندواين را به تي (١)

ولو لم يرتفع بها فهل يشك عاقل بزواله بذهاب الشباب ومحيي الشيب وبالموت الذي لا بر ان تذوقه كل نفس ، فانظر الى الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة كيف تمزقت في التراب ، وانتنت في القبور بحيث استقدرتها الطباع ، على انه لو نظر نظر العقلاء في باطنه عند اتصافه بغاية جماله لرأى من الفضائح ما يكدر عليه العجب والتعزبه ، فإنه وكملت اليه (٢) الاقدار في جميع اجزائه : (البصاق) في فيه (والحائط) في انفه (والوسخ) في اذنه (والتنن) تحت ابطه (والصيد) تحت بشرته (والفضلات) في معدته (والرجيع) في

(١) معنى البيت : لا تغتر بمالك وجمالك فان ذاك يذهب بليلة وهذا

بحمي واحدة .

(٢) وفي النسخ : « وكل به » ورجحنا ما ائتمناه .

امعائه (والديدان) في احشائه (والبول) في مثانته (والصفراء) في مرارته .
 يتردد الى الخلاء كل يوم مرتين ، ويغسل الغائط كل يوم بيده مرتين ، يخرج
 من بطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً ان يمسه او يشمه ، وفي اول امره خلق
 من الاقذار الشنيعة الصور من النطفة ودم الحيض ، وخرج من مجاري الاقذار ، اعني
 الصلب والذكر والرحم والفرج ، ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعبه بالغسل
 والتنظيف لثارت منه الانتان والاقذار ، وصار اقذر وانتن من الدواب المهمة .
 هذا اوله ووسطه ، وسيموت فيصير جيفة اقذر من سائر الاقذار ، فما للعاقل ان
 يعجب ويتعزز بهيئة حاصلة لبدن هذه حقيقة .

واما العجب (بالمال) فهو عجب بأمر خارج عن ذات الانسان ، فهو
 اقبح انواع العجب . وعلاجه ان يتفكر في آفات المال ، وكونه في معرض الفناء
 والزوال من الغضب والنهب والحرق والفرق وغير ذلك من الآفات السماوية
 والارضية ، ويتذكر ان في اليهود والهندو من يزيد عليه في المال ، واف لشرف
 يسبقه اليهود والهندو ، واف لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلاً
 مفلساً . ويتذكر ما ورد في ذم المال وحقارة الاغنياء وفي فضيلة الفقر وشرافة
 الفقراء ، وسبقهم الى الجنة في القيامة ، وما ورد في عقوبة الممجب بالمال بخصوصه ،
 كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « بينما رجل يتبختر في حلة له قد اعجبته نفسه
 اذ امر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة » (١) أشار به الى
 عقوبة اعجابه بماله ونفسه ، وكيف يتصور المؤمن العاقل أن يعجب بالمال ويفرح
 به ، مع كثرة حقوقه وعظم غوائله وايجابه المؤاخنة وطول المحاسبة في القيامة ،
 والعقوبة والنكال إن كان حراماً ، وانحطاط المرتبة والدرجة إن كان حلالاً ،

(١) هذا الحديث صحيحناه على ما في احياء العلوم ج ٣ ص ٣٢٢

بل ينبغي له ألاّ يخلو ساعة عن الخوف من تقصيره في القيام بحقوقه وأخذ من حله ووضع في حقه .

وأما العجب ﴿ بالقوة وشدة البطش ﴾ فعلاجه أن يتذكر ما سلط عليه من العلل والأمراض وأن حتى يوم تضعف قوته ويتحلل منها ما لا ينبغي في مدة وأنه لو وجع عرق واحد من بدنه صار اعجز من كل عاجز واذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه ، وأن بقّة لو دخلت في انفه أو نملّة دخلت في أذنه لقتلته ، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته . ثم أقوى انسان لا يكون أقوى من حمار أو جمل أو فيل أو بقر ، وأي عجب وافتخار في صفة يسبقه البهايم فيها ، هذا مع أن الغالب أن من يعجب بقوته يسلبها الله تعالى عنه بأدنى آفة يسلطها عليه .

وأما العجب (بالجاه والمنصب وولاية السلاطين وكثرة الاتباع والأناصار من الأولاد والأقارب والقبائل والعشائر والخدم والغلمان) ، فعلاجه أن يعلم أن كل ذلك في معرض الانقطاع ، وعن قريب يقع بينه وبينها المفارقة إما بفنائها وموتها أو بفنائها وهلاكها ، بل العاقل يجدها كسراب بقيعة ، وإنما هي خيالات تُظن شيئاً وليست بشيء ، وستفترق عنه إذا مات ودفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده ، لا يرافقه أهل وأولاد ولا أعوان وأتباع فيسلمونه الى البلاء والى العقارب والحيات والديدان ، ولا يغنون عنه شيئاً ، وهو في احوج اوقاته اليهم ، وكيف يعجب العاقل بمن يفارقه في أشد أحواله ، على أنهم في الدنيا يتبعونه ما دام يحصل منه ما يشتهونه من البذل والاعطاء ، فلا بدّ له من ايقاع نفسه في المهالك وترضه لسخط الله وعقوبته لتحصيل الأموال من الوجوه المحرمة وصرفها اليهم ، ليستمروا على متابعتهم واعانتهم ولو نقص شيء مما يطمنون

تعرضوا لمقتته وعداوته ، فصلا عن بقائهم على حمايته وإطاعته . ثم المعجب
بتمكين السلطان وولايته بناء أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر اذ لو تغير
عليه كان أذل الخلق .

وأما العجب (بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور) ، فعلاجه أن يعلم
أن ذلك يزول عنه بادنى مرض يصيب دماغه ، وربما زال عقله دفعة ، مع أنه
إن كان في الواقع فطناً كياساً في الأمور يلزم عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك
ويستغفر (١) عقله وفطنته ، ليسبقني الله تعالى عليه تلك النعمة ولا يسلبها عنه
لأجل عجه .

وأما العجب (بالرأي الخطأ الذي يزين له بحيلة) ، فهو أقبح أنواع العجب
إذ جميع أهل البدع والضلال والفرق الذين اختاروا مذاهب باطلة وآراء فاسدة
إنما أصروا عليها لعجبهم بها ، ولذا يفتخرون بمذاهبهم على غيرهم وبذلك
هلكت الأمم إذا افترقت فرقا ، وكل معجب برأيه ، « وَكُلُّ حُزْبٍ بِمَا
لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (٢) فكل من استحسن ما يسوقه اليه الهوى والشبهة مع ظن
كونه حقاً يكون له هذا العجب ، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :
أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة . وعلاجه أشد من علاج غيره ، لأن
صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطأه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذي
لا يعرف ، إذ العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه اذا لم يكن
معجباً برأيه وجهله ، واذا كان معجباً به يتهمة ولا يصغي اليه حتى يعالجه ، فقد
سلطت عليه بلية تهلكه وهو يظن أنها نعمة ، وكيف يطلب الهرب مما يعتقد

(١) في النسخ : « يستغفر » فرجعنا ما ائتمناه .

(٢) المؤمنون الآية ٥٥

أنه سبب سعادته ، وإعما علاجه في الجملة أن يكون متبها لرأيه لا يعتر به ، إلا أن يشهد له قاطع عقلي أو نقلي لا يعتره ريب وشبهة . ومعرفة ادلة الشرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها موقوفة على عقل ثابت وقريحة تامة مستقيمة مع جدّ وتشير في الطلب وممارسة الكتاب والسنة وبجالة اهل العلم ومدارسة العلوم طول العمر ، ومع ذلك لا يؤمن عليه الغلط ، فالصواب لكل - إلا من أيده الله بقوة قدسية يتمم كن بها من الخوض في غمرات العلوم - ألا يخوض في المذاهب الباطلة ولا يصغي اليها ، ويتبع اهل الوحي في ما جاءوا به من عند الله في الاصول والفروع .

وصل

انكسار النفس

ضدّ العجب انكسار النفس واستحقارها وكونها في نظره ذليلة مهينة ، وكما ان العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار استصغار الغير معه ، فكندا ضده مجرد استحقار النفس من دون اشتراط اعظام الغير معه ، إذ الأول مع اعتبار الثاني تكبر والثالث مع اشتراط الرابع تواضع ، وهما ضدان .

ثم لا ريب في فوائد انكسار النفس واستصغارها ، وكل من بلغ مرتبة عظيمة فأما بلغ بهذه الصفة ، لان الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة) (١)

(١) الحكمة بالتحريك : ما احاط بحنكي الفرس من لجامه .

يسكبها فان هو رفع نفسه جَبَدَاها (١) ثم قالَا : اللهم ضعه، وإن وضع نفسه قالَا :
 اللهم ارفعه » (٢) وروي أنه أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام : « ان
 يا موسى أتدري لمَ اصطفيتك بكلامي دون خلقي ، قال يارب ولم ذلك ، فأوحى
 الله تبارك وتعالى اليه إني قلبت عبادي ظهراً لبطن فلم أجِد فيهم أحداً أذل نفساً
 لي منك ، يا موسى إنك اذا صليت وضعت خدك على التراب » وروي : « أنه
 لما أوحى الله تعالى الى الجبال إني واضع سفينة نوح عبيدي على جبل منكناً ،
 فتناولت وشمخت وتواضع الجودي وهو جبل عندكم ، فضربت السفينة بجؤجؤها
 الجبل ، فقال نوح عند ذلك : (يا ماري اتقن) وهو بالسريانية رب اصلح » (٣)
 (ومنها) :

الكبر

وقد عرفت أنه الركون الى رؤية النفس فوق الغير، وبعبارة أوضح هو
 عزة وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير واعتقاد المزية والرجحان عليه ، فيؤ
 يستدعى متكبراً عليه ، وبه ينفصل عن العجب ، اذ العجب مجرد استعظام
 النفس من دون اعتبار رؤيتها فوق الغير ، فالعجب سبب الكبر والكبر
 من نتائجه .

ثم الكبر - أي العزة الموجبة لرؤية النفس فوق الغير - هو خلق في

(١) بمعنى جذباها .

(٢) صححنا الحديث على ما في احياء العلوم ج ٢ ص ٣٢٩

(٣) هذا الحديث وما قبله رواهما الكافي في باب التواضع
 فصححناهما عليه .

الباطن يقتضي اعمالا في الظاهر هي ثمراته ، وتسمى تلك الاعمال الظاهرة الصادرة منه تكبرا ، ولذا من تعزز ورأى نفسه باطنا فوق الغير من دون صدور فعل على جوارحه ، يقال له (كبر) ، واذا ظهرت الاعمال يقال له (تكبر) . وهذه الاعمال الظاهرة التي هي ثمرات خلق الكبر أفعال وأقوال توجب تحقير الغير والازراء به ، كالترفع عن مواكلته ومجالسته ، والاستنكاف عن مرافقته ومصاحبته ، وابعاده عن نفسه ، وإيائه عن الجلوس بجانبه ، وانتظاره ان يسلم عليه ، وتوقعه أن يقوم ماثلا بين يديه ، والاستنكاف من قبول وعظه ، وتعنيفه في ارشاده ونصحه ، وتقديمه عليه في المحافل والطرق ، وعدم الالتفات اليه في المحاورات ، وتوقع التقديم عليه في كل ما يدل على التعظيم عرفا . وبالجمله الأعمال الصادرة عن الكبر كثيرة ، ولا حاجة الى احصائها لكونها مشهورة ومعروفة ، ومن جملتها الاختيال في المشي وجر الثياب ، إذ فاعلها يرى نفسه فوق الأكره ويقصد بهما استحقاقهم ، فهما يقتضيان متكبرا عليه ، فيكونان من انواع التكبر ، وما ورد في ذمهما يدل أيضا على ذمه كما يأتي . وهذه الأفعال المعبر عنها بالتكبر قد تصدر عن الحقد أو الحسد أو الرياء ، وإن لم تكن في النفس عزة وتعظيم .

فصل

ذم الكبر

الكبر آفته عظيمة وغائلته هائلة ، وبه هلك خواص الانام فضلا عن غيرهم من العوام ، وهو الحجاب الأعظم للوصول الى أخلاق المؤمنين ، إذ فيه

عزّ يمنع عن التواضع وكظم الغيظ وقبول النصيح والدوام على الصدق وترك الغضب والحقد والحسد والغيبة والازراء بالناس وغير ذلك ، فما من خُلُق مذموم إلا وصاحب الكبر مضطر إليه ، ليحفظ به عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من فوات عزه ، ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والأخبار ، قال الله سبحانه : « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » (١) وقال : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ » (٢) وقال : « وَالْمَلَأْنَا نُحُكَةً بِأَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ إِلَى قَوْلِهِ « وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » (٣) وقال « ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ » (٤) وقال « فَأَلْذِنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » (٥) وقال « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (٦) وقال « إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ » (٧) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » (٨)

(١) المؤمن الآية ٣٧

(٢) الاعراف الآية ١٤٣

(٣) الانعام الآية ٩٣

(٤) الزمر الآية ٧٢

(٥) النحل الآية ٢٣

(٦) المؤمن الآية ٦٢

(٧) المؤمن الآية ٥٨

(٨) روي الحديث في الكافي عن أحد الصادقين عليها السلام في باب الكبر

وجاء فيه هكذا : « الكبر » . بتمريف كبر

وقال : « من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا ينظر الله الى رجل يجرّ ازاره بطرا » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « قال الله : الكبرياء رداي والعظمة ازاري فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في جهنم » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « يخرج من النار عنق له اذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول وكنت بثلاثة : بكل جبار عنيد وبكل من دعاه الله إلهاً آخر وبالمصورين » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيئ الملكة » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان وملك جبار ومقل مختال » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « بثس العبد عبد تجبر واعتمد ونسي الجبار الأعلى ، بثس العبد عبد تبختر واختال ونسي الكبير المتعال ، بثس العبد عبد غفل وسها ونسي المتأبر والبلى ، بثس العبد عبد عتا وبغى ونسي المبدأ والمنتهى » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أخبركم باهل النار كل عتل جواظ جعظري متكبر » (١) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا في الآخرة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون أي المتكبرون » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطأهم الناس ذراً في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار ثم

(١) صحيحنا الحديث على كنز العمال ج ٢ ص ١٠٧ . والجواظ :

المتكبر الجافي والجعظري : اللفظ الغليظ .

يساقون الى سجن في جهنم يقال له (يولس) تعلوهم نار شر أنيار (١) يسقون من طينة الخبال وعصارة أهل النار » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى » وقال : « إن في جهنم وادياً يقال له ههب حق على الله ان يسكنه كل جبار » وقال : « إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » وقال : « إذا مشيت امتي المطيطاء وخدمتهم (فارس) و (الروم) سلط الله بعضهم على بعض » ، والمطيطاء : مشية فيها اختيال ، وقال عيسى بن مريم : « كما أن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفاء كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر ألا ترون أنه من يتشمخ برأسه الى السقف شجوه ومن يطأطئ أظله وأكنه » ولما حضرت نوحا الوفاة دعا ابنه فقال : « إني آمر كما باثنتين وانها كما عن اثنتين انها كما عن الشرك والكبر وأمر كما بلا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده » وقال سليمان بن داود يوما للطير والجن والانس والبهائم : اخرجوا ، فخرجوا في مائتي ألف من الانس ومائتي ألف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ، ثم خفض حتى مست اقدامه البحر ، فسمع صوتا يقول لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعت .

وقال الباقر عليه السلام : « الكبر رداء الله والمتكبر ينازع الله رداءه » وقال : « العز رداء الله والكبر إزاره فمن تناول شيئاً منه أكبه

(١) كذا في النسخ وفي نسخة احياء العلوم ج ٢ ص ٢٩٠ :

« نار الأنيار » ولم نعثر على جمع نار على أنيار وانما من جملة جموعها « نيار » .

الله في جهنم» وقال الصادق عليه السلام : « إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له سقر شكى الى الله شدة حرة وسأله أن يأذن له أن يتنفس فتتنفس فأحرق جهنم » وقال عليه السلام : « إن المتكبرين يُجعلون في صور الذر يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب » وقال عليه السلام : « ما من رجل تكبر أو نجبر إلا لذلة وجدها في نفسه » وقال عليه السلام : « إن في السماء ملائكة موكلين بالعباد فمن تواضع رفعاه ومن تكبر وضعاه » وقال عليه السلام : « الجبار الملعون من غمض الناس وجهه الحق » قال الراوي أما الحق فلا اجتهله والغمض لا ادري ما هو ، قال : « من حقّر الناس وتجبّر عليهم فذلك الجبار » وقال عليه السلام : « ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة ومالك بمسكها فاذا تكبر قال له اتضع وضعك الله ، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس وإذا تواضع رفعها الله عز وجل ثم قال له انتعش نعشك الله فلا يزال أصغر الناس في نفسه وارفع الناس في أعين الناس » .

فصل

التكبر على الله وعلى الناس

التكبر قد يكون على الله كما كان لفرود وفرعون ، وسببه الطغيان ومحض الجهل ، وهو أفحش انواع الكبر ، إذ هو أعظم افراد الكفر ولذا تكررت في ذمه الآيات ، كقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (١) وقوله : « وَمَنْ

يَسْتَنْكِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً» (١) وقوله تعالى : « ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ عَنْ مَنْ كُلٍّ شِيعَةً أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً » (٢) وقوله : « فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » (٣) .

وقد يكون على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن انقيادهم ، كما كان لمن يقول : « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » (٤) ولمن يقول : « أنؤمن لبشر ين مثلنا » (٥) « إن أنتم إلا بشر مثلنا » (٦) « ولئن أطعتم بشراً مثلكم لئن كنتم إنا فإنا لخاسرون » (٧) ولمن قال : « لو لا أنزل علينا آيات ركة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً » (٨) وهذا في الشناعة قريب من التكبر على الله وإن كان دونه .

وقد يكون على العباد بأن يستعظم نفسه ويستصغرهم وهذا وإن كان دون الأولين ، إلا أنه من المهلكات العظيمة من حيث أنه يؤدي الى مخالفة

(١) النساء الآية ١٧١

(٢) مريم الآية ٧٦

(٣) النحل الآية ٢٣

(٤) الانعام الآية ٥٣

(٥) المؤمنون الآية ٤٩

(٦) ابراهيم الآية ١٢٧

(٧) المؤمنون الآية ٣٩

(٨) الفرقان الآية ٢٣

الله سبحانه إذ صاحبه إذا سمع الحق من عبد استنكف من قبوله واشتأز بمجده ،
ومن حيث أن العز والعظمة والعلی لا يليق إلا بالعلی الأعلى فهما تكبر العبد
نازع الله في صفة من صفاته ولذا قال الله سبحانه : والعظمة ازارى والكبرياء
ردائي فمن نازعني فيهما قصمته .

فصل

درجات الكبر

لكبر درجات ثلاث :

(الاولى) أن يكون مستقراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره ، ويظهره
في افعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الاقران وأن يصغر خده للناس كأنه
معرض عنهم ويمس وجهه ويتطب جبينه - وفي اقواله باظهار الانكار على من
يقصر في ما يتوقعه من التعظيم وابداء الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس
والتشهير لغلبة الغير في العلم والعمل . وهذه الدرجة أقبح الدرجات واشدها ،
إذ صاحبها قد رسخت في قلبه شجرة الكبر وارتفعت اغصانها وفروعها بحيث
احاطت على جميع جوارحه .

(الثانية) كالاولى إلا في إظهاره على اللسان وهي دون الاولى لكونها
أقل اغصاناً منها .

(الثالثة) أن يكون مستقراً في قلبه بحيث رأى نفسه خيراً من غيره ،
إلا أنه يجتهد في التواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه . وهذا وإن رسخت
في قلبه شجرة الكبر إلا أنه قطع اغصانها بالكلية ، فإن كان مع ذلك منكراً
على نفسه فيما رسخ فيها ومغضباً عليها ومتشمرّاً لازالتها ، إلا أنه لم يقدر على دفعه

بسرعة ومهولة ، وتميل النفس الى ما تشبهه في بعض الأحيان بدون اختيار ، ولكنه كان في مقام المجاهدة ، فاعلمه لم يكن عليه كثير إثم ، ومثله يوفقه الله للوصول الى ما يطلبه بمقتضى وعده .

فصل

علاج الكبر علماً وعملاً

الكبر كالعجب في كيفية العلاج اجمالاً وتفصيلاً ، إذ الكبر لما تضمن معنى العجب أي استعظام النفس ، وكانت العجب منشأ له ، فما ذكر لعلاج مطلق العجب هو العلاج لمطلق الكبر ايضاً ، ولكون ما به الكبر اعني بواعثه هي بواعث العجب بعينها ، فما ذكر لعلاج العجب بالبواعث المذكورة مشترك بينهما .

ومن المعالجات المختصة بالكبر أن يتذكر ما ورد في ذمّه من الآيات والأخبار المذكورة وغيرها ويتأمل في ما ورد في مدح ضده اعني التواضع كما يأتي ، والكون الكبر مشتملاً على شيء زائد على العجب هو رؤية النفس فوق الغير ، فينبغي أن يعلم أن الحكم بخيرية نفسه من الغير غاية الجهل والسفاهة فلعل في الغير من خفايا الأخلاق الكريمة ما ينجيّه وفيه من الملكات الذميمة ما يهلكه ويرديه ، وكيف يجترئ صاحب البصيرة أن يرجّح نفسه على الغير مع ابهام الخاتمة وخفاء الأخلاق الباطنة واشتراك الكل في الانتساب الى الله تعالى وفي صدورهم وترشحها منه ومعلوليتها ولازميتها له ، فالواقف بخطرات الخاتمة واناطة النجاة والهلاك بالبواطن لا يرى لنفسه فخرية على غيره ، والعارف يكون كل فرد من افراد

الموجودات أثراً من آثار ذاته ولمعة من لمعات انوار صفاته ، بل رشحة من رشحات فضله وجوده وقطرة من قطرات تيار فيض وجوده ، لا ينظر الى أحد بنظر السوء والعداوة بل يشاهد الكل بعين الخيرية والمحبة .

اشكال ومل

﴿ فإِنْ قِيلَ ﴾ : كيف يحسن أن يتواضع العالم الورع للجاهل الفاسق ويراه خيراً من نفسه مع ظهور جهله وفسقه وقطعه باتصاف نفسه بالعلم والورع وخلوه عنهما ، وكيف يجوز له أن يحب فاسقاً أو كافراً أو مبتدعاً ويتواضع له ولا يعاديه ، مع أنه مبغوض عند الله فيكون مأموراً ببغضه ، والجمع بين الحب والتواضع وبين البغض جمع بين النقيضين .

﴿ اجنبنا ﴾ عن (الأول) بأن حقيقة التواضع ألا يرى النفس لذاتها مزية واقعية وخيرية حقيقية على الغير ، لا ألا يرى مزية لذاتها عليه في الصفات الظاهرة التي يجزم باتصاف نفسه بها وعدم اتصافه بها كالعلم والعبادة والسخاوة والعدالة والاجتناب عن الأموال المحرمة وغير ذلك ، إذ العالم ببعض العلوم لا يمكنه أن يدفع عن نفسه القطع بكونه عالماً بها وكون فلان العامي غير عالم بها ، لكن المزية الواقعية والخيرية النفس الأمرية إنما هو بالتقرب الى الله والوصول الى السعادة الدائمة ، ولا شك في أن ذلك لا يحصل بمجرد تعلم بعض العلوم والمواظبة على بعض العبادات أو غير ذلك من الصفات الحمودة ، بل المناط فيه حسن الخاتمة وهو أمر مبهم ، إذ العواقب مطوية عن العباد ، فيمكن أن يسلم الكافر ويختتم له بالايمن ويضل هذا العالم الورع ويختتم له بالكفر ،

فعلى كل عبد إن رأى من هو شراً منه ظاهراً أن يقول لعل هذا ينجو وأهلك أنا، فلا يراه شراً من نفسه في الواقع خائفاً من العاقبة ، ويقول لعل برّ هذا باطن بأن يكون فيه خلق كريم بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال ، ويرى ظاهراً لا آمن أن تدخله الآفات فتحبطه . وبالجملة ملاحظة الخاتمة والسابقة والعلم بأن الكمال في القرب من الله وسعادة الآخرة دون ما يظهر في الدنيا من الأعمال الظاهرة يوجب في الكبر والتواضع لكل أحد .

وعن (الثاني) إن الحب ينبغي أن يكون لأجل النسبة الشريفة المذكورة والتواضع لأجل ملاحظة الخاتمة ، وبغضه وبغضبه عليه لأجل ما ظهر منه من الكفر والفسوق، وأي منافاة بين الغضب لله في صدور معصية من عبد وبين عدم الكبر والاذلال ، إذ الغضب إنما هو لله لا لنفسك ، إذ أمرك بأن تغضب عند مشاهدة المنكر ، والتواضع وعدم الكبر إنما هو بالنظر الى نفسك بالأمر ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً في حال غضبك عليه لأمر الله ، بل يكون خوفك على نفسك مما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، فليس من ضرورة الغضب والبغض لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره .

ومثال ذلك أن يكون لملك غلام وولد وقد وكل الملك الغلام على ولده بأن يراقبه ويضربه مهما ساء أدبه ، ويغضب عليه إذا اشتغل بما لا يليق به ، فإن كان الغلام مطيعاً محبباً لمولاه يغضب عليه إذا ساء أدبه امتثالاً لأمر مولاه ، ومع ذلك يحبه لا تتساه به الى مولاه بالولادة ولا يتكبر عاياه ويتواضع له ويرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعزّ لا محالة من الغلام .

تنبيه

العلاج العملي للكبر

ما ذكرناه لعلاج الكبر إنما هو العلاج العلمي ، وأما (العلاج العملي) فهو أن يتواضع بالفعل لله ولسائر الخلق ويواظب على اخلاق المتواضعين ، ويكلف نفسه على ذلك الى أن تقطع عن قلبه شجرة الكبر باصولها وفروعها ويصير التواضع ملكة له . وللقطع الكلي وحصول ملكة التواضع امتحانات يعرفان بها فلا بد أن يمتحن نفسه بها حتى يطمئن بأنه متواضع ، إذ النفس قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر ، فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبيعتها ونسيت وعدها :

(الاول) أن يناظر مع أقرانه في بعض المسائل فاذا ظهر شيء من الحق على لسانهم فإن اعترف به مع السرور والاهتزاز والشكر لهم لتنبيههم إياه على ما غفل عنه فهو علامة التواضع ، وإن ثقل عليه القبول والاعتراف ولم يسر بظهور الحق على لسانهم فهو دليل بقاء الكبر بعد ، فليعالجه من حيث العلم بأن يتذكر سوء عاقبته وخسة نفسه وخبائثها ، من حيث إن قبول الحق يثقل عليها ، ومن حيث العمل بأن يكلف نفسه على ما يثقل عليها من الاعتراف بالحق وإطلاق اللسان بالثناء والشكر ، والاقرار على نفسه بالعجز والقصور ، ويقول ما أحسن فطانتك لقد أرشدتني الى الحق ، فجزاك الله خيراً ، فاذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ، وإن لم يثقل عليه في الخلوة وثقل عليه في الملاء ، فليس فيه

كبر ، بل فيه رياء فليعالج بما يأتي في معالجة الرياء .

(الثاني) أن يقدم الأقران والامثال على نفسه في المحافل ويمشي خلفهم في الطرق ، فإن لم يثقل ذلك عليه فيؤتواضع ، وإلا فتكبر ، فليقدمهم بالتكاتف ويجلس تحتهم ويظهر السرور والارتياح بذلك حتى يسقط عنه ثقله ، قال ابو عبد الله الصادق عليه السلام : « ان من التواضع أن يجلس الرجل دون شرفه » وقال عليه السلام : « من التواضع أن ترضى بالجلوس دون المجلس وأن تسلم على من تلقى وأن تترك المراء وان كنت محققاً ولا تحب أن تحمد على التقوى . ومن المتكبرين من اذا لم يجد مكاناً في الصدر يجلس في صف النعال او يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل ولا يجلس تحتهم ، وغرضهم من ذلك استحقار الأقران أو إيهام ان تركهم للصداق انما هو بالفضل فهو اشد انواع التكبر .

(الثالث) أن يجيب دعوة الفقير ويمر الى السوق في حاجة الرفقاء والاقارب ، ويحمل حاجتهم وحاجة نفسه منه الى البيت ، فإن لم يثقل عليه ذلك في الخلوة والملا فليس فيه كبر ورياء ، وان ثقل عليه فيهما ففيه كبر ورياء ، وان ثقل عليه عند مشاهدة الناس دون الخلوة ففيه رياء دون الكبر ، قال امير المؤمنين عليه السلام : « لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء الى عياله » ، وروي أنه اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته ، فقال له بعضهم احمل عنك يا امير المؤمنين فقال : « لا ! ابو العيال أحق أن يحمل » وروي أن الصادق عليه السلام نظر الى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله ، فلما رآه الرجل استحي منه ، فقال له ابو عبد الله عليه السلام : « اشتريته لعيالك وحملته اليهم اما والله لو لا اهل المدينة لأحببت ان اشترى

لعيالي الشيء ثم أحمله إليهم » .

(الرابع) أن يلبس ثياباً بذلة فإن لم يثقل عليه ذلك أصلاً فليس فيه كبر ورياء وإلا كان متكبراً أو مرأئياً ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما أنا عبد آكل في الأرض وألبس الصوف وأعقل البعير وألحق أصابعي واجيب دعوة المملوك فمن رغب عن سنتي فليس مني » ، وقيل لاسلمان . لم لا تلبس ثوباً جديداً ، فقال : « إنما أنا عبد فإذا اعتقت يوماً لبست جديداً » أشار به إلى العتق في الآخرة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « البذاذة - أي الدون من اللباس - من الإيمان » ، وعوتب أمير المؤمنين عليه السلام في أزار مرقوع فقال : « يقتدي به المؤمن وتخشع له القلوب » .

(الخامس) أن يأكل مع خدامه وغلماؤه فإن لم يثقل عليه فهو متواضع وإلا فتكبر ، وروى رجل من أهل بلخ ، قال كنت مع الرضا عليه السلام في سفره إلى خراسان فدعا يوماً بمائدة فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم ، فقلت جعلت فداك لو عزلت هؤلاء مائدة ، فقال عليه السلام : « إن الرب تعالى واحد والدين واحد والام واحدة والآب واحد والجزاء بالأعمال » . والامتحانات لبقاء الكبر ليست منحصرة بما ذكر ، بل هي كثيرة : كأن يحب قيام الناس له أو بين يديه ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فليُنظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام » ، وقال بعض الصحابة : « لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك » .

وأن يحب أن يمشي خلفه غيره ، وقد روي : « أنه لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشي خلفه » ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم .

وإذا يزور غيره وإن كان في زيارته فائدة دينية ، وإن يستنكف من مجالسة الفقراء والمعلولين والمرضى ، روي أنه دخل على رسول الله رجل وعليه جدري قد تقشر وعنده ناس من أصحابه يأكلون فما جلس عند أحد إلا قام من جنبه ، فاجلسه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى جنبه . وكان صلى الله عليه وآله وسلم في نفر من أصحابه يأكلون في بيته إذ دخل عليهم رجل به زمانة تنكره الناس لأجلها ، فاجلسه رسول الله على فخذه وقال له : (اطعم) وكأن رجلاً من قريش اشتمأز منه وتكره ، فقامت ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها . ومرّ سيد الساجدين عليه السلام على المجذومين (١) وهو راكب حماره وهم يتغدون فدعوه إلى الغداء فقال : « أما أني لولا أني صائم لفعلت » ، فلما صار إلى منزله أمر بطعام فصنع ، وأمر أن يتنوّقوا فيه ، ثم دعاهم فتغدوا عنده وتغدى معهم . وقس على هذه غيرها من الامتحانات .

ولقد كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جامعة لجميع ما يمتحن به التواضع ، بريئة عن جميع ما يصدر من الكبر من الأفعال والحركات ، فينبغي لكل مؤمن أن يقتدي به ، وقد روى أبو سعيد الخدري : « أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقم البيت ، ويحلب الشاة ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، يأكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا

(١) وفي بعض نسخ الكافي المصححة في باب التواضع هكذا :

« المجذومين » .

أعبي ، وبشترى الشيء من السوق ، ولا يمنع الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه وينقلب الى أهله . يصافح الغني والفقير والصغير والكبير ، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة . ليست له حلة لمدخله ولا حلة لمخرجه . لا يستحي من أن يجيب إذا دعي ، وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر ما دُعي إليه ، وإن لم يجد إلا حشف الرِّقْل (١) لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء ، هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المباشرة طلق الوجه . بساماً من غير ضحك . محزوناً من غير عبوس . شديداً في غير عنف . متواضعاً في غير منة . جواداً من غير سرف . رحباً لكل ذي قربى . قريباً من كل ذي مسلم . رقيق القلب دائم الاطراق ، لم يسم قط من شبع ولا يمد يده الى طمع « هذا وقال ابو الحسن عليه السلام : « التواضع أن تعطي الناس ماتحب أن تعطاه » ، وسئل عن حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً قتال : « التواضع درجات ، منها أن يعرف المرء قدر نفسه ، فيزله منزلتها بقلب سليم لا يجب أن يأتي الى أحد إلا مثل ما يؤتى اليه إن رأى سيئة درأها بالحسنة كاذم الغيظ عاف عن الناس والله يحب المحسنين »

(١) في احياء العلوم ج ٣ ص ٣٠٦ هكذا : « الدقل » وكل من

المسخطين يصح به المعنى .

وصل

التواضع ومدحه

قد أشير الى ان ضد الكبر (التواضع) ، وهو انكسار للنفس بمنعها من ان يرى لذاتها مزية على الغير ، وتلزمه افعال وأقوال منوجبة لاستعظام الغير واكرامه ، والمواظبة عليها اقوى معالجة لازالة الكبر ، ولا بد من الاشارة الى الاخبار الواردة في مدح التواضع وفوائده تحريكا للطالبين الى السعي في تحصيله الموجب لازالة ضده ، وهذه الاخبار كثيرة خارجة عن حداثا احصاء ، فنكتفي بايراد بعض منها ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ، وانفق مالا جمعه من غير معصية ، ورحم أهل الذلة والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة » ، وروي : « أن الله سبحانه أوحى الى موسى : انما اقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقي وألزم قلبه خوفاً وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاصحابه : « مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة » ، قالوا : وما حلاوة العبادة ، قال : « التواضع » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اذا هدى الله عبداً الاسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أربع لا يعطيهن الله إلا من يحببه : الصمت وهو اول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع ،

والزهد في الدنيا ﴿ وقال صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لاهله يدفع به الكبر عن نفسه ﴾ وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر خفضه الله ومن اقتصد في معيشة رزقه الله ومن بذّر حرمه الله ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله ومن أكثر ذكر الله اظله الله في جنته » وروي : « أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ملك فقال : إن الله تعالى يخيرك أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً أو ملكاً رسولاً فنظر إلى جبرئيل عليه السلام ، واومى بيده أن تواضع ، فقال : عبداً متواضعاً رسولاً ، فقال الرسول ﴿ يعني الملك ﴾ مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً » وقال عيسى بن مريم عليه السلام : « طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة ، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة ، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله » ، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : « يا داود كما أن اقرب الناس إلى الله المتواضعون كذلك ابعد الناس من الله المتكبرون » وروي : « أن سليمان بن داود اذا أصبح تصفح وجوه الاغنياء والاشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ، ويقول مسكين مع مساكين » وروي : « أنه ورد على امير المؤمنين عليه السلام اخوان له مؤمنان أب وابن فقام اليهما واكرهما واجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين ايديهما ، ثم امر بطعام فاحضر فأكل منه ، ثم جاء قنبر بطست وابر يق خشب ومنديل ، وجاء ليصب على يد الرجل ، فوثب امير المؤمنين واخذ الأبريق ليصب على يد الرجل ، فتمرغ الرجل في التراب ، وقال : يا أمير المؤمنين الله يراني وانت تصب

على يدي قال : اقعد واغسل فإن الله عز وجل يراك واخوك الذي لا يتميز منك ولا ينفصل عنك يخدمك يريد بذلك في خدمته في الجنة مثل عشرة اضعاف عدد أهل الدنيا ، فقعده الرجل ، وقال له علي عليه السلام : أقسمت عليك بعظيم حقي الذي عرفته لما غسلت مطمئناً كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبر ، ففعل الرجل ذلك ، فلما فرغ ناول الأبريق محمد بن الحنفية ، وقال : يا بني لو كان هذا الابن حضرتي دون ابيه لصبيت على يده ولكن الله عز وجل يأتي أن يسوي بين ابن وابيه إذا جمعهما مكان ، لكن قد صب الأب على الأب فليصب الابن على الابن ، فصب محمد بن الحنفية على الابن « (١) » .

وقال الصادق عليه السلام : التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب ، والتواضع ما يكون لله وفي الله وما سواه فكبير ، ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده ، ولأهل التواضع سياء يعرفها أهل السموات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين ، قال الله عز وجل : « وَاعْلَمِ الْأَعْرَافُ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلًّا بِسِيَاهُمْ » (٢) ، وأصل التواضع من اجلال الله وهيبته وعظمته وليس لله عز وجل عبادة يقبلها ويرضاها إلا وبابها التواضع ، ولا يعرف ما في معنى حقيقة التواضع إلا المقربون من عباده المستقلين بوحدانيته ، قال الله عز وجل : « وَاعْبَادُوا الرَّحْمَنَ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ

(١) روي هذا الحديث في البحار في الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر

ص ١٤٩ باب التواضع عن الاحتجاج والتفسير المنسوب الى الامام العسكري عليه السلام .

(٢) الاعراف الآية ٤٥

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» (١) وقد أمر الله عز وجل أعز خلقه وسيد بريته
محمداً صلى الله عليه وآله بالتواضع ، فقال عز وجل : « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ
لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (٢) ، والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع
والخشية والحياء ، وإنهن لا يأتين إلا منها وفيها ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلا
للمتواضع في ذات الله تعالى ﴿ (٣) وقال الامام ابو محمد الحسن بن علي العسكري
عليه السلام : « اعرف الناس بحقوق اخوانهم وأشدهم قضاء لهم اعظمهم عند الله
شأننا ومن تواضع في الدنيا لآخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعه
علي بن ابي طالب عليه السلام حقاً » (٤) .

مجموع

الزلة

لما عرفت أن كل فضيلة وسط له طرفان مذمومان فأحد طرفي التواضع
(الكبر) كما عرفت ، وهو من طرف الافراط ، وآخرها (الدلة) والتخاسس
وهو من طرف التفريط ، فكما أن الكبر مذموم ، فكذلك الدلة والتخاسس

(١) الفرقان الآية ٦٤

(٢) الشعراء الآية ٢١٥

(٣) روي هذا الحديث في البحار ايضاً في الموضع المتقدم عن

مصباح الشريعة .

(٤) هذا الحديث من نفس الحديث المتقدم عن الاحتجاج والتفسير

المنسوب الى الامام .

ايضاً مذموم ، اذ كلا طرفي الامور ذميم ، والمحمود هو التواضع من دون الخروج الى شيء من الطرفين ، اذ أحب الامور الى الله اوسطها ، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه وهو العدل ، فلو وقع في طرف النقصان فليرفع نفسه اذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعالم إذا دخل عليه اسكاف فحلى له مجلسه وأجلسه فيه ، وترك تعليمه وافادته ، وإذا قام عدا الى الباب خلفه ، فقد تخاسس وتذلل وهو غير محمود ، بل هو رذيلة في طرف التفريط ، فاللازم اذا وقع فيه أن يرفع نفسه الى أن يعود الى الوسط الذي هو الصراط المستقيم ، فإن العدل أن يتواضع بمثل ما ذكر لأمثاله ولمن يقرب درجته فأما تواضعه للسوقي فبالبشر في الكلام والرفق في السؤال واجابة دعوته والسعي في حاجته وامثال ذلك ، وألا يرى نفسه خيراً منه ، نظراً الى خطر الخاتمة .

ثم ينبغي ألا يتواضع للمتكبرين ، اذ الانكسار والتذلل لمن يتكبر ويتعزز مع كونه من التخاسس والمذلة المذمومة يوجب اضلال هذا المتكبر ، وتقريبه على تكبره ، واذا لم يتواضع له الناس وتكبروا عليه ربما تنبّه وترك التكبر ، اذ المتكبر لا يرضى بتحمل المذلة والاهانة من الناس ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اذا رأيتم المتواضعين من امتي فتواضعوا لهم واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك لهم مذلة وصغار » .

(ومنها) :

الافتخار

أي المباهاة باللسان بما توهمه كلاً ، والغالب كون المباهاة بالامور الخارجة عن ذاته وهو بعض أصناف التكبر كما اشير اليه ، فكل ما ورد في ذمه يدل على ذمه والأسباب الباعثة عليه هي أسباب التكبر ، وقد تقدم أن شيئاً منها لا يصلح لأن يكون منشأ للافتخار فهو ناش من محض الجهل والسفاهة ، قال سيد الساجدين عليه السلام : « عجيباً للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة ثم (هو) (١) غداً جيفة » وقال الباقر عليه السلام : « عجيباً للمختال الفخور وإنما خلق من نطفة ثم يعود جيفة وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يصنع به » وقال عليه السلام : « صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر يوم فتح مكة فقال أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ألا إنكم من آدم وآدم من طين ألا إن خير عباد الله عبد اتقاه » وقال له عليه السلام عقبة بن بشير الأسدي أنا في الحسب الضخم عزيز في قومي ، فقال له : « تمنّ علينا بحسبك إن الله تعالى رفع بالإيمان من كان الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفاً إذا كان كافراً فليس لأحد فضل على أحد إلا بتقوى الله » وقال الصادق عليه السلام : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آفة الحسب الافتخار والعجب » وقال عليه السلام « أتى رسول الله صلى الله عليه وآله رجل فقال يا رسول الله أنا فلان بن فلان حتى عدت تسعة فقال رسول الله :

(١) في بعض نسخ الكافي في باب الفخر والكبر زيادة كلمة [هو] .

أما انك عاشرهم في النار « وتقل أن قريشاً تفاخروا عند سلمان فقال : « لكني خلقت من نطفة قدرة ثم أعود جيفة منتنة ثم الى الميزان فإن ثقل فأنا ككريم وإن خف فأنا لثيم » . ثم ضده استحقار نفسه وترجيح غيره عليها بالقول .
(ومنها) :

البغي

ويسمى البذخ ايضاً ، وهو صعوبة الانقياد والتابعة لمن يجب أن يُنقاد (له) ، وقد فسر بمطلق العلو والاستطالة ، سواء تحقق في ضمن عدم الانقياد لمن يجب أن يُنقاد (له) ، أو في ضمن أحد أفعال الكبر ، أو في ضمن الظلم والتعدي على الغير ، وعلى أي تقدير هو أخش أنواع الكبر إذ عدم الانقياد لمن يجب أن يُنقاد (له) كالأنبيا وأوصياهم يؤدي الى الكفر الموجب للهلاك الأبدى ، ولقد هلك بذلك أكثر طوائف الكفار كاليهود والنصارى وكفار قريش وغيرهم وكذا الظلم والتعدي على المسلم واذلاله بالمقهورية والمغالوية من المملكات العظيمة ، ولذا ورد في ذمه ما ورد ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن أعجل الشر عقوبةً البغي » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « حق على الله عز وجل ألا يبغى شيء على شيء إلا أذله الله ولو أن جبلاً بغى على جبل لهد الله الباغى منها » ، وقال امير المؤمنين عليه السلام : « أيها الناس إن البغي يقود اصحابه الى النار وأن اول من بغى على الله عناق بنت آدم واول قتيل قتله الله عناق وكان مجلسها جريباً في جريب وكان لها عشرون اصبعاً في كل اصبع ظفران مثل المنجلين فسلب الله عليها اسداً كالفيل وذئباً كالبعير ونسراً كالبعغل فقتلنها وقد

قتل الله تعالى الجبابرة على أفضل احوالهم وأمن ما كانوا « وقال الصادق عليه السلام : « يقول ابليس لجنوده ألقوا بينهم الحسد والبغي فإنهما يعدلان عند الله الشرك » وكتب عليه السلام الى بعض اصحابه : « انظر ألا تكلمن بكلمة بغي أبداً وإن أعجبتك نفسك وعشيرتك » .

وعلاجه ان يتذكر (اولاً) هذه الأخبار الواردة في ذمه (وثانياً) ماورد في مدح ضده اعني التسليم والالتزام ان يلزم اطاعته وتابعيته كقولهم عليهم السلام : « شيعتنا المسلمون » والآيات والأخبار الواردة في وجوب اطاعة الله واطاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأولي الامر، وغيرهم من العلماء والفقهاء الذين هم نواب الأمة في زمن الغيبة ، وبعد ذلك يكلف نفسه التابعة والاطاعة لمن يجب ان يطاع ، ويتخضع له قولاً وفعلًا حتى يصير ذاك له ملكة .

(ومنها) :

تزكية النفس

اي نفي النقائص عنها وإثبات الكمالات لها ، وهو من نتائج العجب ، وقبحه اظهر من ان يخفى ، إذ من عرف حقيقة الامكان ، ثم اطلع على خاق الانسان ، يعلم انه عين القصور والنقصان ، فلا يطلق بمدح نفسه اللسان ، على أنه يتضمن بخصوصه قبحاً يشهد به الذوق والوجدان ، ولذا قال امير المؤمنين عليه السلام : « تزكية المرء لنفسه قبيحة » وقد تقدم ما يكفيك لمعرفة حقارة الانسان وخساسته .

ثم ضد التزكية عدم تبرئة نفسه من العيوب والاقرار بها وإثبات النقائص

لها ، فاذا كلف نفسه عليه وفعل ذلك مرات متوالية يصير معتاداً له ، ويزول عنه ما اعتاده من مدح نفسه .
(ومنها) :

العصبية

وهي السعي في حماية نفسه أو ماله اليه نسبة من الدين والأقارب والعشائر واهل البلد قولاً أو فعلاً ، فان كان ما يحميه ويدفع عنه السوء مما يلزم حفظه وحمايته وكانت حمايته بالحق من دون خروج من الانصاف والوقوع في ما لا يجوز شرعاً ، فهو الغيرة الممدوحة التي هي من فضائل قوة الغضب . كما مر ، وإن كان مما لا يلزم حمايته أو كانت حمايته بالباطل بان يخرج عن الانصاف وارتكب ما يحرم شرعاً ، فهو التعصب المذموم وهو من رداءه قوة الغضب ، والى ذلك يشير كلام سيد الساجدين عليه السلام حيث سئل عن العصبية ، فقال : « العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم » .

والغالب اطلاق العصبية في الأخبار على التعصب المذموم ، ولذا ورد بها الذم كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من تعصب أو تُعصَّب له فقد خلعَ رَبَّقَ الايمان من عنقه » وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية » وقال السجاد عليه السلام : « لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب وذلك حين أسلم عصبا للنبي صلى الله عليه وآله في حديث السلي الذي بقي على

النبي صلى الله عليه وآله « وقال الصادق عليه السلام : « إن الملائكة كانوا يحسبون أن ابليس منهم وكان في علم الله أنه ليس منهم فاستخرج ما في نفسه بالحمية والعصب فقال: خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » (١) (ومنها) :

كتمان الحق

والانحراف عنه ، وباعثه إما العصبية أو الجبن فهو من نتائج واحدة منهما ، فعلى (الأول) يكون من رذائل قوة الغضب من جانب الافراط ، وعلى (الثاني) يكون من رذائلها من جانب التفريط ، وربما كان الباعث في بعض افراده الطمع المالي إلا أن الظاهر كون الفاعل المباشر النفس مع رداءة قوة الغضب كما في نفس الغضب وغيره ، إذ ما لم يحصل في النفس ضعف وفي القوة الغضبية خمود لم يتحقق كتمان الحق . ويندرج تحته الميل في الحكم ، وكتمان الشهادة ، وشهادة الزور ، وتصديق المبطل ، وتكذيب الحق ، وغير ذلك .

والظواهر الدالة على ذمه مطلقاً وعلى كل واحد من الأصناف المندرجة تحته كثيرة ، ولا حاجة الى ذكرها لاشتهارها . وعلاج العصبية وكتمان الحق أن يتذكر أولاً ايجابهما لسيخط الله ومقتنه وربما تأديا الى الكفر ، وثانياً فوائده ضدهما أعني الانصاف والاستقامة على الحق ، وبعد ذلك يكلف نفسه على اظهار ماهو الحق والعمل به ، ولو بالمشقة الشديدة الى ان يصير ذلك عادة له ، فيزول عن نفسه ما صار لها ملكة من التعصب وكتمان الحق .

وصل

الانصاف والاستقامة على الحق

لما كانت ضدّهما الانصاف والاستقامة على الحق ، فلنشر الى بعض ما ورد في مدحهما تحريكا للطالبين الى الأخذ بهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الانفاق من الاقتار ، والانصاف من نفسه ، وبذل السلام » ، وكان صلى الله عليه وآله يقول في آخر خطبته : « طوبى لمن طاب خلقه وطهرت سجيته وصلحت سريره وحسنت علانيته وانفق الفضل من ماله وامسك الفضل من قوله وانصف الناس من نفسه » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « سيد الأعمال انصاف الناس من نفسك » الى آخره ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من وامى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه ، فذلك المؤمن حقاً » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث خصال من كنّ فيه أو واحدة منهنّ كان في ظل عرش الله يوم لا ظلّ إلا ظله رجل اعطى الناس عن نفسه ما هو سائلهم » الحديث ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له . « ألا إنه من ينصف من نفسه لم يزد الله إلا عزاً » وقال الصادق عليه السلام : « من يضمن لي اربعةً باربعة ابيات في الجنة : انفق ولا تحف فقراً ، وافش السلام في العالم ، واترك المراء ، وإن كنت محقاً ، وانصف الناس من نفسك » وقال عليه السلام : « ألا اخبركم بأشد ما فرض الله على خلقه » فذكر ثلاثة اشياء اولها : « انصاف الناس من نفسك » وقال عليه السلام : « من انصف الناس من نفسه رضي به حكماً لغيره »

وقال عليه السلام : « ما تدارى اثنان في امر قط فأعطى احدهما النصفَ صاحبه فلم يقبل منه إلا أدبل منه » وقال عليه السلام : « ثلاثة هم أقرب الخلق الى الله تعالى يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب : رجل لم تدعه قدرة في حال غضبه على ان يحيف على من تحت يده ، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة ، ورجل قال بالحق فيما له وعليه » وقال عليه السلام : « إن الله جنة لا يدخلها إلا ثلاثة أحدهم من حكم في نفسه بالحق » (١) (ومنها) :

القساوة

وهي ملكة عدم التأثر عن تألم ابناء النوع ، ولا ريب في كونه ناشئاً من غلبة السبعية ، واكثر ذمائم الصفات من الظلم والايذاء وعدم اغاثة المظلومين وعدم مواساة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك يترتب عليه . وضده الرحمة والرفقة وهو التأثر عن مشاهدة تألم ابناء نوعه ويترتب عليه من الصفات المرضية اضداد ما ذكر . وقد ورد به المدح والترغيب في الاخبار الكثيرة ، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في اكنافهم فاني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فاني جعلت فيهم سخطي » وكقول الصادق عليه السلام : « اتقوا الله وكونوا اخوة بررة متحابين في الله متواصلين متراحمين » الخ وقوله عليه السلام : « تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا اخوة بررة كما امركم الله » وقوله

(١) هذا الحديث رواه في المكافي في باب الانصاف والعدل عن الباقر

عليه السلام .

عليه السلام : « يحق على المسامحين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لاهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض ، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل رحماء بينهم متراحمين معتمدين لما غاب عنكم من امرهم على ما مضى عليه معشر الانصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله » وقد ورد أن من ترحم على العباد يرحمه الله ، والأخبار الواردة في فضيلة مطلق الرحمة وفي فضيلة خصوص كل واحد واحد في ما يندرج تحته من اعانة المحتاج واغاثة المظلوم ومواساة الفقير والاغتمام بمصائب المؤمنين وأمثال ذلك أكثر من أن تحصى . ثم إن ازالة القساوة واكتساب الرحمة في غاية الاشكال ، إذ القساوة صفة راسخة في القلب لا يقدر على تركها بسهولة ، فطريق العلاج أن يترك لوازمها وآثارها من الأفعال الظاهرة ويواظب على ما يترتب على الرحمة من الصفات الاختيارية ، ويكلف نفسه على ذلك حتى يرتفع على التدريج مبدأ الأولى ويحصل مبدأ الثانية .

فهرس الجزء الاول من (جامع السعادات)

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١	مقدمة المؤلف	٤٣	بازاء كل واحدة من القوى الاربع
	الباب الأول في المقدمات		لذة وألم
٧	انقسام حقيقة الانسان وحالاته	٤٧	ابقاظ فيه موعظة ونصيحة
	بالاعتبار		الباب الثاني في أقسام الأخلاق
٧	تجرد النفس وبقاؤها	٥٢	اجناس الفضائل الاربع
١٠	تليذ النفس وتآلمها		والاقوال في حقيقة العدالة
١١	فضائل الأخلاق ورذائلها	٥٥	العدالة انقياد العقل العملي للعقل
١٣	الأخلاق الذميمة تحجب عن		النظري
	المعارف	٥٨	العقل النظري هو المدرك للفضائل
١٧	العمل نفس الجزء		والرذائل
٢٢	تأثير المزاج على الاخلاق	٥٩	دفع الاشكال في تقسيم الحكمة
٢٤	تأثير التربية على الاخلاق	٦١	تحقيق الوسط والاطراف
٢٧	شرف علم الاخلاق اشرف	٦٥	اجناس الرذائل وانواعها
	موضوعه وغايته	٧٣	الفرق بين الفضيلة والرذيلة
٢٩	النفس واسماؤها وقواها الاربع	٧٧	العدالة اشرف الفضائل
٣٤	امتثال حقيقة الانسان من الجهات	٨٣	ابقاظ
	المتقابلة	٨٤	دفع اشكال في دخول المتفضل
٣٧	الأقوال في الخير والسعادة		في العدالة وهي المساواة
	والتوفيق بينها	٨٥	اصلاح النفس قبل اصلاح الغير
٤١	لا تحصل السعادة إلا باصلاح		وعدالة السلطان
	جميع الصفات والقوى دائماً	٨٧	لا حاجة الى العدالة مع رابطة
٤٢	غاية السعادة القشبه بالمبدأ		الحبة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨٨	التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي	١٢٤	مراتب اليقين
		١٢٧	(٣) الشرك
		١٢٨	التوحيد في الفعل
		١٣١	ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى
٩٢	المقدمة واربعة مقامات	١٣٤	مناجاة السر لأرباب القلوب
		١٤٢	(٤) انخواطر النفسانية
٩٧	(٢) المعالجات الكلية لمرض النفس	١٤٤	اقسام انخواطر ومنها الالهام
		١٤٦	المطاردة بين جندي الملائكة
٩٨	(٣) المعالجات الخاصة لمرض النفس		والشياطين في معركة النفس
		١٤٧	تسويلات الشيطان
			ووساوسه
	المقام الاول في القوة العاقلة	١٤٩	العلام الفارقة بين الالهام والوسوسة
١٠٠	الجزيرة طرف الافراط		علاج الوسواس
١٠٠	الجهل البسيط طرف التفريط	١٥٠	ما يتم به علاج الوسواس
١٠١	شرف العلم والحكمة وهو الحد الوسط في القوة العاقلة	١٥٣	ما يتوقف عليه قطع الوسواس
١٠٥	آداب التعلم والتعليم	١٥٦	حديث النفس لامؤاخذه عليه
١١٠	العلم الالهي وعلم الأخلاق والفقه	١٥٨	الحاظر المحمود والتفكر
	أشرف العلوم		مجاري التفكير في المخلوقات
١١١	اصول العقائد المجمع عليها	١٦٣	نصيحة
	انواع الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة وهي (٥) انواع	١٦٦	
١١٦	(١) الجهل المركب	٢٠٠	
١١٧	(٢) الشك والحيرة	٢٠١	(٥) المكر والحيل
١١٨	اليقين		المقام الثاني فيما يتعلق بالقوة الغضبية
١٢٠	علامات صاحب اليقين	٢٠٥	التهور الافراط في قوة الغضب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
٢٠٦	الجبن التفريط في قوة الغضب	٢٦٢	الثبات اخص من كبر النفس	
٢٠٧	الشجاعة الوسط في قوة الغضب	٢٦٣	دناءة الحممة (٣)	
	انواع الرذائل ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية	٢٦٥	عدم الغيرة والحمية (٤)	
	ومي (٢١) نوعاً	٢٦٦	الغيرة والحمية	
٢٠٨	(١) الخوف	٢٦٦	الغيرة على الدين والحريم	
٢٠٩	الخوف المذموم وأقسامه		والأولاد	
٢١٧	الخوف الحمود وأقسامه	٢٧٥	العجلة (٥)	
	ودرجاته	٢٨٠	الانابة والتوقف والسكينة	
٢٢٠	يم يتحقق الخوف		والوقار	
٢٢٢	الخوف من الله افضل الفضائل	٢٨١	سوء الظن بالخائى والمخلوق (٦)	
٢٢٨	الخوف اذا جاوز حده كان	٢٨٥	حسن الظن	
	مذموماً	٢٨٦	الغضب (٧)	
٢٣٠	طريق تمييز الخوف	٢٨٧	الافراط والتفريط	
	الممدوح		والاعتدال في قوة الغضب	
٢٣٢	خوف سوء الخاتمة واسبابه	٢٨٩	الغضب	
٢٤٢	الفرق بين الاطمئنان	٢٩١	امكان ازالة الغضب وطرق	
	والامن من مكر الله		علاجه	
٢٤٣	التلازم بين الخوف والرجاء	٢٩٧	فضيلة الحلم وكظم الغيظ	
٢٥٣	مواقف الخوف والرجاء	٣٠٠	الانتقام (٨)	
	وترجيح احدهما على الآخر	٣٠٢	العفو	
٢٥٥	العمل على الرجاء أعلى منه على	٣٠٤	العنف (٩)	
	الخوف	٣٠٥	فضيلة الرفق	
٢٥٨	مداواة الناس بالخوف أو	٣٠٦	المداواة	
	الرجاء على اختلاف امراضهم	٣٠٧	سوء الخلق بالمعنى الاخص (١٠)	
٢٦٠	صغير النفس (٢)	٣٠٩	طرق اكتمساب حسن الخلق	
٢٦١	كبير النفس			

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
علاج الكبر عاملاً وعملاً	٣٥٤	الحقد (١١)	٣١٣
اشكال وحل	٣٥٥	العداوة الظاهرة (١٢)	٣١٥
العلاج العملي للكبر	٣٥٧	الضرب والفحش واللعن (١٣)	٣١٥
التواضع ومدحه	٣٦٢	والطعن	
الذلة	٣٦٥	العجب (١٤)	٣٢٣
الافتخار (١٦)	٣٦٧	ذم العجب	٣٢٥
البغي (١٧)	٣٦٨	آفات العجب	٣٢٨
تزكية النفس (١٨)	٣٦٩	علاج العجب اجمالاً وتفصيلاً	٣٢٩
العصبية (١٩)	٣٧٠	انكسار النفس	٣٤٥
كتمان الحق (٢٠)	٣٧١	الكبر (١٥١)	٣٤٦
الانصاف والاستقامة على	٣٧٢	ذم الكبر	٣٤٧
الحق		التكبر على الله وعلى الناس	٣٥١
القساوة (٢١)	٣٧٣	درجات الكبر	٣٥٣